AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01022 3257

Ṣarrūf, Fu'ād
Rūz filt
E
807
S27
1943

روزفلت

بقلم

فؤاد صرّوف

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

923.273
R677

٩٢٣ ٢٧٣
اوزفلد ص
١٧

23067

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

مارس ١٩٤٣

إهداء الكتاب

إلى

سعادة المستر الكسندر كيرك

الوزير المفوّض للولايات المتحدة الأميركية فى المملكة المصرية

وهو مَنْ يمثل بسياستهِ وأعمالهِ سياسة الرئيس

فرنكلن دلانو روزفلت

والمبادىء التى يجاهد فى سبيلها

923.273
R677

23067

محتويات الكتاب

مقدمة

الفصل الأول

أصله ونشأته

صفحة

١ — سلالته وتحدره ١٠

٢ — صفة آل روزفلت ١٥

٣ — البحر أستاذ ٢٢

٤ — نزعته السياسية ٢٨

٥ — زوجه وزواجه ٣٢

الفصل الثانى

من آلبنى إلى وشنطن

١ — سياسى مطبوع ٤٠

٢ — النضال السياسى الأول ٤٦

٣ — مع ولسن إلى وشنطن ٥٦

٤ — الحرب والأسطول ٦١

٥ — المدار : عصبة الأمم ٧٠

الفصل الثالث

طريق البيت الأبيض

صفحة

١ — المرض امتحان ٧٦
٢ — المرض فرصة ٨٦
٣ — عودته السياسية ٨٩
٤ — حاكم مصلح ٩٥
٥ — أهل الفكر ١٠٥

الفصل الرابع

نظام « التوزيع الجديد »

١ — انتخاب الرئيس فى العرف والدستور ١١٠
٢ — ترشيح روزفلت وانتخابه ١٢٠
٣ — أزمـة ١٢٦
٤ — فلسفة التوزيع الجديد ١٣٩
٥ — الرئيس والمحكمة العليا ١٥٧

الفصل الخامس

الولايات المتحدة والعالم

١ — قواعد سياستها الخارجية ١٦٨
٢ — روزفلت وسياسة الجار الطيب ١٨٢
٣ — قانونا « الحياد » و « الاقراض والتأجير » ١٩١
٤ — الولايات المتحدة محاربة ٢١٥
٥ — روزفلت وهتلر والعالم المرتجى ٢٢٣
خاتمة وكشف المراجع ٢٤١

Property of
Princeton University
Library



الرئيس فرنكلن دلانو روزڤلت

الرئيس الثانى والثلاثون للولايات المتحدة الأميركية

مقدمة (١)

بينما كان الحاكمان بأمرهما ، أو الحاكمان بأمر أحدهما ، يتأهبان للاجتماع فى مكان ما ، فى أوربا يوم الاثنين فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، كان الرئيس فرنكلن روزفلت ، يتأهب لحفلة تنصيبه الثالثة ، و إلقاء خطبة الرآسة الثالثة ، أمام دار الكابيتول ، مقر المجلسين النيابيين فى الحاضرة الأميركية ، وفى ظلّ مسلّة وشنطن منشىء الوحدة ، وعلى مقربة من تذكار لنكن الذى صانها من الانفصام .

ولو أن قدرةً علوية ، أرادت قصداً أن تجمع فى إطار عالمى ، صورة الضدين ، لتفرض على العالم قاطبة المقابلة بينهما ، واستخراج العبرة من المقابلة ، لما هيأت إلاّ حادثين ، كهذين الحادثين فى يوم واحد ، أو لعلّ قدرة علوية ، أرادت ذلك قصداً ، وليس عليها شىء عسير .

فى الجانب الواحد من الصورة ، رجلان يجتمعان خفية فى معزل عن أعين الرقباء وفى حماية نفر من العيون والأرصاد ، ويدبران سرًّا ما يريانه كفيلاً بإخضاع العباد ، وتقييد العقل ، وفرض السلطان بالقوة الغاشمة .

وفى الجانب الآخر رجل يقف حاسر الرأس أمام الجماهير يعلن ثقته : « برضى المحكومين » واحترامه لعقل الشعب وروحه ، و إيمانه بالرجل المنسى ، وعزمه الذى لاينثنى ، على أن ينهض بالولايات المتحدة الاميركية ومعها ، إلى مستوى تاريخها المجيد . إن فى كلماته رنّة من كلمات وشنطن وهو يناشد شعبه أن « احتفظ بجذوة الحرية المقدسة » وعلى سماته الخِلقية والخُلقية مسحة من إنسانية لنكن وهو يقول :

---

(١) حديث أذعته من القاهرة يوم ٢٣ يناير ١٩٤١ بعد انقضاء ثلاثة أيام على تنصيب روزفلت الثالث ، واجتماع هتلر وموسولينى فى مضيق برنر .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

« هذه الأمة لا كيان لها ، نصفها عبد ونصفها حر » . هنا ضدان جمعتهما القدرة العلوية فى إطار وهما لايجتمعان .

إن الحاكم بأمره يسعى إلى التغلب على توزعه النفسى بالالتجاء إلى الأبهة الخارجية الصاخبة ، وروزڤلت يستطيع ، لثقته بسلامه النفسى ، أن يعرض عن مظاهر الوقار التى تلزم منصبه بغير أن يفقد وقاره . الحاكم بأمره يبدأ بالحقد والاضطهاد ، ورغبة روزڤلت الأولى متجهة ، منذ ما خاض غمار السياسة ، إلى حماية المضطهدين . الحاكم بأمره لا يتكلم إلا عن مصلحة القوم كما يفسرها ويصورها مطمحه الضيق أو شعوره الموتور ، وروزڤلت لا يتكلم إلا عن مصلحة الفرد وكرامته وهناءته كما يفهمها الرسل والمصلحون . الحاكم بأمره يعيش فى حزبه وله ويلغى سائر الأحزاب ، وروزڤلت يعيش فى نضال الأحزاب . الحاكم بأمره يغتصب السلطان بالسيف والنار ، ويحافظ عليه بالاضطهاد والاعتقال ، وروزڤلت تلقى السلطان فى ثلاثة انتخابات متوالية نتيجة « لإعراب الأكثرية الحرة من الأمة عن رأيها الحر » . الحاكم بأمره يخلق الأزمات لكى يحرز فى حلها نصراً جديداً يضيف ألقةً لمعة جديدة إلى الهالة التى ينسجها له أنصاره ، وروزڤلت وجد نفسه فى مستهل رآسته الأولى أمام أتعس أزمة اقتصادية منيت بها أميركا ، وفى مستهل رآسته الثالثة أمام أزمة عالمية ، فاتجه إليه الشعب في الحالين يطلب القيادة الرشيدة والضوء . رغبة الحاكم بأمرهِ وشهوتهُ تدفعانه إلى دك أركان المجتمع ، ورغبة روزڤلت تتجه إلى حفظها وتدعيمها . الحاكم بأمره يرتاب فى الناس ، وروزڤلت يسعى إليهم ، الأول همُّه أن يُرْهَب ، والثانى همه أن يُحَب .

وليس الغرض أن أقول إن روزڤلت رجل كامل . كلاَّ ، ولكن الصفات التى تقدم ذكرها بارزة فيه : فى خلقه كرجل فى داره ، وفى خلقه كسياسى فى الحلبة العامة . وما هذه الصفات سوى ، إعراب ، مستوياً رجلاً ، عن لون من الحياة ، وصورة من

المجتمع ، بينما الصفات التى يتصف بها الحاكم بأمره ، منذ ما عرف باسم الطاغية فى عصر الاغريق القدماء ، إلى أن عرفناه فى عصرنا باسم الدكتاتور ، واحدة على مرّ العصور قلّما تتغير ، وهى كذلك إعراب مجسم فى رجل ، عن لون من الحياة ، وصورة سقيمة من المجتمع البشرى .

* * *

كتب الدكتور جون فنلى ، وقد كان مديراً لمعارف ولاية نيويورك ومحرّراً لجريدة نيويورك تيمس وأحد المقربين إلى الرئيس ولسن، أنه وصل فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٨ إلى روما فكان أول ما استوقف نظره عند نزوله من القطار عنوان عريض بحروف ضخمة فى إحدى الصحف الإيطالية مؤداه « الجنود الأميركية فى الميدان الإيطالى » فعقب فى مذكراته على ذلك بقوله : « إن صيحة الحرية من العالم الجديد ترن أصداؤها فى أرض مكتشفه » .

وقد مضى ولسن وفنلى وغيرهما إلى لقاء ربّهم ، ووضعت إيطاليا الرسمية أصابعها فى آذانها فلا تسمع صيحة الحرية الآن ، ولكن الصيحة ما تزال منبعثة من العالم الجديد ، وفى أوربا بل فى إيطاليا نفسها ، ملايين من الآذان تتوق إلى سماعها ، ومن القلوب تتهيأ لها ، على الرغم من أن الأوامر العسكرية قد حالت بين آذان هؤلاء و بين أمواج الأثير الحافلة بأصدائها .

وقد ألقى وشاح الرئيس ولسن على كتفى فرنكلن روزفلت العريضتين . فهو مطبوع بطابعه المثالى ، مؤمن إيمانه بالدمقراطية ومستقبلها من حيث هى نظام للحكم وصورة للاجتماع ، ولكنه يفوقه فى صدق نظرته إلى حقائق الحال ، وحسن تصريفه للأمور . إن صوته يجمع بين النزعتين وهو يقول : « الدمقراطية لم تمت ، ولا هى سائرة فى طريق الموت . إننا نعلم ذلك لأننا رأيناها تبعث بعثاً جديداً وتمضى فى طريق النموّ . إننا نعلم ذلك لأنها السعى المطلق من القيود ، يبذله أفراد من رجال

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

ونساء فى عمل مشترك ، فى عمل يعمل وينجز من طريق الإعراب الحرّ عن رأى أكثرية حرّة » . وإننى لأتصور الرئيس روزفلت وهو واقف على سلالم الكابيتول يقول هذا القول فى خطبة رآسته الثالثة ، فتعود بى الذاكرة ثمانى سنوات إلى الوراء فأتخيله فى اليوم الرابع من مارس سنة ١٩٣٣ ، وهو يوم تنصيبه الأول ، واقفاً الوقفة نفسها وقد دُعى إلى تقلّد أعلى منصب فى الدولة ، فواجه فى ذلك اليوم الذى يجب أن يكون يوم فرح واغتباط ، أزمةً مالية اقتصادية عصفت بمنشآت الأمة من الساحل إلى الساحل ، فالمصارف مفلسة أو على شفا الإفلاس ، وعجلات الصناعة تسير فى بطء وتثاقل نحو الوقوف ، وعشرة ملايين أو يزيدون من العمال معطلون عن العمل ، والناس حائرون لا يعلمون ما يكون مصير كل ما بذلوه من جهد أو نشاط ، ولا ما يكون مصير أولادهم من بعدهم .

وقف فرنكلن روزفلت هناك شاحب الوجه ، يده اليسرى على التوراة التى جاء بها جده الأعلى من أوربا قبل ثلاثة قرون ، عند ما هجرها طلباً للحرية ، ويده اليمنى مرفوعة أمام رئيس المحكمة العليا ، فأقسم يمين الولاء للدستور ثم اشرأبت إليه الأعناق ، لتلتقط كل كلمة تخرج من فيه . وبدأ خطبة الرآسة فقال : « هذا وقت يتعين علينا فيه أن نقول الحقيقة فى صراحة وجرأة . . . إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف ... بهذه الروح فىّ وفيكم نواجه معاً متاعبنا المشتركة ... وهى متاعب ليس مردُّها بحمد الله إلى الأشياء المادية . . . إن مصيبتكم ليست ناشئة عن إمساك الأرض . والجراد لم يكتسح زرعنا ... فإذا قيست متاعبنا من هذا القبيل بما عاناه آباؤنا وأجدادنا فليس لنا إلاّ أن نحمد الله ... » ثم انتقل إلى الهجوم فقال : « إن الصيارفة قد فرُّوا من مقاعدهم فى هيكل الحضارة ... ففى وسعنا الآن أن نعيد وقف ذلك الهيكل على الحقائق الخالدة ... إن الأمة تطلب العمل وستأخذ منى ما تريد » .

كان العدوُّ الذى واجهـه روزفلت حينئذٍ والأمة من ورائه ، عدوًّا داخليًّا ، فقابله بذلك المزيج المتزن فى نفسه ، من النزعتين الـكمالية والعملية فى آن واحد . ولم يكن فى حلبة السياسة الدولية حينئذ مايبعث على القلق . ومع ذلك نجد فى بضعة السطور القليلة التى خصصها للسياسة الخارجية فى خطبته ، نواة للخطة التى يجهر فى الدعوة إليها اليوم ، قال : « وفى ميدان السياسة العالمية ، أقف سياسة هذه الأمة على مبدإ الجار الطيب ، الجار الذى يحترم نفسه احتراماً صادقاً ، فيحترم لذلك حقوق غيره . الجار الذى يحترم ما يجب عليه ويحافظ على عهوده وحرمتها » . إن كل ما يعلنه الطغاة ويطلبونه ويطمعون فيه ويتوسلون به مردود فى هذه العبارة البسيطة لأن روزفلت أفرغ فيها إحدى الحقائق الخالدة فى تاريخ الاجتماع البشرى .

وقد انقضت عليه ثمانى سنوات ، اشتد فيها الخلاف على بعض الخطط التى اقترحها ، وكانت المقاومة على أشدها من الطبقة التى وصفها فى خطبته الأولى بعبارة « الصيارفة الذين فروا من مقاعدهم فى هيكل الحضارة » وهى الطبقة التى ينتمى إليها هو بحكم نشأته . ولـكن كتلة الشعب أسلمته زمامها مرة أخرى فى سنة ١٩٣٦ عند ما جددت انتخابه بأكثرية لا مثيل لها فى تاريخ الولايات المتحدة . وأخيراً خرجت على كل تقليد سابق فى حياة أميركا السياسية ، فانتخبته مرة ثالثة للرآسة ، وهو أول من انتخب لها ، فـكأنها نادته فى ١٩٤٠ كما نادته سنة ١٩٣٢ لقيادتها فى أزمة أخرى عصيبة .

فعند ما وقف من أيام (٢٠ يناير ١٩٤٠) لإلقاء خطبة رآسته الثالثة ، كان العدوُّ الداخلى الذى واجهه قبل ثمانى سنوات قد تراجع قليلاً ، ولـكن العدوَّ الخارجى بدا فى الأفق الدولى القريح . إن مصير صورة الحياة الدمقراطية التى ارتضاها شعبه وآثرها على غيرها مهددة بالزوال ، فلتكن هذه الحفلة ، كما كانت الحفلة التى سبقتها من ثمانى سنوات ، لوقف الأمة وقفاً جديداً على الحقائق الخالدة !

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ونقلت أمواج الأثير كلماته إلى أربعة أقطار الأرض وكأنها بوق ينادى إلى الكفاح .

***

ولكن النزعة المثالية فى تركيب روزڤلت العقلى لا تحجب عن ناظريه حقائق الأحوال . وليس إدراك الحقائق بالشىء الذى طرأ عليه أخيراً ، بل هو أصيل فيه . فقد كان وكيلاً لوزارة البحرية الأميركية فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان فى الثلاثين من عمره ، فوجّه همّه من البدء إلى إقناع الشعب الأميركى بوجوب تعزيز الأسطول ، ونُشرت عشرات من المقالات منه بوحى ، وفيها الدليل على أن مائتى ميل لا غير من سواحل الولايات المتحدة — وطولها ألفا ميل — محصنة والباقى غير محصن . ثم سعى بعد ذلك إلى إعداد الأسطول ليكون متأهباً إذا اضطرت البلاد إلى خوض الحرب . ولكن الرئيس ولسن كان أقوى معارض فى هذه الخطة . وفى خريف سنة ١٩١٦ — أى نحو ستة أشهر أو سبعة قبل دخول أميركا الحرب — قابل روزڤلت الرئيس ولسن فقال له : إن الحوادث تسير سراعا ونحن على وشك الانغمار بها على ما يلوح فيجب أن نكون متأهبين . فهزّ الرئيس ولسن رأسه معارضاً . ثم حوّل الموضوع إلى مسائل أخرى حكومية . فلما همّ روزڤلت بالانصراف استبقاه ولسن وقال : إن عيون التاريخ تحدّق فينا ، نعم إن من المرجح أننا سندخل الحرب مضطرين ، ولكن فى سنة ١٩٨٠ سيكتب مؤرخٌ تاريخ هذه الحرب . وقد يكون ألمانيًّا أو روسيًّا ، فيجب أن يكون فى قدرة ذلك المؤرخ أن يقول صادقاً « إن أميركا لم تتأهب للحرب إلاّ بعد ما اضطرت إلى خوض غمارها » .

وبعد ما أعلنت أميركا الحرب فى شهر أبريل سنة ١٩١٧ ظهر أن ثلث سفن الأسطول الأميركى فقط ، على جانب واف من التأهب الحربى ، وأن عُشرها فقط ، كان عامراً بجميع ما يلزم لها من الضباط والبحارة ، وأن الأسطول الأميركى يحتاج إلى تسعة أشهر من التأهب على الأقل قبل أن يبلغ أقصى قوّته .

وعرفت هذه الحقائق ، فكان خصوم روزڤلت يقذفونها فى وجهه فيما بعد ، متّهمينه بأنه خاب فى أهمّ ما يجب عليه نحو قومه ، إذ قصّر ، عن قصد أو عن جهل ، فى إعداد الأسطول الأميركى ، ولكن ولاءه للرئيس ولسن وذكراه ، حال دون إذاعة الحقائق على وجهها الصحيح ، إلى قبل سنتين من الزمان .

وفرنكلن روزڤلت نفسه جالس الآن فى مقعد ولسن . وفى يده زمام قوّات أميركا المسلحة ومقدراتها السياسية . ولا ريب فى أن ذكرى تلك الأيام من نحو ربع قرن من الزمان مطبوعة على لوحة نفسه ، وهو يرى أن الخطر الذى تتعرض له الولايات المتحدة الأميركية فى سنة ١٩٤١ أو ما يليها ، أعظم جدًّا وأشدُّ تهديداً لقواعد الحياة الأميركية من الخطر الذى كانت معرّضة له فى سنة ١٩١٧ ، وهو لذلك يريد بلاده متأهبة للدفاع ، ويرى أن تأهبها للدفاع الكلى ، لا يتمُّ على أوفى وجه ، إلاّ إذا بذلت الولايات المتحدة أقصى العون لبريطانيا ، لأن الدفاع عن بريطانيا دفاع عن أميركا . إنه لا ينظر إلى ما يحتمل أن يقوله مؤرخٌ ألمانىٌّ أو غير ألمانى بعد خمسين سنة من الزمان ما دام مقتنعاً بأن الخطة التى اختارها فيها ضمان لمصالح قومه العليا ، وهذه المصالح تندمج فى طبقتها العليا فى مصالح الحضارة نفسها .

* * *

إن النزعة المثالية فى طبيعة الرئيس روزڤلت التى يعبر عنها فى أقوال تهزُّ أوتار النفوس ، وإدراكه الواقعى لحقائق هذه الحرب ومسائلها الأساسية ، وتأييد كتلة الشعب الأميركية وكثرة النواب والشيوخ له ، وقدرة أميركا التى لا تجارى على الإنتاج الصناعى الحربى ، هى مصادر القوّة التى يحسها كلُّ من يقرأ فى خطبته الأخيرة[1] قوله « فلنعبِّئْ روح أميركا وإيمان أميركا . إننا لن ننثنى . ولن نقف جامدين » .

ويطيب لى أن أتصوّر شيخاً فلاّحاً أميركيًّا ، عند مختتم هذا القرن ، وقد

(١) خطبة الرآسة الثالثة فى ٢٠ يناير ١٩٤١

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

جلس إلى حفيده يحدثه فيقول : عند ما كنت صبيًا يافعاً ، كان فى وشنطن رئيس يسمى روزڤلت ، ولد فى بيت ثروة وجاه ، ولـكنه حارب الأثرياء . وأُصيب فى شبابه بالشلل فى فخذيه ، ولـكنه تقدم الأمة إلى النضال ، السيف فى يده وكلمة الحرية النارية على شفتيه . كان روزڤلت هذا يا بنىّ ، صديقاً صدوقاً للشعب ، ومؤمناً عميق الإيمان بالإنسانية الحرّة .

الفصل الأول

أصله ونشأته

١ — سلالته وتحدره .

٢ — صفة آل روزڤلت .

٣ — البحر أستاذ .

٤ — نزعته السياسية .

٥ — زوجه وزواجه .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

— ١ —

إن فرنكلن دلانو روزڤلت ، هو رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، وقائد قوّاتها المسلحة ، وسيبقى فى هـذا المنصب إلى اليوم العشرين من شهر يناير ١٩٤٥ إن لم يشأ ربُّك غير ذلك . فمَن هو هذا الرجل الذى يقبض بيديه على أعنّة المقدرات الأميركية وجانب كبير من مقدرات الدول المتحدة ؟ ما قوام تفكيره ، وعناصر خلقه ، وقواعد سياسته الداخلية والخارجية ؟

خاض روزڤلت حتى الآن ثلاث معارك انتخاب لرآسة الولايات المتحدة ، وفاز فيها جميعاً . وهو أول أميركى تقلد الرآسة ثلاثاً . فى هذه المعارك اطّرد عنف المقاومة لانتخابه ، ولـكنه تغلّب على جميع منافسيه : هوڤر فى سنة ١٩٣٢ ، ولا ندون فى سنة ١٩٣٦ ، وولكى فى سنة ١٩٤٠ . وكان طبعيًّا أن يعمد خصومه أو أتباع خصومه فى خلالها إلى تمثيله وتمثيل فلسفته الاجتماعية والسياسية فى صورة منافية للتقاليد الأميركية . وكان طبعيًّا كذلك أن يقيسوا ، ومعارك الانتخاب بالغة أشدّها ، قيمة الأقوال فيه بمدى تأثيرها فى أذهان الناخبين ونفوسهم ، أكثر من قياسها بقربها من الحقيقة والإنصاف . ففى هذه الحالة ، لا يستغرب أن تتجه مساعى خصومه ، إلى إقامة الدليل على عمق الهوّة ، بين الرجل و بين التقاليد الأميركية ، وعلى أن هذه الهوّة لا تقتصر على آرائه ونظرته فى الحياة والحـكم ، بل تشمل نشأته وتربيته الأولى . فشرّحوا حياته من المهد إلى البيت الأبيض تشريحاً دقيقاً ، ونقّبوا فى مراحلها مرحلةً مرحلة ، ليستخرجوا منها ما يصحُّ تأويله فى نظرهم ، أو اتخاذه دليلاً

على أن حياته ليسَ من شأنها أن تنشىء أميركيًّا صادق الأميركية ، ممثلاً لصميم الحياة الأميركية وأسلوبها .

جميع هذه المساعى لا صلة لها بالواقع طبعاً . فمقياس الصلاح للخدمة العامة ، فى الولايات المتحدة ليس أصل الرجل بل سيرته ، ولا تربيته الأولى بل ما صدر عنه وتمّ على يديه ، بعد ما استقام تكوينه العقلى والاجتماعى . ومع ذلك فإن هـذه المساعى ، لم تذهب جميعاً أدراج الرياح . نعم إن كثرة الشعب الأميركى دلّت فى ثلاثة انتخابات متوالية ، على أن شبهةً ما لا تساورها فى « أميركية » روزڤلت الصادقة ، ولـكن هناك أقليّة ، ترى ، مع أن رأيها غامضٌ ولم ينهض عليه دليل ، أن أصل روزڤلت غير أميركى ، ونشأته الأولى لم تكن وفقاً للتقاليد الاميركية ، وإذنْ فلا يحتمل — فى نظرها — أن يكون رجلاً يستطيع أن يفهم المشكلات الأميركية فهماً صحيحاً ، وحتماً لا يستطيع أن يفهم موقف الشعب الأميركى منهـا ورأيه الصحيح فيها .

فإذا كان المقصود بالأميركى « النمَط » أى الأميركى الممثل للشعب ، هو الأميركى المتوسط ، فروزڤلت ليسَ أميركيًّا ممثّلاً لصميم الحياة الأميركية . ولـكن إذا قيس لنكن بهذا المقياس ، كان لنكن غير ممثّل لصميم الحياة الأميركية كذلك . فقد نشأ لنكن فى بيت هو دون مستوى البيت الاميركى المتوسط ، من حيث ما يبيحه هذا البيت لأبنائه وبناته ، من مزايا اقتصادية وثقافية . ومع ذلك ، أجمعت الأمة الأميركية من عهد بعيد ، على أن لنكن أميركىٌّ صميم ، بل هو فى نظرها المِثالُ المجسَّم لصميم الحياة الاميركية . ويقابل هذا أن وشنطن ، أبا الاستقلال ، انحدر من أسرة أعرق من الأسر الأميركية عامّة ، ونشأ فى بيت يفوق البيت الاميركى المتوسط ، ومع ذلك فليس ثمّـة أميركىٌّ ينكر عليه ، تغلغله فى روح الأُمة ، وتغلغل روحها فيه ، نتيجة لهذا الانحدار وتلك النشأة .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والواقع أن دراسة أعظم الرؤساء الأميركيين الستة[١]، تسفر عن حقيقة مستغربة. فليس بينهم سوى رئيس واحد، نشأ فى بيت أميركى متوسط وهو ودرو ولسن. ومع ذلك فالبيئة الثقافية التى تربَّى فيها ولسن — وهو ابن قسيس — كانت حتماً أعلى منزلة من البيئة الثقافية فى بيوت الأميركيين بوجه عام. أما الرئيسان لنكن وجاكسون، فكانا من العامة العاملة. وأما وشنطن وجفرسون وثيودور روزفلت فكانوا من الخاصة المميَّزة.

فالقول بأن رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة نشأ فى بيئة تنقاد له فيها أسباب الثروة والعيش الرضى، وتواتيه عناصر الثقافة الرفيعة، لا يقوم دليلاً على أنه لا يصلح لتمثيل حياة الأمة وفهم مشكلاتها. والقول بأنه نشأ فى أحضان الفاقة، وارتفع إلى أعلى المنازل، يحرِّك الإعجاب ويذكى الخيال، ولكنه لا يثبت أن كل رئيس نشأ هذه النشأة كان رئيساً عظيماً، قدوة فى خلقه وأثره. ففى الطبقتين الأولى والثانية رؤساء عظام، وآخرون لا يعتدُّ بهم.

وخلاصة القول أن تاريخ الرآسة الأميركية، يثبت أن الرئيس العظيم قد ينشأ نشأة وضيعة، وقد ينشأ نشأة كريمة مميزة. وإن نشأته فى الحالين لا تحول وحدها دون كونه أميركيًّا صميماً.

والواقع أن فرنكلن روزفلت، نشأ نشأة كريمة مميزة بالمال والجاه والتربية فى أرقى المعاهد، نشأة أرستقراطية. ولكنها لم تكن نشأة منافية فى أصولها ومبادئها، للخلق الأميركى. فقد ولد فى ٣٠ يناير سنة ١٨٨٢ فى هيدبارك بأعالى ولاية نيويورك، فى دار ريفية قديمة، ولكنها لم تكن قصراً، ولا كانت عريقة فى أسرته. فوالده ابتاعها، خمس عشرة سنة، قبل ولادة فرنكلن. وكان والده غنيًّا، ولكنه لم يكن

---

(١) وشنطون وجفرسون وجاكسون ولنكن وثيودور روزفلت وولسن. ومنهم من يجعل ثيودور روزفلت فى المرتبة السابعة ويضع مكانه كليفلند.

يُعَدُّ فى طبقة كبار الأثرياء من أمثال ڤندربلت ودوپون وركفلر وعشرين أسرة أخرى من أغنياء ذلك العهد . ولا كان مليونيراً عادياً . ولكنه كان غنياً حقاً ، لأنه كان يحسُّ أنه حائز كلَّ ما يريد ، مما يوفره المال له . وقد أتيحت له فرصٌ لتكديس ثروة ، كما أتيحت لأبناء جيله ، فعزف عنها . ولم يكن هذا عن جهل أو إحجام ، فإدارتُهُ مزرعتَهُ فى هيدبارك تشهد بأنه كان رجلاً ممرَّساً بالأعمال . ولعلَّه فضَّل أن يحتفظ بما ورثه من ثروة متوسطة ، وأن يضيف إليها إضافة معقولة . ومع أن والد فرنكلن ، كان له مكتب فى مدينة نيويورك ، ومقعد بين مديرى شركات مختلفة ، وأموال يستغلها فى طائفة من الأوراق المالية ، فإنه كان يؤثر بطبعه ، مزرعته فى هيدبارك و إدارة شؤونها على كل عملٍ آخر .

وقد ينعى بعضهم على والد فرنكلن أن احتقاره جمع المال ، ليس صفة أميركية . وهذا القول لا يصحُّ إلا إذا أنكرنا أن الفطنة صفة أميركية . والواقع أن الاكتفاء بما يملكه المرء مما يضمن العيش الرضىَّ ، والامتناع عن التشوُّف الى جمع الثروة ، إنما هو صفة من صفات الناس الذين تمتَّعوا زمناً طويلا بما يضمن أسباب المعيشة الكريمة . وهذه الصفة من صفات أُسرة روزڤلت ، فقد جمع أبناؤها الاوَل ما جمعوه من ثروة ، فى العهد الأوّل من تاريخ الأمة الأميركية ، واحتفظوا به جيلًا بعد جيل ، وهدتهم فطنتهم إلى أن التمتع بما توفره الثروة المعتدلة ، من أسباب الرخاء والرضا والرحلة والثقافة ، خيرٌ من العناء فى تكديس المال .

وأُسرة روزڤلت إذا قيست بمئات الأسر الأميركية ، عُدَّت أسرة عريقة ، إذ نزل جدها الأعلى فى أرض العالم الجديد قبل ثلاثة قرون . كانت مدينة نيويورك حينئذ مستعمرة هولندية . وكانت تعرف باسم أمستردام الجديدة (نيو أمستردام) . ولكنه لم يكن حين نزوحه ، سيِّداً من الأسياد . بل كان صاحب متجر متوسط . ولم يكن اسمه روزڤلت بل كلايس مارتنزن . ولا يُعلم الباعث الذى حمله على إضافة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

اسمه إلى اسم مكان — روزڤلت — . ولعلَّ أحد البواعث ، كان كثرة المعروفين باسم مارتنزن فى تلك المدينة . فرغب فى أن يميَّز عنهم دفعاً للالتباس . أو لعله أراد ، وقد أخذ النجاح الدنيوى ينقاد إليه ، أن يميَّز عن الجمهور بلقب فيه رنة العراقة والأصل الكريم . وعلى كل حال كان يعرف عند موته باسم مارتنزن ڤان روزڤلت . « وڤان » لفظ لا يقابل تماماً لفظى « فون » أو « ده » باللغتين الألمانية والفرنسية فهما مقتصران على الأشراف ، ولكنه يضفى على صاحبه منزلة خاصة . والغالب أن روزڤلت هو اسم البلدة التى كانت مسقط رأسه . فلما تحوَّلت « أمستردام الجديدة » إلى « يورك الجديدة » أو نيويورك ، كان إسحق حفيد كلايس قد عزم على النزوح من المدينة إلى مقاطعة « دَتْشِسْ » فى شمالىِّ الولاية . فكان إسحق فلاَّح الأسرة الأوَّل ، وكان اسمه حينئذٍ إسحق روزڤلت بعد ما حذف مارتنزن ، والزائدة « ڤان » .

إن إسحق روزڤلت لم يختلف عن أبيه وجدِّه فى اسمه وحسب . بل فى الدم الذى يجرى فى عروقه . فوالدة إسحق كانت ألمانية . وتزوَّج هو فتاة سويدية . أما ابنه وحفيده فتزوَّجا فتاتين إنكليزيتين . فحفيده الأكبر جيمز — والد فرنكلن — كان من أصل هولندى ، ولكن كانت تجرى فى عروقه دماء هولندية وألمانية وانكليزية وسويدية . وكانت زوجه الثانية — والدة فرنكلن — من أصل فلمنكى ، وكان سلفها الأبعد الذى نزل فى أميركا سنة ١٦٤١ يدعى فيليب ده لانوى ، وهو الاسم الذى حُرِّف بعدئذٍ « دلانو » ، وهو اسم أُسرة والدة الرئيس ، واسمه الوسط . على أن الدم الفرنسى الفلمنكى فى أُسرتها اختلط كذلك على تعاقب الأجيال بدماء شعوب أخرى . ففرنكلن دلانو روزڤلت ، نتيجة هذا الاختلاط البيولوجى العجيب ، وفى دمه قطرات من أكثر شعوب القارة الأوربية وأعرقها .

وهذا الاختلاط صفةٌ أميركية لا شبهة فى ذلك . ومما يؤثر عن الرئيس ولسن ،

أنه حرّك فى أحد الأيام ، سخطَ سكان ولاية كارولينا الشمالية ، حينما بيَّن لهم أنهم ليسوا أميركيين أقحاحاً عنـد ما يفخرون بأنهم منحدرون من صلب المستعمرين الانكليز الأول ، وأنهم تجنَّبوا الاختلاط واحتفظوا بصفاء السلالة . فلما سئل فى ذلك أجاب إن الأمة الأميركية مزيج من جميع السلالات الأوربية ، ولذلك يصحُّ القول بأن مَن يمثِّل الأمة الأميركية تمثيلاً صحيحاً ، ليس من ينتسب إلى الانكليز أباً عن جد ، وأُمًّا عن جدّة ، بل هو من تختلط فى عروقه دماء أُمم أوربية كثيرة . ففرنكلن دلانو روزڤلت ، ممثِّل طراز للأمة الأميركية ، من هذه الناحية على الأقل .

— ٢ —

اتصفت أُسرة روزڤلت ، خلال ثلاثة قرون ، بصفة الاعتدال . وهو قولٌ قد يبدو غريباً ، لمن يذكر ثيودور روزڤلت ، وانحرافه فى أقواله وسياسته عن الاعتدال ، حتى لقد وصفه أحد كتَّاب سيرته بلفظى « ثورة الحياة » . والاعتراض فى محلِّه ، إذا قصر على آراء ثيودور ، وحماسته المبالغ فيها ، للرياضة البدنية . ولـكنه مع ذلك كان معتدلا فى معيشته ، منزّهاً عن النهم والاستسلام إلى الهم والسكر والفسق . وولعه بالرياضة البدنية ولعاً يفوق حدود الاعتدال ، قصّر عمره على الغالب . ولـكن الرياضة البدنية على أنواعها كانت تتيح له راحة فـكرية ينعم بها من الـكدِّ الذهنى .

و إذا استثنينا ثيودور روزڤلت ، فسجلُّ الأسرة لا يضمُّ تهوُّراً أو تطرُّفاً ما فى ناحية من نواحى الحياة . فاسحق روزڤلت كان عضواً فى المؤتمر الدستورى بولاية نيويورك سنة ١٧٧٦ . ولـكننا لا نجد أحداً من هذه الأسرة خلال المائة السنة التالية فى منصب عام . وقد أصاب آل روزڤلت الرخاء المادى قرناً كاملاً قبل ظهور آل

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

« استور » وقرناً ونصف قرن قبل ظهور آل « ڤندر بلت » . ولا يعقل أن تكون فُرَص الإثراء التى أتيحت لاستور وڤندر بلت ، لم تتح لهم كذلك . فقد كانوا تجاراً وفلاَّحين ، وكانوا يعرفون البلاد معرفة دقيقة ، ولـكنهم لم يكونوا مندفعين فى تيّار الحياة ، فاكتفوا بدخل معيَّن معتدل . والاندفاع إلى التملك ، هو الغريزة التى تنشىء أصحاب الملايين .

فليس فى أُسرة روزڤلت رجل واحد بلغ القمة بين رجال الفنون ، وليس فيها رجل واحد كان مجنوناً أو شهيداً . ومع ذلك فليس فيها كذلك رجل أبى أن ينهض بما كان يعدُّه واجباً عليه ، وأن يتعدّى حدود هذا الواجب . وقد انقضت مائتان وخمسون سنة على الأسرة — إلى حين ظهور ثيودور روزڤلت — وسجلها خالٍ من إكليل غارٍ أو وصمة عار . كانت أسرة معتدلة ، فيها ذكاء لا يسمو إلى العبقرية ، وخيرٌ لا يتشوّف إلى القداسة ، وثقافة تزورُّ عن التبجُّح بالعلم ، ونشاط فى العمل لا يكفى لخلق جبابرة الصناعة والمال .

فماذا حدث فى هذه الأسرة ، حتى أنجبت فى جيلين متعاقبين رجلين ملأت أخبارهما الدنيا وشغلت الناس ؟ إن العقل يأبى التسليم بتحوُّل من هذا القبيل بغير سبب . فما هو السبب ؟ أو ما هو التفسير المحتمل ؟

إنَّ الذهنَ لينصرف طبعاً إلى الموازنة بين حياة ثيودور روزڤلت وفرنكلن دلانو روزڤلت لعلها تكشف عنصراً مشتركاً بينهما ، لا تشاطرهما إياه بقية القبيلة . ولا تطول الموازنة حتى تكشف أن هذا العنصر هو الضعف الصحى . فقد كان ثيودور مصاباً بالربو فى حداثته ، وفرنكلن أصيب بشلل الأطفال فى كهولته . وليس ثمة ريب فى أن حياة كل منهما وخلقه وسيرته ، تأثرت بما أصيب به ، تأثراً عميقاً . ولو لم يكن فى دمهما عنصر من الصلابة التى لا تلين لمصائب الدهر ، لقضت المصائب عليهما معاً . فكأن الحديد فى تركيبهما كان فى حاجة إلى الصهر والسقى ليتحول فولاذاً .

وليس بين رجال القبيلة الروزفلتية ، من تعرض تعرضهما للنار ، ولا من بلغ مبلغهما من المنزلة وذيوع الصيت .

وقد يعترض على هذا الرأى ، بأن فرنكلن روزفلت ، كان قد بلغ منزلة عالية بين رجال السياسة الأميركية ، ودرج الى الكهولة قبل أن أصيب بالشلل . وهذا صحيح . فقد رُشِّح لوكالة الرآسة قبل إصابته بالشلل ، ولكن ذلك كان بعد ما أصيب ابن عمه بالربو . وليس ثمة من ينكر أن سيرة ثيودور روزفلت وارتفاع منزلته ودوى اسمه ، كانت من أفعـــل العوامل فى تحويل عناية فرنكلن إلى « الخدمة العامة » — السياسة — واختيارها ميداناً لنشاطه .

ثم هناك ما يدل على أن إعجاب الفتى فرنكلن بثيودور ، كان يشوبه شىء من الكدر ، لأن ثيودور على خلاف الأسرة ، كان من حزب الجمهوريين . أفليس فى وسع فرنكلن أن يردَّ الميزان ؟ إذن فليخض معمعة السياسة فى جانب الحزب الدمقراطى .

إن لنمو الشخصية أسراراً لايحيط بها تفسير مبسط كهذا التفسير . وليس ثمة ريب فى أن هناك مائة عامل وعاملاً تفاعلت جميعاً فى خلق شخصية ثيودور روزفلت غير عامل المرض فى صباه ، وليس ثمة ريب كذلك فى أن هناك مائة عامل وعاملاً تفاعلت جميعاً فى توجيه فرنكلن روزفلت الى السياسة غير تأثر ابن عمه . ولكن صبا ثيودور المعتل ، كان فعالاً فى حياته بلاريب . وحياة ثيودور كانت فعالة فى توجيه فرنكلن بلا ريب كذلك .

كان جيمز روزفلت والد فرنكلن فى الخمسين من عمره عندما تزوج زوجه الثانية « ساره دلانو » والدة فرنكلن . أى أنه كان يدلف الى الشيخوخة ، بينما كان ابنه يدلف الى الشباب . ولكن الدلائل تدل على إدراك الوالد إدراكا دقيقاً مشكلات الفتى الناشىء ، فاتصفت الصلة بينهما بتفاهم متبادل ورضى شامل . فالوالد هو الذى

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

فتق لابنه أسرار الطبيعة فى الريف ، فتعلم أساليب إدارة المزارع ، واختلاف الفصول، وظواهر الجو ، وعجائب النمو . ووالده هو الذى علمه امتطاء الجياد ، وصيد العصافير، وركوب متن الماء فى زورق شراعى . وكان من أثر هذا فى نفسه أن شرع وهو فى الحادية عشرة من عمره يجمع العصافير بعد تصبيرها بيديه فبلغ عدد أنواعها ثلاثمائة أو تزيد ، وغدا قادراً على التميز بين جميع أصناف الدواجن على ضفاف نهر الهدصن. فكانت النتيجة المنطقية التى لا مفر منها ، أن الفتى أحب والده واحترمه ، وأجلَّ ذكراه ، فتنزهت حياته عن تلك العقد النفسية التى تلتوى فى داخل العقل الباطن كالأفعى ، وتقسم الشخصية بعضها على بعض . فنشأ فرنكلن متزن الخلق كما كان سوى القسمات .

وكانت والدته سيدة قوية الشخصية ولكنها متحلية بالاتزان والفطنة ، فلم يمل تأثيرها العظيم فى ابنها إلى التحكم . ومرد اسمه اليها . فقد كانت التقاليد تقضى أن يسمى الفتى « اسحق » (اسم الجد) لأن أخاه من أبيه كان يدعى جيمس (اسم الوالد) .

ولكن ساره دلانو روزڤلت كان لها عم تجل ذكراه ، ومات بغير عقب ، فأسبغت اسمه على وليدها . كان اسم العم ، فرنكلن هيوز دلانو ، وكان مشهوراً بوسامته وكياسته فلم تطق ابنة أخيه أن يزول اسمه ، فدعت ابنها فرنكلن دلانو — روزڤلت — لتخليد ذكراه .

كان من حظ الفتى فرنكلن أنه لم يكن ولداً مدلَّلاً . فقد كان والداه يرغبان فى ان يتيحا له كل ما يرغب فيه ، على أن يرعيا فى ذلك الفطنة وخير الفتى . فلم يسمحا له بتبذير المال ، ولكنهما كانا يبتاعان له ما يعدانه لازماً لتربيته و رياضته الجسمية والخلقية — جواد صغير ، ودراجة ، وقوس ونبال ، وكرات ومضارب . فلم يكن فى حاجة إلى المال . وكانا يسهران على تدريبه على استعمال ما يعطى ، بغير أن يؤذى

أحداً أو يزعج أحداً . وقد وضع له والداه ثلاث قواعد يجرى عليها فى حياته: أما الأولى فالرأفة بمن لم تُغدق عليهم الطبيعة ولا المجتمع . وأما الثانية فطلب الصحة والعافية فى الهواء الطلق . وأما الثالثة فاستيحاء تاريخ وطنه بدلا من استيحاء الحضارات القديمة

وكان لوالد فرنكلن رأى خاص فى التربية . فلم يكن مؤمناً بحشو دماغ الفتى بحقائق لا تجديه نفعاً فى مستقبل حياته . وكان يذهب إلى أن خير الدروس ما استخرج من التحدث مع الذين اتصفوا بالذكاء والتجريب ، ومن دراسة الحيوانات وأساليب الطبيعة ، لا ما يستخرج من الكتب . وكان والده واسع العلم بالطبيعة والحيوان والنبات ، فلقن الفتى بعض ما يعلم فى خلال التجوال فى الحقول . وفى أحد الأيام أعطى الوالد ابنه خمسة قروش فهرول الفتى الى الدكان القريب وأنفقها فيما يطيب له . فلم يعنفه والده . ولكنه أخذه بيده وسار معه الى الحقل . وأشار الى السنجاب وكيف يخزن فى صيفه ويدخر لشتائه .

أما والدته فلها فى تربيته أثران : الوضوح فى الإعراب عما يريد . والامتناع عن قبول رأى ما ، مهما يكن صاحب الرأى عظيماً عالى المنزلة ، إلا إذا فهم كيف بلغ ذلك العظيم هذا الرأى والأركان التى أقامه عليها . وكانت تقول له : « توخ البساطة فى الاعراب عما تريد » . « و إذا لم تفهم شيئاً ما فاطلب تفسيره » . « و لا تقل قولاً إلا إذا كنت قادراً على إقامة الدليل عليه » . « و ناقش نفسك ولا تحاول أن تقنع أحداً قبل أن تقتنع أنت » .

وكلما تعمق الباحث فى دراسة حداثة فرنكلن ، يتبين خلوها من كل تأثير ، من شأنه أن ينحرف بها عن الميزان السوى . فقد كانت البيئة التى نشأ فيها بيئة رخية رضية . ولكنه لم يؤذن له يوماً ما فى أن يظن أنه ملك قادر مستبد بها وأمره لا يرد . فقد كان والداه يلبيان كل طلب معقول يطلبه . فاذا تعدى طلبه حدود المعقول ، قامت سلطة الوالدين حائلا بينه و بين ما يطلب . ولكن فرض السلطة من ناحيتهما كان

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

فى لين وعطف . فما لبث حتى أدرك أنه عندما يقول والده « لا » فإنه يعنى مايقول. وتعلم فى الوقت نفسه كذلك ، أن وراء قول أبيه سبباً معقولاً . فالرفض لم يكن تحكماً . فالصلة بين الفتى والوالدين ، كانت صلة احترام ، لاصلة تنكر مكبوت لا يلبث حتى ينفجر فى ثورة تعصف بالجسم أو بالعقل أو بكليهما .

وقد يميل بعض الكتاب إلى القول ، بأن هذا اللون من التربية ، لا ينشىء خلقاً قوياً . ويشيرون إلى أن العلوم الأولى التى تلقاها الفتى إنما تلقاها على أيدى أساتذة خصوصيين . وأنه لم ينتظم فى فصول المدارس العامة إلا بعدما طبع خلقه بطابع الدلال .

إن فساد هذا القول ليتجلى بمجرد التسليم به . فلنسلم بأن البيئة التى نشأ فى أحضانها تنشىء رجالاً ضعاف العزم . فإذا كان فرنكلن ضعيف العزم ، فماذا نقول فى هوفر ولا ندون وولكى ؟ إن هؤلاء الرجال اصطدموا بفرنكلن روزفلت فى ثلاثة انتخابات عامة ، وفى كل انتخاب كان روزفلت يمسح الأرض بمنافسيه . فإذا كان روزفلت ضعيف العزم ، فإن الأمة الأميركية مخدوعة فى صلابة زعمائها السياسيين . و إذا كان روزفلت ليناً فإن المقاومة هباء . وهذا لا يعقل. حتى من وجهة نظر التربية وفلسفتها ليس فى وسع أحد أن يقول ، إن فتى يعطى مايصلح له فى سخاء وفطنة ، وتثقف ملكاته العقلية بالدراسة الخاصة والرحلة فى حكمة وحزم ، لابد أن ينشأ مدللاً خائر العزم . بل على الضد من ذلك . إن هذا الأسلوب من التربية سيفضى على الأرجح إلى الاتزان الفكرى والعاطفى ، وهى صفة تمكن الزعماء من الاحتفاظ برباطة الجأش وصدق النظر ، فى الشدائد ، وهذه هى الصفة المميزة التى خرج بها فرنكلن دلانو روزفلت من تربيته الأولى

والرئيس نفسه ، يضيف الى جميع هذه المزايا التى أتاحها له والداه ، نعمة الاجتماع بأصدقائهما . فجيمز روزفلت وزوجه ساره ، لم يكونا من أرباب رجال الفكر ونسائه ، ولا من « البوهيميين » فى عنايتهما بالفنون وأصحابها ، ولكنهما كانا يعدّان بين

أصدقائهما ، رجالاً ونساء من المثقفين المهتمين بشؤون الفكر والفن ، وتطيب لهما دعوتهم والاجتماع بهم والتحدث معهم . وكذلك ألف الفتى منذ حداثته الأولى معارك الرأى والفكر ، لأنه منذ ما استيقظ وعيه الاجتماعى ، كان يشاهد فى دار والديه رجالا ونساء ، عندهم ما يقولونه فى شتى شؤون الحياة ، ويؤيدونه ببراعة وسعة اطلاع نادرتين . ثم إن والديه ، كانا يرحلان كل سنة الى أوربا ، وفى خلال سنتين منها ألحق بمدرسة فى ألمانيا ، وفى سنتين أُخريين صحب أستاذه فى رحلة على الدراجة فى بلدان القارة . فأتاح له هذا كلُّه ، إلماماً واسعاً باللغتين الألمانية والفرنسية ، وتعـلّم طرائق الأوربيين ومناحى حياتهم وتفـكيرهم . فالسنوات التى تنطبع فيها نفس الفتى بما يرى ويسمع فلا يمحى بعد ذلك من صفحتها ، عرف فيها الفتى روزڤلت انجلترا وفرنسا وألمانيا ولغاتها وشعوبها ، فاتسع أفقه ، وعُززت فيه ملـكة التمييز بين طبائع الشعوب واختلافها . فهو يعلم ، وهو لا يزال فى سنّ المراهقة ، كيف يميز بين حرية الانكليزى وانقياد الألمانى إلى الواجب أو ما هو فى منزلة الواجب عنده ، انقياداً عسكريًا . وهو لن ينسى ، فيما يلى من مراحل حياته ، أنه قبض عليه مع معلّمه إذ كانا يطوفان فى ألمانيا على دراجتين ، لأن الفتى شوهد وهو يقطف كرزاً من شجر متدلّ على طريق ريفى ، أو لأنه داس أوزة بدراجته ، أو لأنهما أدخلا دراجتهما إلى فناء المحطة أو ما أشبه . وهو لن ينسى كذلك أنه ذهب ، إذ كان فى لندن ، إلى متحفة كنسنجتون ، فحيل بينه وبين الدخول لأن البرنس أوف ويلز فى الداخل يزور حجرها ومعروضاتها ، فأخرج الفتى بطاقة تدلُّ على أنه عضـو فى « جمعية طيور » بالولايات المتحدة — وكان ثيودور المولع بالطيور قد نفحه بها لتشجيعه — فإذا جميع الأبواب مفتحة أمامه .

على أن هذه النشأة ، كانت من ناحية واحدة ، مرهقة للفتى لأنه لم يختلط بأبناء جيله . ولكنه عند ما أدرك الرابعة عشرة من العمر ، قرّر والداهُ ، أن التربية الخاصة ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

قد بلغت حدود نفعها ، وأنه لا بدَّ من إلحاقه بمدرسة عامة . فاختارا له مدرسة جروتون ، وهى مدرسة أبناء الصفوة من الأسر الأميركية ، فى ذلك العهد ، على مثال إيتون وهارو فى انكلترا .

— ٣ —

ليس فى سجلِّ روزفلت الدراسى ، فى جروتون أولاً ، ثم فى جامعة هارفرد ، ما يشير إلى أنه كان طالباً ألمعيًّا . وهذه الحقيقة تُعلل غير تعليل واحد . فالطالب الذى يكون عادة فى الفريق المتوسط من أبناء فصله ، قد تكون قدرته العقلية أضعف من قدرة زملائه فى الطبقة العليا . أو قد يساويهم قدرة عقلية ، ولكنه لا يُعنى عناية كافية بالتحصيل . وجميع الدلائل المستخرجة من حياة روزفلت السياسية تدلُّ على أنهُ من النوادر فى قدرته على الفكر والعمل . والواقع أن سجلهُ فى المدرسة والجامعة ، لم يكن سجل طالب ألمعى ؛ لأن الطالب كان منصرفاً إلى أشياء كثيرة ، حالت دون عنايته العناية الوافية ، بما يؤهله للدرجات العليا فى التحصيل . فالدراسة الخاصة ، قبل إلحاقه بالمدرسة ، كانت حرمته عِشرة أبناء جيله . على أن هذا الحرمان لم يردَّه منطوياً على نفسه ، منعزلاً عن الدنيا يبنى بالخيال قصوراً فى الهواء . بل أيقظ فيه نزعة اجتماعية مستوية — اشتهر فيها فيما يلى من مراحل حياته — فنزع إلى اختيار الأصدقاء كلما أُتيحت له الفرصة . وها هى ذى المدرسة تتيح له فرصة يعوِّض فيها ما فات . ففصل الدراسة كان نصفَ المدرسة فى نظره . والنصف الآخر كان قوامه ألوان النشاط المدرسى التى لا تدخل فى نطاق المقرَّر من الدراسات . هناك تعلَّم فهم الطبائع البشرية ، ومعالجة أصحابها ، وهذه قدرة ، قلّما يجاريه فيها أحد فى تاريخ السياسة الأميركية .

ولعل التقاليد الغالبة على أسرة روزفلت كان لها بعض الأثر فى سجلِّه الدراسى . فإذا كان من العار فى نظرهم ، أن يرسب الطالب فى دراسته ، فمن قلَّة الذوق فى

نظرهم كذلك ، أن يشأو جميع زملائه فى درجاته . ذلك بأن التطرُّف لم يكن فضيلة فى نظرهم ، وخير الأمور الوسط .

ولو خُيِّر الفتى ، لما اختار جروتون ولا هارفرد ، ولفضَّل مدرسة أناپوليس البحرية ، لأنه كان يطمع فى أن يكون ضابطاً بحريًّا . فقد كان يحبُّ البحر ، ويميل إلى ركوب متنه ، وعزَّز من هذا الحب فى نفسه رحلاته المتعددة إلى أوربا ، ومصيف أسرته فى جزيرة كامپو بلو ، حيث تلتقى حدود كندا بحدود ولاية ماين الأميركية ، أى فى أقصى شمال الساحل الشرقى للولايات المتحدة .

ولعل اصطياف فرنكلن روزڤلت فى كامپو بلو كان أبلغ أثراً فى تربيته مما يظنُّ أول وهلة . حتى قبل إلحاقه بمدرسة جروتون ، كان والده ، قد أهدى إليه زورقاً شراعيًّا طوله إحدى وعشرون قدماً ، وهو زورق يمكِّن الفتى من قطع مسافات متوسطة به ، بغير أن تعصى عليه معالجة أشرعته . وعلى متنه كشف الفتى أسرار المياه الرجراجة فى هذه المنطقة فى جميع أحوال الجوِّ المتقلبة ، ليلاً ونهاراً . ومن طريف مايروى عنه ، أنه استطاع وهو وكيل البحرية ، قيادة مدمرة أميركية فى مضيق مضطرب المياه فى هذه المنطقة ، مع أن ضباطها كانوا مقتنعين بعجز المدمرة عن سلك هذا المضيق .

إن سلك البحر فى هذه المنطقة يترك أثراً فى خلق البحار قلَّما ينسى . هنا تعلَّم الفتى فرنكلن احترام قواعد الملاحة . فالمياه شديدة البرد ، وعلى الملاَّح الهاوى أن يسيِّر زورقه فى حذر وحيطة ، لأن الانقلاب فى هذه المياه ليس لعبة هينة ، فبردها كافٍ لتخدير الجسم وقد يفضى إلى علَّة . وعلى الملاَّح كذلك أن يسيِّر زورقه حيث لا تعرِّضه الصخور الناشزة كالأنياب لتمزيق قعر الزورق ، فالجنوح خطر كبير . ومياه هذه المنطقة ، قلَّما يسودها سكون يصدق فيه قول الشاعر العربى « نسج الريح على الماء زَرَد » . ولاهى تثور فجأة ومن دون حساب . نعم إن الضباب يغشاها أحياناً والتيارات

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

البحرية العميقة ، واختلاف المدّ والجزر ، تجعل الملاحة فيها محفوفة بالخطر . ولكن الملاّح الذى يتعلم حقائق الطبيعة فى هذه المياه ، ويتدرب على قواعد الملاحة واحترامها ، يجتنب الخطر ، وينعم برياضة بدنيـة وعقلية ما أفعلها فى تجديد الصحتين جميعاً .

فالفتى الذى يتعلم أن يسيِّر زورقه فى هذه المياه ، ينبثُّ فيه احترام عميق لعناصر الطبيعة وقدرتها . وقد كان فرنكلن فتى أُحسن تأديبه ، ولـكنه لو كان طائشاً أرعن ، لتعلم بعد قليل فى هذه المياه ، أن العالم خاضع لنواميس معيَّنة ، وأنه إذا كان يستطيع أن يحمل والديه على إجابة طلبٍ غير معقول ، بالصراخ والعويل والرفس والحرد ، فإن جميع هذه الأساليب لاتجديه نفعاً فى معالجة الريح والمدِّ والجزر والضباب وتيَّارات الماء . فالزورق يعلّمه أن يعمل أعمالاً معيَّنة ، فإذا أبى جاءه العقاب ولا رادَّ له . ولكن الزورق يعلمه كذلك ، أنه إذا كان الناموس الطبيعى لا يردُّ ، فإن العدل غير ممتنع على من يساير الناموس . فهنا قدرة أعظم منه تحتم عليه أن يعمل سلسلة من الأعمال فى نظام معيَّن ، ولا مفر من ذلك . فإذا فهم أسرار هذه القدرة ، ودرَّب نفسه على مجاراتها وجدها حامية إيّاه لا متنكرة لهُ . فالبحر ليس بذى نزوات ، إنما يبدو كذلك لمن يجهل نواميسه أو ينساها .

ولا ريب فى أن هذا اللون من تربية روزڤلت ، هيّأه لأسمى ما يطلب منه فى ميدان السياسة فى بلد دمقراطى . هنا تعلّم أنه لا يستطيع أن يغير جميع القواعد ، فلا يمكن أن يكون ثائراً فوضويًّا . وأن لمشيئته نصيباً فى توجيه زورق الدولة ، كزورقه الصغير ، ولكن مشيئته ليست المشيئة العليا . وتعلم علاوة على كل هذا ، أن القدرة التى تحطم الجاهل ، هى هى القدرة التى ترفع الحكيم إلى الذرى . وإذا كان قد تعلَّم فى زورقه ، احترام النفس والاعتداد بها ، فإنه تعلَّم كذلك ، أن هناك حدوداً لكل جهد بشرى وأن الطبيعة التى تجزى الحكيم والبارع جزاء عادلاً ، لا تقيم وزناً للنيَّات وحسب .

تعلَّم الفتى روزڤلت قواعد الملاحة فى هذه المياه ، وتشرَّب فلسفتها الأخلاقية عن غير وعى، فمال إلى عمل فى الحياة يتصل بالبحر ، فأفضى به هذا إلى أول نزاع وأخطر نزاع قام بينه و بين والده . على أن والده كان أحكم من أن يأبى استجابة رغبة الفتى و يكتفى بذلك . بل حاول إقناعه فأذعن الابن للحجة . ولكن الإذعان لم يكن تامًّا . لأنه عند ما نشبت الحرب الأسبانية الأميركية فى السنة التالية ثار فرنكلن على قرار والده ، ودبر مع فتى آخر ، فى جروتون ، خطة للفرار والانضمام إلى الأسطول الأميركى . ولكنهما أُصيبا بالتهاب فى الحلق ، فى اليوم السابق ليوم الفرار ، ففحصهما طبيب المدرسة وأمر بإرسالهما فى الحال إلى المستشفى ، حيث ظهر أن التهاب الحلق ، كان مقدمة للإصابة بالحصبة . وكانت الحرب قصيرة ، فلم يكادا يشفيان حتى كانت الحرب قد انتهت أو أوشكت أن تنتهى ، وبدلاً من أن يشقَّا لنفسهما طريق المجد الذى شقَّه جون بول جونز[1] ونلسن ، اضطرّا إلى الاكتفاء بأخذ العقاقير . إن روزڤلت يضحك الآن عند ما يذكر هذا الحادث . ولكن تأثيره فى نفسه حينئذٍ ، كان من شأنه إخماد الثورة المضطرمة بين جنبيه ، فأخلد إلى السكينة ، وأتمَّ دراسته فى جروتون ، وانتقل بعدها وفقاً للخطة المرسومة له إلى جامعة هارڤرد .

وليس هناك مايشير إلى الباعث الذى حمل الوالد على الحيلولة بين ابنه والأسطول . ولكن الغالب أن قراره كان مستمدًّا من رغبته فى أن يحافظ ابنه على منزلة الأسرة أكثر مما كان مستمدًّا من تنكره للأسطول . نعم كان لجيمز روزڤلت — الوالد — ولد آخر من زوجه الأولى . ولكن فرنكلن كان ابنه من زوجه الثانية ساره دلانو . وهى سيدة ذات ثروة خاصة بها . فكان فرنكلن أقرب من أخيه من أبيه ، إلى الاحتفاظ بمنزلة الأسرة و إخلاف ذرية . فمقامه فى أسرة جيمز روزڤلت كان يختلف عن مقام الابن الأصغر فى معظم الأسر .

(١) بطل بحرى أمريكى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

وعلى كل حال ، سرى حكم الوالد على ولده . و إننا إذ ننظر الآن إلى المنزلة التى أحرزها فرنكلن دلانو روزڤلت فى الأمة الأمريكية ، وفى العالم ، لنميل إلى القول بأن قرار الوالد هو الذى وجه الفتى توجيهاً أفضى به أخيراً إلى البيت الأبيض . ولولا ذلك ، لكان روزڤلت الآن أحد قواد الأسطول الأميركى على الأرجح ، لا قائده الأعلى بحكم منصبه ، علاوة على قيادة القوات الأميركية المسلحة الأخرى ، ورآسة الولايات المتحدة .

قد لا يكون من الحكمة أن نسند عناية روزڤلت بالبحر وشغفه بشؤونه ، إلى الزورق الذى أهداه إليه والده . ولكن لاريب فى أن هذا الزورق حرّك اهتمامه بالبحر ومسائله . ولا ريب كذلك فى أن الدربة البحرية ، التى ظفر بها وهو فتى ، أتاحت له معارف عملية عظيمة القدر ، مكّنته فى أثناء ولايته وكالة وزارة البحرية — خلال الحرب الماضية — وفى أثناء الرآسة ، من توجيه عنايته إلى الأسطول الأميركى توجيهاً خاصاً . حتى قبل خوضه ميدان السياسة ، كان لرياضته البحرية أثرٌ فى توجيه تفكيره . فاختار خلال الفترة القصيرة التى مارس فيها المحاماة ، التوفر على دراسة القانون البحرى ، فلما عرض عليه منصب فى الحكومة بعد فوز ولسن بالرآسة سنة ١٩١٢ أبى كل منصب عرض عليه ، إلى أن دعى إلى تقلد منصب وكالة البحرية .

على أن تربية روزڤلت البحرية ، لا يقتصر أثرها على ما فعله عند ما كان وكيلاً للبحرية فى رآستى ولسن ، ولا على عنايته بتعزيز الأسطول منذ تقلده الرآسة فى سنة ١٩٣٣ ؛ بل يشمل توسيع أفق نظره إلى سياسات الدول ، فلا ينحصر بين جدران الولايات المتحدة مهما تكن واسعة . ذلك بأن البحر هو المهيع العظيم لدول الأرض وشعوبها ، ومن يفهم المهيع يفهم المغزى المنطوى فى السفن التى تشق عباب اليم غادية ورائحة ، وكل رجل يشغل منصب رئيس الولايات المتحدة الأميركية ،

يبذل كل سعى ، و يتوسل بكل وسيلة جرت بها التقاليد السياسية ، للاطلاع على ما هو حادث فى الأمم الأخرى . ولكن معرفة البحار ومسالكها ، والرحلات المتكررة إلى البلدان الأجنبية ، تعينه على إدراك الأغراض التى تتوخاها دولة ما ، إذا أخذت بسياسة جديدة ، فيزن بميزانه الدقيق تأثير تلك السياسة فى التجارة الأميركية والدفاع الأميركى . و إكباب روزڤلت فى شبابه على دراسة التاريخ البحرى ، مكنه من أن يسبق كثيرين غيره من الأميركيين ، مع أنهم ليسوا دونه ذكاء وحصافة ، إلى فهم تأثير الحرب العالمية الثانية فى الولايات المتحدة ، بل فى الوسع أن يقال إنه أدرك قبل كثيرين غيره ، تأثير الحرب العالمية الأولى فى الولايات المتحدة قبلما خاضت غمارها . يؤيد ذلك رواية رواها روزڤلت نفسه لإميل لودفيج عن رغبته في إعداد الأسطول الأميركى للمحتملات الحربية المقبلة ، عند ما كان وكيلاً للرآسة ، ومعارضة ولسن فى ذلك ، لرغبته فى احتفاظ الولايات المتحدة بالحياد التام .

ولا ريب فى أن طائفة كبيرة من الأميركيين أدركت اصطفاف الدول الأوربية فى فريقين متقابلين ، والهوة العميقة بين مبادىء الفلسفة السياسية والاجتماعية التى يستندان إليها . ولكن الرئيس أدرك قبل غيره ، وهو العالم بالتاريخ البحرى ، ما يحدثه الاصطدام بين الفريقين من خطر على المواصلات البحرية الأميركية ، أى على حياة أميركا الاقتصادية ودفاعها . ولولا حبه البحر وشغفه بمسائله ، لما صبر على مطالعة مجلدات ضخمة كثيرة فى التاريخ البحرى ، وهى المطالعة التى أتاحت له هذا الفهم الدقيق لشؤون البحر ومسالكه . وحبه البحر يرجع إلى أيام الصبا ، عند ما كانت الملاحة فى الزورق الشراعى الذى أهداه إليه والده ، رياضته المفضلة على غيرها من ألوان الرياضة جميعاً .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

— ٤ —

عندما دخل فرنكلن روزڤلت جامعة هارڤرد سنة ١٩٠٠ كانت كلمة «بلشفيك» لا تزال مقتصرة على اللغة الروسية . ولو تأخر به الزمن وكان انتظامه فى تلك الجامعة فى سنة ١٩٢٠ بدلا من سنة ١٩٠٠ لقيل فيه إنه يمت إلى العناصر البلشفية بصلة فى الفكر والشعور . وسبب ذلك أن روزڤلت كان من طبقة الأغنياء المميزين ، فكانت أنديتهم مفتحة الأبواب له . وكان علاوة على ذلك شابًّا وسيم الطلعة حسن المعشر فازداد الإقبال عليه فى هذه الأندية . وقد انتظم فى ثمانية منها خلال دراسته . ولكنه كان شابًّا صريحاً لا يخفى آراءه ، وكان من الحزب الدمقراطى ، وصفوة الأغنياء من الحزب الجمهورى . وكان يؤيد بريان Bryan ممثل الحزب الدمقراطى ومرشحه للرآسة ، بينما كان ابن عمه ثيودور روزڤلت مرشحاً للوكالة عن الحزب الجمهورى . فإذا لم يكن فى كل هذا خروج على الجماعة التى ينتمى إليها ، وعلى تقاليدها فكيف يكون الخروج ؟ ومع ذلك فإنه لم يكتف بما تقدم . ذلك بأنه فى السنة الثانية من دخوله الجامعة ، بذل غير يسير من وقته ونشاطه فى خدمة الجماعات التى تؤيد البوير فى حرب جنوب أفريقية ، مع أنه كان من المفروض حينئذ أن هارڤرد كانت بوجه عام منحازة إلى البريطانيين فى تلك الحرب . وأخيراً نظم جماعة من الطلاب الذين لا تتفتح أمامهم أبواب الأندية الارستقراطية فى الجامعة ، وقادها فى انتخابات الفصل فمكن أعضاءها من الظفر فى تلك الانتخابات على زملائه الأغنياء . فعد من يومها خائناً لطبقته .

ومما لا ريب فيه ، أن الغالب بين شباب المعاهد الميل إلى التطرف فى المذاهب الاجتماعية . ويقابل هذا أن أشد المحافظين محافظة ، هو الطالب المحافظ . فشق على جماعة الشبان المحافظين فى فصل روزڤلت بهارڤرد ، أن يخونهم هذه الخيانة ،

أو ما كان خيانة فى نظرهم . ولو كان روزڤلت شاذ الأطوار ، لاكتفى إخوانه ساخرين متهكمين بشذوذه ، تفسيراً لأعماله ، ولأهملوا أمره . ولكنه لم يكن شاذًّا . فقد أتم سنى الدراسة الأربع ، فى ثلاث سنوات ، ولكنه لم ينفق ليله ونهاره فى التحصيل ، بغية الفوز بالجوائز . بل لم ينتخب عضواً فى جماعة « فاى بيتا كاپا » وهى جماعة المتفوقين ذكاء وعلماً من الطلاب . ولم ينتخب عضواً فيها إلا بعد ما أحرز منزلة عالية فيما بعد . وكان يمارس ألعاباً شتى ، ولكنه لم يكن من أبطال الرياضة الذين يشار إليهم بالبنان ، ويعلق بهم أمل معاهدهم فى المباريات الرياضية التى تنظم بين الجامعات . وقد عُيِّن محرراً لصحيفة « كرمزن » ولكن الحملة القوية الوحيدة التى حملها على مديرى الجامعة ، كان موضوعها التنديد بهم لأنهم لم يجهزوا حجر النوم بسلالم الإنقاذ من الحريق . أما فيما عدا ذلك فلم يتدخل فى إدارة الجامعة ، مقتنعاً بقدرة الرئيس اليوت على إدارتها . وفى هذه الدعوة إلى تجهيز حجر النوم بسلالم الإنقاذ ، نتبين رغبة « الخير العام » تستيقظ فى ذهنه المتفتح ، وفى مطالبته بإنشاء سلسلة من المحاضرات فى « التاريخ الجارى » والنظم السياسية ، يدعى إلى إلقائها الممارسون من رجال السياسة ، نستشف رغبته فى استيضاح حقائق العالم الذى يحف به .

ولعل أفضل مثل على أن روزڤلت كان يتعلم من تجارب الحياة أكثر مما يتعلم من الكتب ، حادث حدث له فى يوم ماطر . فقد كان معجلاً فى طريقه إلى المحطة فى بوسطن ليلحق بقطار إلى نيويورك . فتعثرت العربة فى الطريق فقفز منها حاملاً حقيبته وعدا إلى المحطة ، فاصطدم بصبى كان يعبر الطريق فوقع هذا الصبى على الأرض وهو يصيح ؛ فتجمع الناس من حوله صاخبين ، مع أن الصبى لم يصب بأذى . وظنَّ روزڤلت أن خير وسيلة للخلاص من الورطة واللحاق بالقطار إنما هى بتعويض الصبى ، فعرض عليه ريالاً ؛ فإذا السخط العام ينفجر من الجمهور — وكانوا من المهاجرين الإيطاليين — ولفظ « الرشوة » يرتفع فى الجو . وأخيراً

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

تمكن روزفلت من العدو إلى القطار وهو يلهث . قال روزفلت بعد ما روى هذه القصة : وسرُّ المشكلة أننى لم أحل المشكلة . جربت أن أداورها بعرض ريال على الصبى ، ولكن ذلك لا يجدى . ولن أجرب أن أداور مشكلة ما بعد الآن .

فالشاب روزفلت ، من أى النواحى أتيته ، كان حينئذ شابًا غير شاذ الأطوار بل سويًا معتدلاً . فلم يكن فى وسع زملائه المحافظين من طلاب فصله ، أن يفسروا بعض أعماله بالشذوذ ومع ذلك فهو يوالى الدمقراطيين والبوير والعامة من الطلاب !

هنا نستطيع أن نتبين كثيراً من عناصر خلقه وتكوينه العقلى التى تجلت بعد ما خاض ميدان السياسة ، وبلغ المنازل العليا فيه . ففى تأييده البوير نرى نزعة غامضة لثقته الواضحة فى السنوات الأخيرة ، بأن الذين يكافحون فى سبيل حريتهم يكافحون حقيقةً فى سبيل الحرية فى كل مكان . وزعامته للعامة من طلاب الفصل فى الانتخاب تشير إلى ما وصفه فى انتخاب الرآسة الأول من « صداقته للرجل المنسى » وكذلك إلى إدراكه أين مقر السلطة فى الاجتماع البشرى وكيفية تنظيمه . وحملته فى سبيل « سلالم الإنقاذ » قد تفسر بأنها إعراب عن نزعته الإنسانية ، ولكنها أقرب إلى كونها إعراباً عن نزعته العملية .

وليس بالمستغرب أن يكون للشبان فى الثامنة عشرة من العمر فلسفة سياسية . ولكن المستغرب أن يكون لواحد من أسرة روزفلت ، ومن الحزب الدمقراطى فلسفة سياسية ، وهو فى الثامنة عشرة . لأنه إذا استثنينا ثيودور روزفلت فالأسرة الروزفلتية لم تشارك مشاركة فعالة فى الحكم . والحزب الدمقراطى نفسه كان قد مضى عليه عشرات السنين وهو لم يل الحكم . ونجاح فرنكلن روزفلت فيما يلى من حياته فى رفع اسم روزفلت والحزب الدمقراطى ، إلى أعلى مقام سياسى ، يشير على الأقل إلى أنه كان فيلسوفاً سياسيًا قبل أن يكون له حق الانتخاب .

على أن أبرز مناقبه فى أثناء الدراسة فى هارفرد ، إنما كانت شجاعته الأدبية ،

لأن الخروج على الطبقة التى تنتمى إليها ، وخاصة إذا كانت مميزة بالمال والتقاليد العريقة والجاه العريض وقدم الاتصال بالجامعة أبا عن جدّ ، من أشق الأمور على فتى غير شاذ الأخلاق والأطوار ، ويقتضى حتماً شجاعة أدبية نادرة ، قلما تلمس فيمن لا يزال فى مستهل الثامنة عشرة من حياته .

وكذلك خرج فرنكلن روزفلت من جامعة هارفرد ، فى فصل سنة ١٩٠٤ وهو معروفٌ بأنه شابٌ ظريف محبوب متوسط المقدرة ، عليه مسحة من التطرُّف الاجتماعى ، وقلّما تعرف ما يحتمل أن تكون خطوته المقبلة ، أو قراره التالى .

تخرَّج فى جامعة هارفرد ، وانتظم فى كلية الحقوق بجامعة كولومبيا ، وغدا محامياً بغير أن يكون هناك دافع خاصٌّ فى حياته إلى هذا الجهد . ويذهب نقّاده إلى أن الرجل لم يكن مهيّأ بطبعه وذهنه ليكون قانونيًّا عظيماً . والواقع أنه ليس بين مريديه أو منصفيه من يزعم أنه كان عالماً من علماء القانون ، أو محامياً جنائيًّا عظيماً ، أو مستشاراً قانونيًّا بلغ أعلى المراتب . وما يعرف عنه الآن يحمل على الظنّ أنه لو صرف جهده إلى القانون لبلغ إحدى مراتبه العليا . ولكنه فى الواقع لم يصرف جهده إلى القانون ، ولا كان فى وسعه أن يفعل . ولو كان له شغف بالقانون — والشغف سرٌّ من أسرار الإتقان — لما انصرف عن القانون إلى السياسة . ومع ذلك لا يسع أحداً أن ينكر أنه فى أثناء اشتراكه فى مكتب محاماةٍ كبير فى نيويورك ، أصاب نجاحاً غير يسير ، وتوفَّر على دراسة القانون البحرى Admiralty وغدا المتخصص الأول فى هذا الفرع من فروع القانون ، بين رجال المكتب .

فلماذا اختار « القانون » ميداناً لنشاطه وعمله ؟ يلوح أن هناك أسباباً متعددة ، ليس بينها سبب واحد قاهر ، ولكنها مجتمعةً كانت أقوى من كل سبب آخر يحمله على الاتجاه اتجاهاً آخر .

وفى طليعتها على الغالبِ إشارة والده . وقد كانت إشارة والده أفعل فى نفسه

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الآن ، بعد وفاة الوالد منها قبل وفاته . وكأن حكمة الوالد التى تعوّد احترامها فى أثناء حياته ، قد امتزجت الآن بوجوب احترام ذكراه . ولعله فكّر فى أن دراسة القانون تؤهله لإدارة الأملاك التى ورثها عن والده ، وأملاك والدته كذلك . ثم إن دَخْلَ روزڤلت الخاص لم يكن وافراً — ورث عن والده دخلاً سنوياً قدره خمسة آلاف ريال — والمرجح أنه أراد عملاً يمكّنه من تعزيز دخله . ولعلّه أخيراً فكر فى أن دراسة القانون طريق من الطرق الكثيرة المفضية إلى الخدمة العامة — السياسة . وبعد كل هذا يغلب على الظن أنه اختار القانون لأنه لم يجد ، فى هذه المرحلة من حياته ، عملا آخر شغفه واستولى على لبه .

فإذا خرج القارىء من كل هذا بأن فرنكلن روزڤلت لم يكن شابًا ملحوظ المنزلة ، والنشأة ، فالجواب أن أحداً لم يلحظه حينئذ !

— ٥ —

فى هذه المرحلة من حياته ، وهو لم يكد يتخطى الحادية والعشرين ، اختار فرنكلن شريكته فى الحياة ، فكان اختياراً موفقاً غاية التوفيق ، ودليلا آخر على أنه ليس بالرجل العادى . إن مسز روزڤلت تصف نفسها فى ما كتبته من ترجمة حياتها فتقول إنها كانت حينئذ فتاة مجردة من مقومات الحسن والشخصية . ولكن هل يعقل أن يكون قولها صادقاً بحذافيره ؟ إذ كيف يتسنى لفتاة « مجردة من مقومات الحسن والشخصية » أن تأسر شابًا ، وسيم الطلعة ، عريض الجاه ، محبوباً من زملائه ، وعلى جانب من الغنى ؟ قد يصح أن إليانور روزڤلت — وهى نسيبة فرنكلن ، وكان اسمها إليانور روزڤلت قبل زواجها — كانت مجردة من مقومات الحسن العادية التى تستوقف أنظار الشبان العاديين . ولكن فرنكلن روزڤلت الذى أثبت فيما بعد ، صدق فراسته فى طبائع الناس وخلقهم ، لم يمر بها بغير أن يستوقفه فيها شىء غير عادى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY



إليانور روزڤلت

قرينة الرئيس فرنكلن دلانو روزڤلت

كان فرنكلن و إليانور أبناء عمومة من الدرجة السادسة . فنشأت بينهما صلة هى أقرب — على قول مسز روزڤلت فى ترجمتها « هذه قصتى » — إلى صلة النسب منها إلى صلة الحب والعاطفة . وقد كان بينهما غير وجه واحد من وجوه الشبه فى التربية والنشأة . فإليانور ، كفرنكلن ، نشأت وهى إلى الريف أقرب منها إلى المدينة . وقضت مثله جانباً من حداثتها فى أوربا . وأُحيط صباها بغير قليل من العناية بشؤون الفن والدين ، أو التربية الدينية الخلقية .

ومع ذلك فخُلقها كان مغايراً لخُلقه . وهذا التغاير هو مبعث الإبداع فى حياة فرنكلن عند ما اندمجت فى حياة إليانور . فأحوال صباها من حين يُتِّمت من أبيها إلى أن يُتِّمت من والدتها ، إلى أن كفلتها جدَّتها ، نشأت على استقلال الفكر والشعور ، وصرفتها عن المجتمع وملاهيه إلى الانطواء على نفسها ، معنية بمسائل الضمير والعدل . فعند ما كانت فى إحدى مدارس لندن ، وهى ناهدة ، انصرفت عن المجتمعات إلى مساكن الفقراء لتتبين بنفسها كيف يعيشون . فاليتيمة التى فازت من أقربائها بالشفقة عليها أكثر من فوزها منهم بفهمهم إياها ، صرفت فهمها أو عطفها إلى المحرومين فى الحياة . فهى على الضدِّ من فرنكلن لم تسلِّم بأن إرث أُسرة غنية عامل من عوامل البهجة والنضرة فى الحياة وحسبُ . بل كان فى طبيعتها شىء يدفعها إلى المحروم ، و يشغلها بهمومه ومشكلاته . وقد قالت هى بنفسها عن هذه الفترة من حياتها : « كنت أنظر إلى كل شىء من ناحية ما يجب علىَّ ، لا من ناحية ما يطيب لى . » أما فرنكلن فكان إلى هذه المرحلة من حياته ، غير معنىٍّ إلا بما « يطيب له » من الحياة .

ثم اجتمع الرجل والمرأة . ومن المحتم أن تتأثر هى بنشاط زوجها ، فيتحول التفكير والتأمل فيها إلى عون فعَّال ، ويتأثر هو باتجاهاتها الروحية والفكرية ، فيتسع أفق نظره الاجتماعى و يعمق ، فينظر إلى ما حوله نظر الفاحص النقّاد . ولولا تهيؤهما

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

كلاهما لهذا التحوّل ، لما أجدى هذا الاجتماع . ولـكن الطبيعة تعدُّ أبناءها لخدمتها بطريقتها الخاصة .

و إذا كانت سياسة روزفلت الاجتماعية والاقتصادية ، عند ما كان حاكماً لولاية نيويورك (١٩٢٨ — ١٩٣٢) ثم بعد تقلُّده زمام الرآسة فى وشنطن ، قد جعلت فريقاً من الأميركيين ، و بخاصة من أبناء الطبقة التى ينتمى إليها ، يمقتونه أشدَّ مقت ، فإن تنكُّرهم وتنكُّر غيرهم لزوجه ، ومقتهم إياها لم يكن دون مقتهم إياه . وقد هوجمت فى الصحافة والمجتمع بعنف لا يقابله عنف آخر فى التاريخ الأميركى ، إلاَّ أن يكون عنف الهجوم على مسز أندرو جاكسون فى سنة ١٨٢٨ . ومع ذلك فإن مسز روزفلت لا تشعرك إزاء هذا الاستنكار القوى بالإشفاق عليها لأن ما وُجِّه إليها من نقد ، يهدم فى تطرُّفه وتهوُّره بعضه بعضاً ، وثانياً لأنها فى الحديث والجدال تستطيع أن تبارى كائناً من كان ، ففى وسعها أن تردَّ عن نفسها إذا شاءت . إن العطف الذى يخالج أحداً فى مثل هذه الحالة ، إنما هو على المهاجِم لا على المهاجَم . فكأن فتى معتدًّا بنفسه احتسى حتى ثمل ثم وجَّه إلى ملاكم جبَّار ضربة قوية . فعطفك حينئذ لا يلزم الملاكم ، ولـكن يلزم الفتى المعتدى !

و بواعث الهجوم عليها مردُّها على الأكثر إلى أنها كانت ذات أثر فعّال فى توجيه سيرة زوجها ، بأساليب غير مألوفة وخارجة على التقاليد ، يعجز غيرها عن تطبيقها و إصابة النجاح فى تطبيقها . وما كاد الرئيس يدخل البيت الأبيض ، حتى قال مصطنعو الحـكمة الاجتماعية والسياسية من خصومه : إن مضىّ إليانور روزفلت فى الإعراب عن رأيها السياسى ، ومواصلة نشاطها السياسى والاجتماعى على طريقها الخاصة ، لا بدَّ أن يفضيا إلى الإضرار بمنزلة زوجها السياسية ومقامه الرسمى . فلما مضت فى طريقها الخاص ، بغير أن تتحقق النتائج التى قالوا بها ، شعروا بمرارة من يُطعن فى صواب رأيه وصدق نظره . وهذا مما لا يغتفر . ومن

المشهور فى العاصمة الأميركية ، أن هذا الشعور ، حملَ غير معتدلٍ واحد من الناس على التطرُّف فى الطعن عليها إلى حدود الحمق .

ولكن روزڤلت عند ما اختارها شريكة لحياته ، لم يكن يعلم ما يخبؤه المستقبل له فى خُلق هذه السيدة الممتازة . وقد عُقد قرانهما فى ١٧ مارس ١٩٠٥ . ومن مزايا حفلة القران ، أن عم العروس ، كان ثيودور روزڤلت رئيس الولايات المتحدة . فجاء نيويورك خاصة لحضورها ، ودخلت هى الحفلة متكئة على ذراعه ، لأنها كانت يتيمة الأب ، فكانت الحفلة بوجه عام ، من أهم الحوادث الاجتماعية فى نيويورك ، ولكن رئيس الولايات المتحدة ، كان بطلها لا العريسين .

وقد قال أحد أولاد ثيودور روزڤلت فى والده : « إذا ذهب إلى عرس أراد أن يكون العروس ، وإذا ذهب إلى مأتم أراد أن يكون الجثة » . وهذا القول فيه مبالغة وحذلقة ، لا ريب فى ذلك . ولكن ثيودور روزڤلت ، كان يستوقف الأنظار حيث يكون . وكان فى سنة ١٩٠٥ ، إذا حضر عرساً أو مأتماً ، حريًّا باسترعاء الاهتمام والعناية ، أكثر مما يسترعيهما العروس والعريس فى الأول أو الجثة فى الثانى .

ولذلك لا يبعد عن الظن أن فرنكلن و إليانور ، أدركا يوم زواجهما هذا ، أن لرئيس الولايات المتحدة مقاماً عظيماً حقًّا !

كان اليوت روزڤلت والد إليانور ، شقيق ثيودور روزڤلت . وثيودور روزڤلت كان من غير ناحية واحدة ، المثال الذى احتذاهُ فرنكلن روزڤلت فى شبابهِ ، واستمدَّ من حياتهِ وحيَهُ ، لأنهُ على رغم كونهما ينتميان إلى حزبين سياسيين مختلفين ، كانت أركان نظرتهما السياسية والاجتماعية واحدة .

كان ثيودور مكافحاً بطبعهِ . أما فرنكلن فكافحٌ ، دون ثيودور ميلاً إلى المخاصمة ، وأعند منهُ فى النضال . تغلب ثيودور على علتهِ البدنية فى صباه ،

وفرنكلن تغلَّب عليها بعض التغلب ، وهو يدرج إلى الكهولة . كانت حياة ثيودور السياسية نضالاً مستمرًّا ضدَّ الارتكاب والفساد فى السياسة ، وأصحاب المصالح المالية الكبيرة فى الدولة . أما فرنكلن فقد وقف حياته على النضال نفسه . وكان كلاهما غير هيَّاب أن يجرِّب ولو أخطأ ، أساليب جديدة ، وتجارب اجتماعيـة وسياسية خارجة على الطريق المطروق فى سبيل الغرض الذى يتوخاهُ . وقد قال ثيودور فى ذلك : لو لم أكن مستعدًّا أن أخطئَ لما تمكنت من إنجاز شىء يذكر . وقال فرنكلن : لم أخش فى حياتى أن أُخطئَ . وفى رسالتهِ إلى الكونغرس سنة ١٩٣٣ قال فرنكلن : « وإنى لأصارحكم بأن هذا طريق غير مطروق . . . فإذا لم يفض إلى النتائج المرجوَّة ، كنت أول معترفٍ بذلك ثم أبلغكم » . أما ثيودور فسبق لهُ فى معركة الانتخاب سنة ١٩١٢ إلى مثل هذا المعنى فقال : « لا يجوز أن تقف هذه الأمة جامدة فى مكانها ، لكون الطريق أمامنا غير مطروق » . وإذا سعى الباحث إلى تبيُّن الفارق بين نظرة ثيودور وفرنكلن قال إن ثيودور كان يستمدُّ وحيهُ من التاريخ ، وأما فرنكلن فأجرأ فى صنع التـاريخ بدلاً من استيحائهِ . وقد اجتمع كلاهما على الإيمان بأميركا ومصيرها بين الأمم . ولكن ثيودور كان الوطنىَّ المندفع الذى يريد أمتهُ أن تكون « الدولة القوية صاحبة الهراوة الكبيرة » . بينما فرنكلن يريدها أن تكون « الجار الطيِّب » الذى يتعاون مع سائر الأمم ، فى عالم يسودُهُ السلام .

بين سـنة ١٩٠٥ و ١٩١٠ أنجز فرنكلن جانباً كبيراً من دراسـته الحقوقية فى جامعة كولومبيا بغير أن يحرز درجة بكالوريوس فى القـانون وانضم شريكا فى مكتب المحامين كارتر لدياردِ وملبورن ، فى مدينـة نيويورك ، حيث عهد إليه فى نظر القضايا الخاصة بالمجلس البلدى ، ثم توفر على دراسة القانون البحرى Admiralty Law . وكان يعالج القضايا التى تقسم له بكفاءة أطلقت لسان شركائه

بالثناء عليه . ولكنه لم يظهر فى إحداها فى مظهر عبقرى قانونى .

كان بيته فى مدينة نيويورك ، ولكنه كان يحس بغبطة خاصة فى نهاية الأسبوع، عند ما يغادر المدينة إلى منزله الريفى فى هيدبارك المشرف على وادى نهر الهدصن فى أعالى ولاية نيويورك ، حيث بدأ يتصل بجيرانه ، فتطوع فى فرقة المطافىء المحلية ، وعين عضواً فى مجلس إدارة البنك الأهلى الأول ، فى پوكبسى ، وبدأ يدرك رويداً رويداً ، أن الناس وأطوارهم وأخلاقهم والاتصال بهم ، أجمع لعنايته من الوثائق القانونية وإعداد المرافعات . وكأن القدر كان يسيره ، رويداً رويداً ، وعلى غير وعى منه ، على الأكثر ، من حياة إلى أخرى . ففى الحياة الأولى كان يعمل ما عليه بدون شغف به ، أو اندفاع فيه . فكان الشاب روزڤلت ، المحبوب الكيس ، من الطبقة الثانية بين الشباب المرتجى . وأما الثانية فكأنها مست فى قلبه وتراً حساساً لم يمس من قبل ، أو نفضت رماداً عن جمر خامد ، فإذا نحن أمام روزڤلت آخر .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الثاني

من آلبنى الى وشنطن

١ — سياسى مطبوع

٢ — النضال السياسى الأول

٣ — مع ولسن الى وشنطن

٤ — الحرب والأسطول

٥ — المدار : عصبة الأمم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

من حق كل أميركى مولود فى الولايات المتحدة الأميركية ، أن ينتخب للرآسة ، فالذين يصبون إليها لايحصون ، وعدد الذين بلغوها حتى الآن خلال مائة وستين عاما أو تزيد ، لا يربى على اثنين وثلاثين . ودراسة تراجم الذين بلغوا منصب الرآسة ، تدل على أن التمرس بتبعات الحكم فى إحدى الولايات الثمانى والأربعين ، من الصفات التى تؤهل الطامحين إلى الترشيح عن أحد الحزبين الكبيرين ، فالانتخاب .

والحكم فى الولايات المتحدة الأميركية ، نوعان : نوع مقره فى وشنطن العاصمة ، ونوع مقره فى عواصم الولايات الثمانى والأربعين ، ذلك بأن الولايات المتحدة الأميركية دولة اتحادية (فدرالية) . فلحكومة الاتحاد ، بحسب نصوص الدستور ، شئون تهيمن عليها ، كالدفاع والسياسة الخارجية (ونطاق هذه الشئون آخذ فى الاتساع) ، ولحكومات الولايات شئون تهيمن عليها ، ولا تجيز لحكومة الاتحاد التعرض لها إلا إذا عدل الدستور تعديلاً تنقل بمقتضاه طائفة منها ، من نطاق هيمنة الولايات إلى نطاق هيمنة الاتحاد ، أو إذا أقر الكونغرس الاتحادى فى وشنطن قانوناً يحدث هذا النقل بمقتضاه ، وفسرت المحكمة العليا هذا القانون تفسيراً يقر أنه غير مخالف لنصوص الدستور أو لروحه . فإذا حكمت المحكمة العليا بأن القانون مخالف للدستور سقط فعله .

وفرنكلن دلانو روزفلت ، تمرس بالأعمال والتبعات الإدارية والسياسية ، فى

ولاية نيويورك، عضواً فى مجلس شيوخها أولاً، ثم حاكماً لها قبيل انتخابه للرآسة، وتمرس بها كذلك فى الحكومة الاتحادية وكيلاً للبحرية، فى أثناء رآستى ولسن قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها .

وكل ولاية من الولايات لها حاكم يختار بالانتخاب العام، فهو رئيس حكومتها، فى نطاق الحقوق التى يبيحها الدستور لهذه الحكومات، ولها مجلسان نيابيان، أحدهما مجلس شيوخ، والآخر مجلس نواب .

وفى مجلس شيوخ ولاية نيويورك بدأ فرنكلن روزڤلت حياته السياسية، إذ كان فى الثامنة والعشرين من عمره .

كان فى ذلك سنة ١٩١٠، وكان مقعد الشيخ الممثل للدائرة السادسة والعشرين خالياً، والانتخاب فيها وشيكاً، وكانت هذه الدائرة معقلاً من معاقل الحزب الجمهورى، لم تنتخب مرشحاً دمقراطياً لتمثيلها بين سنة ١٨٥٦ و١٩١٠، فرأى محافظ بلدة پوكبسى، وهو من أقطاب الدمقراطيين فى هذه الدائرة، أن يعرض على سائر الأقطاب الدمقراطيين خاطراً ألمعياً خطر له، وهو أن يجعل الشاب فرنكلن روزڤلت ضحية على مذبح الحزب الديمقراطى، بترشيحه عن الحزب لمجلس الشيوخ فى هذه الدائرة .

إن هذا المحافظ لم يعترف طبعاً بأن هذا الباعث الخسيس هو الذى حمله على السعى لترشيح روزڤلت، بل هو يقول إن عينه النقادة، وبصيرته النافذة، تبينت العبقرية السياسية المنطوية وراء مظهر روزڤلت الوجيه، وأنه عند ماعرض الترشيح عليه، كان يعلم أنه إنما يمهد الطريق لسيرة سياسية من أعجب السير السياسية فى الولايات المتحدة الأميركية .

ليس فى السياسية شىء مستحيل، ولعل تفسير المحافظ «سايج» صحيح، ولكنه على قول الكتاب السياسيين الأميركيين ليس مرجحاً، ولو كان الفوز

فى هذه الدائرة ، لمرشح دمقراطى ، محتملاً لكثر الزحام عليه . والواقع أن أحد أقطاب الحزب فى الولاية — وهو رجل رشح مرة لمنصب الحاكم — أبى قبول الترشيح عن هذه الدائرة لمجلس الشيوخ ، لأنه كان ضامناً — تقريباً — انتخابه نائباً فى جزء منها ، وغير ضامن انتخابه عضواً فى مجلس الشيوخ فيها . وكان معروفاً فى دوائر الدمقراطيين أن نجاح دمقراطى فى هذه الدائرة غير محتمل ، ولكن الترشيح ضرورى من وجهة نظر الحزب ، ويفضل أن يكون المرشح رجلاً وجيهاً ، لكى يسبغ على سائر المرشحين الدمقراطيين فى الدوائر الأخرى ظلاً من منزلته ووجاهته . وخلاصة القول إن الحزب كان يرى التضحية بوجيه فى هذه الدائرة ، لكى يستمد الحزب من اسمه تأييداً للمرشحين الآخرين . ومن هنا ندرك أن زعم المحافظ سايج عن رغبته فى ترشيح روزڤلت للشيوخ عن هذه الدائرة ، ممكن ولكنه ليس مرجحاً .

وكان المحافظ «سايج» يرى أن الشاب فرنكلن روزڤلت تتوافر فيه جميع الشروط اللازمة فى نظر الحزب للمرشح عن هذه الدائرة . فهو فى مقتبل الشباب ، جمّ النشاط ، وسيم الطلعة ، حسن البزّة ، متحدر من أسرة وجيهة ، ما فتئت مقيمة على ولائها للحزب الدمقراطى منذ أجيال . وإنصافاً لسايج وزملائه من أقطاب الحزب ، لا بدّ من الاعتراف بأنهم توسموا فيه المقدرة السياسية ، ولكن مما يداخله الريب أنهم أدركوا حينئذ أن بين أيديهم رجلاً سيكون من أعجب وأقدر رجال السياسة فى جيله . ومن المحتمل أنهم اختاروه لأنهم ظنّوه عجينة ليّنة مطواعاً ، لا لأنهم تبيّنوا فيه عبقرية سياسية . وليس فى ذلك لوم عليهم . فغيرهم أخطأ فى تقدير روزڤلت ، حتى بعد ما ظهرت بعض آيات عبقريته السياسية . ولسنا نعلم على وجه دقيق ما الباعث الحقيقى الذى حمل فرنكلن روزڤلت على ركوب هذا المركب الخشن . إنه أى روزڤلت ، يشير إلى الباعث الأمريكى — وهو النهوض بالواجب وإسداء خدمة

عامة . ولـكن نشأة روزڤلت قبل هذا العهد ، وخلقه المتجلى بعده ، يحملان على الظن أن وراء لفظى « الواجب » و « الخدمة » كان يستتر عاملان قويان ، وباعثان أصيلان فى طبعه . أما الأول فإنهُ وجد فى السياسة ، كما كان يجد فى الألعاب والرياضات الـكثيرة التى مارسها مجالاً لملكات المنافسة والمناضلة ومقارعة الأقران . ثم وجد فيها فرصة متاحة لمقابلة الناس والتعرف إليهم والتحدث معهم ، وهى صفة غالبة على الخلق الأميركى . وأما العامل الثانى ، فكان التأثُّر بسيرة ثيودور روزڤلت . فقد بدأ ثيودور حياته السياسية عضواً فى الهيئة النيابية فى عاصمة نيويورك ، ثم تقلب فى المناصب السياسية ، بين وكيل البحرية ، وحاكم ولاية نيويورك ، ووكيل الرآسة الأميركية ، ثم خلفاً للرئيس المغتال ، فرئيساً منتخباً . وكان ثيودور فى خلال حياته السياسية كلها قد ضرب على وتر حساس فى نفس فرنكلن ، وهو مناهضة أصحاب الامتياز فى الحياة الأميركية الذين يرجع امتيازهم إلى تكدُّس الثروة وقوة الشركات الـكبيرة التى أنشأوها . وإذا كان روزڤلت الـكبير لم يصِبْ نجاحاً كبيراً فى الضرب على أيدى « أصحاب الامتياز » فلا يستبعد أن يقوم هذا الإخفاق باعثاً قويا فى نفس روزڤلت الصغير ، يبعثه على مجاراة سلفه وشأوه .

وما قبل روزڤلت هذا الترشيح ، وعرف قبوله ، حتى اعترض عليه زميله كارتر فى مكتب المحاماة بنيويورك ، وحاول أن يثنيه عنه لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يقدم شابٌّ كروزڤلت على إهمال عمل مضمون الدخل ، يبشر بإقبال دنيوى غير يسير ، ليخوض معمعة السياسة . ولـكن روزڤلت لم ينثنِ . وكأنّ الشغف الذى كان يعوزه فى الدراسة أو فى المحاماة ، تجلى فى الحياة السياسية ، فإذا روزڤلت المرشح للشيوخ عن هذه الدائرة ، رجل جديد لم يعهد من قبل . ففى هذا الميدان الجديد عزم روزڤلت عزماً قاطعاً أن يكون فى الطليعة ، أو لا يكون شيئاً مذكوراً .

وكل ما كان زعماء الحزب يتوقعونه منه ، أن يخوض معركة الانتخاب ، وفقاً

للتقاليد المحترمة المرعية ، وأن يتقبل الخذلان فيها ، فى كياسة وظرف . ولـكنه بدلاً من ذلك أقبل على المعركة كالعاصفة ، وهاجم معاقل الخصوم فى الدائرة ، معقلاً معقلاً ، لم تفتر له همة ليلاً أو نهاراً ، فكأنه كان مسوقاً بقدرة خارجة عنه ، إذ ليس فيما سبق من حياته دليل واحد على أن فرنكلن روزڤلت بذل من الجهد فى عمل ما ، ما بذله فى معركة الانتخاب ، وما كان شىء ما يرضيه دون الظفر . وكان مدار دعوته توفير الخير لعامة الناس ضد أصحاب الامتياز والمتحكمين السياسيين والماليين ، وأن قوة الدولة والولاية ، إنما ترتدُّ إلى الجماعات المحلية وقوَّتها . فابن الريف لايخطىء فى تحديد منزلة الريف وتعريف شأنه وفضائل أهله فى الدولة الحديثة ، حتى وهو فى الثامنة والعشرين . وكان مما شحذ عزمه فى هذه الحملة أن منافسه فيها ، كان خصماً شخصيًّا لبطل حداثته « ثيودور » .

وكانت أساليبه خاصةً به ، لم يوافقه عليها غير واحد من مخضرمى السياسة . فالتقاليد المتبعة كانت تقضى بأن يكتفى المرشح لمجلس الشيوخ فى ولاية نيويورك بإلقاء بضع خطب مهيّأة فى المدن الرئيسية فى دائرة الانتخاب . وإذا شاء أن يغزو المناطق الريفية فيها فعليه أن يذهب إليها مصطنعاً التواضع ، ليشعر الناس بأنه واحد منهم . فإذا ذهب إليها فى عربة يجرُّها جوادان عُدَّ ذلك تظاهراً فى غير محلِّه . فعليه أن يكتفى بمركبة نقل تجرُّها فرس رمادية عجوز .

ولـكن روزڤلت بدا فى هذه المعركة ، فى مظهر ، تجلّى فيما تلا من أدوار حياته السياسية ، أى خروجه على التقاليد المرعية . فطوَّف فى الدائرة فى سيّارة . وقد يشقُّ علينا اليوم ، وقد أصبحت السيَّارة مألوفة ولا غنى عنها على الغالب ، أن نتصور الجرأة التى ينطوى عليها إقدامه هذا على المناخبة بسيَّارة . ففى سنة ١٩١٠ كانت السيَّارات غير قليلة فى المدن الأميركية . ولـكنها كانت نادرة فى مناطق الريف . حتى فى ريف ولاية نيويورك الذى لا يبعد عن تلك الحاضرة العظيمة أكثر من مائة ميل . وما

كان روزڤلت ، حينئذٍ ، يملك سيَّارة ، ولـكنه اتفق مع رجل على تنقيله بسيارته لقاء أجر معين

وما كاد خبر السيَّارة ينتشر حتى بدأ رجال السياسية ينذرونه بسوء العاقبة . ففريقٌ منهم توقع انفجارها ، وفريق ذهب إلى أن مشهدها سيجرح شعور الفلاحين والقرويين ، حتى اذا عُدَّت الأصوات يوم الانتخاب ، ثبت أن روزڤلت عجز عن الفوز بصوت واحدٍ من أصوات الناخبين فى المناطق الريفية . ولـكن كلا الفريقين أخطأ . فالسيَّارة مضت فى طريقها على عتقها ، ووعورة الطرق فى تلك الأيام . ولعلّ الفضل فى ذلك يعود إلى صاحبها و براعته فى سَوْقها وتعهُّدها . فإذا صحّ ذلك فإليه يعود جانب كبير من الفضل فى أن فرنكلن روزڤلت كان فى البيت الأبيض فى أثناء فترة من أقتم ما واجهته الولايات المتحدة — والعالم — فى التاريخ الحديث .

وكانت السيَّارة تقف أمام كل مدرسة قروية ، أو عند كل مفترق طريق ، حيث يستطيع المرشح أن يسترعى أسماع خمسة أو ستة من الناس . وكان روزڤلت يحدّثهم أو يخطب فيهم . وما كان يتنكب الحديث مع فلَّاح فرد ، فى حقله النائى ، بينما صاحبهُ يرمم السيَّارة أو يصلح عطلاً فيها . وكان هذا جديداً فى هذه الدائرة ، إذ لم يُعرف فيها قبلاً أن مرشحاً ما عُنى بالناخبين فى الأرياف عناية روزڤلت بهم . ولم يسبق أن ظهر للناخبين مرشح ما فى مثل المظهر الذى طلع فيه روزڤلت عليهم . إن شعورهم لم يجرح كما زعم بعض المشتغلين بالسياسة . ولعلهم على الضدِّ من ذلك أحسُّوا بشىء من المباهاة ، أن شابًّا موسراً من أنسباء الرئيس ثيودور العظيم ، يعنى بهم هـذه العناية ويخصهم بهذا الاهتمام . وعلى كل حال أقبل فريق كبير منهم على الاقتراع له ، فلما أُحصيت الأصوات ظهر أن روزڤلت فاز بالأكثرية وكانت ١١٤٠ صوتاً . فاتفق الخبراء السياسيون عند ما كذّبت الحوادث أقوالهم ، وأخلفت الحقائق ظنونهم ، أن عجيبةً حدثت ، وأن سرَّ هذه العجيبة هو عظم تأييد الناخبين الريفيين للمرشح روزڤلت .

AMERICAN UNIVERSITY IN BEIRUT

ومع ما تخلل حملة الانتخاب من ألاعيب السياسة الممثلة فى الأعلام المرفوعة ، والسرادقات المنصوبة ، والجماعات المتظاهرة بالمشاعل ، لم يفُتْه ما ينطوى فيها من مغزى اجتماعى أخلاقى عظيم . أو على الأقل لم يفُتْه هـذا المغزى عند ما كتب عن حملته الانتخابية الأولى بعد انقضاء عشرين سنة عليها ، فقال : « عند ما بسطت وجوه الجور (الاجتماعى) أحرزت أكثرية . . . فأنا الآن فى حلبة السياسة ، أنا الآن سياسى . والأزمة الخطيرة التى يجتازها رجل مشتغل بالسياسة ، إنما هى لحظة انتصاره الأول . فعمله إلى تلك اللحظة قائم على النظريات . أما الآن فعليه أن يعمل . . . وقد وجدتُ نفسى منصرفاً إلى الاهتمام بتفصيلات الحكومة والحكم ، ومع أننى كنت قد اضطلعت بدراسة مشكلاتهما ، دراسة نظرية ، وجدتها أجمع لعنايتى الآن ، لأنها مجسمة تجسيماً عملياً ، ولأنها مطبقة على حياة الناس » .

فى هذه العبارة أربعة ألفاظ — الجور ، والعملى ، والناس ، والعمل — وهى ألفاظ تسود حياة روزفلت السياسية جميعاً ، كيف قلبت النظر فيها من مرحلتها الأولى إلى الآن . فهو رجل يريد أن يزيل جوراً رآه بنفسه ، فهو لذلك يريد أن يعمل ، وأن يعمل عملاً إنسانياً .

— ٢ —

فى سنة ١٩١٠ إذ كان فرنكلن روزفلت فى الثامنة والعشرين من عمره ، وبعدما فاز فى انتخاب لم يقدَّر له إلا الخذلان فيه ، بدأت تتجلى الناحية العامة فى خلقه . ذلك بأن لكل رجل ممتاز ناحيتين من الخلق ، الناحية الخاصة والناحية العامة . وقد تندمج الواحدة فى الأخرى ، ولكن هذا الاندماج قلّما يكون تامًّا . وقد تكون الناحية الخاصة خالية مما يستوقف نظر المترجم فيهملها ، أو على الضدِّ من ذلك ، فقد تكون حافلة بالخطوط الدقيقة التى تتجسم بعدئذ فى الناحية العامة مزايا بارزة . وفرنكلن روزفلت

يقع بين بين . فمن المرغوب فيه ، أن يعرف شيء عن حياته الخاصة لفهم حياته العامة . ومن المرجح أن هذه المعرفة لا غنى عنها . ولكن من يتتبع سيرة روزڤلت تتبعاً دقيقاً لا يساوره شكٌّ ما ، فى تلك المرحلة من حياته ، عند ما بدأت ناحيتها العامة تطغى على الناحية الخاصة ، وتفرغ فى القالب الأخاذ الذى فُرِض على جيل روزڤلت من الأميركيين أولاً ، ثم على عناية العالم قاطبة .

ففى صيف سنة ١٩١٠ بدأ روزڤلت — لأول مرة فى حياته — يكب على عمل ما يستأثر بعنايته حقًّا . كان قبل ذلك ، فى كل مرحلة من مراحل حياته السابقة ، سواء أفى المدرسة كان أم فى الجامعة أم فى مكتب المحاماة ، ينجز ما يطلب منه لا أكثر ولا أقل . ولكنه فى اللحظة التى بدأ فيها حملته الانتخابية، بدأ يعمل كأنه عبد مسوق ، غير عابىء بالحر أو البرد ، وغير مبال بالمطر أو الغبار ، وغير مُلْقٍ عناية ما إلى الجهد والإعياء . نسى كل شيء وأهمل كل شيء ، إلا عزمه القاطع على إنجاز العمل على أتم ما يستطيع .

كان خُلُق روزڤلت من ناحيته الخاصة قد تكون ، فى بيته وفى المعاهد التى تربى فيها . هنا الصديق والزوج والوالد . ولكن الملايين من الناس الذين وضعوا مقدَّراتهم فى يديه ، يهمُّهم من خلقه تلك الناحية التى بدأت تبرز للعيان فى صيف سنة ١٩١٠. ومن العبث أن يزعم أحد أن روزڤلت كان قد غدا رجلاً عظيماً فى تلك السنة . ولكنه كان حتماً رجلاً قد اكتملت رجولته . فالشاب الذى اقترح اسمه لتمثيل تلك الدائرة فى مجلس الشيوخ كان لايزال على ما كان عليه فى المراحل السابقة من حياته، لأنه لم يواجه قبل ذلك فى حياته ، الضرورة التى تقتضى منه بذل غاية الجهد لتحقيق ما يصبو إليه . ولكن عضو مجلس الشيوخ الذى اتخذ مقعده فى آلبنى كان قد واجه هذه الضرورة ونهض إلى مستواها . فالفوز بالنيابة فى مجلس الشيوخ عن هذه الدائرة لم يكن عملاً سهلا ، بل كان شاقًّا المشقة كلها ، ولو لم يبذل روزڤلت فى

المعركة ، خير ما فطر عليه ، وأقصى ما عنده من جهد ، لما فاز . ولكنه فاز ، وهذا مكنه من أن يحملق فى كل سياسى آخر تنبأ له بالخيبة أو أحجم قبله عن خوض المعركة فى هذه الدائرة .

كانت السنة التى انتخب فيها روزڤلت عضواً فى مجلس شيوخ ولاية نيويورك سنة مواتية لشاب من الحزب الدمقراطى . ففى تلك السنة وقع خلاف فى الحزب الجمهورى بين الرئيس السابق ثيودور روزڤلت وأتباعه ، وبين الرئيس اللاحق هورد تافت وأشياعه . كان ثيودور روزڤلت قد أملى ، عند ما أشرف على نهاية رآسته فى سنة ١٩٠٨ ، اختيار تافت مرشحاً عن الحزب الجمهورى للرآسة ، فانتخب فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وخلف ثيودور فى مارس سنة ١٩٠٩ . ولكن ثيودور مال عنه بعد عودته من رحلته الأفريقية الأوربية ، فوقع انشقاق فى الحزب بدرت بوادره سنة ١٩١٠ ، وتجلت فى سنة ١٩١٢ عند ما رشح الحزب تافت ثانية للرآسة ، فعمد فريق منشق إلى ترشيح ثيودور روزڤلت للرآسة كذلك .

إن بوادر هذا التصدع فى وحدة الحزب الجمهورى ، أفضت فى سنة ١٩١٠ إلى التأثير فى انتخابات ولاية نيويورك النيابية ، فأسفرت عن انتخاب مرشح الدمقراطيين حاكماً للولاية ، وعن فوز الدمقراطيين بأكثرية فى المجلسين التشريعيين فى آلبنى عاصمة الولاية . فلما وصل فرنكلن روزڤلت الشاب إلى آلبنى فى أول يناير من سنة ١٩١١ وجد نفسه أحد أعضاء حزب فاز بأكثرية لم يكن أحد يتوقعها . فقرر أن يفعل ما تقتضيه الفطنة ، وبدلاً من أن يتخذ حجرة أو أكثر مقراً له غير مستقر ، فى أحد فنادق العاصمة ، استأجر بيتاً ، ونقل أسرته إليه ، واستقر فيه ، لكى يتمكن من النهوض بالواجب التشريعى الواقع على كاهله على أوفى وجه .

ولم تنقض إلا فترة قصيرة ، حتى حدثت الحوادث المشهورة التى آلت الى تألق نجمه السياسى . وقد أقبل الكتاب السياسيون من أنصار فرنكلن روزڤلت وخصومه ،

على بحث هذه الحوادث وتشريحها ، واستخراج العبرة منها . واللباب الذى تخرج به من أقوالهم جميعاً هو أن سياسيًّا شيخاً ضل الصواب وفقد رباطة الجأش ، فى أزمة سياسية ، بينما احتفظ سياسى شاب بصوابه ورباطة جأشه ، فآل ثمر الظفر اليه .

وخلاصة هذه الحوادث أن مدى الفوز الذى أحرزه الحزب الدمقراطى فى انتخابات ولاية نيويورك ، كان أعظم كثيراً مما كان زعيم الحزب الدمقراطى فى تلك الولاية يتوقعه ، وكان اسمه « مورفى » . فظن ، والحاكم دمقراطى ، وأكثرية المجلسين التشريعيين دمقراطية كذلك ، أن لا حدَّ لقدرته وسلطانه . أليس هو زعيم الحزب ، وفى يده الحل والربط ، وتعيين الأتباع ، وتوزيع الأسلاب ؟ وبداله حينئذ أن فى وسعه أن يرشح رجلا اسمه « شيهن » ليكون عضواً فى مجلس الشيوخ فى وشنطن (العاصمة الاتحادية) عن ولاية نيويورك . وأنه إذا رشحه ففوزه فى الانتخاب مضمون لاريب فيه ، لأن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا ينتخبون حينئذ فى المجلسين التشريعيين مجتمعين فى هيئة مؤتمر . والأكثرية فيهما ، على ما علمنا ، للدمقراطيين . وكانت العادة المتبعة أن يدعو زعيم الحزب ، النوابَ والشيوخ الدمقراطيين إلى اجتماع ، يقترح فيه اسم المرشح ، فإذا وافقت أكثرية المجتمعين على الترشيح ، ألزم الباقون به ولو كانوا قد عارضوه فى الاقتراع . وكانت الأكثرية اللازمة لانتخاب عضو الشيوخ فى الهيئة التشريعية مائة صوت وصوتاً ، وكان عدد النواب والشيوخ الدمقراطيين فيها مائة وأربعة عشر عضواً . فما كان على مورفى إلا أن يطمئن إلى حضور مائة عضو وعضو منهم الاجتماع الذى يدعو إليه ، وكان واثقاً بموافقة العدد اللازم منهم على ترشيح شيهن وعندئذ يلزم الحاضرون بالموافقة ، ويقترعون له عند الانتخاب . ولم يكن مورفى يتوقع مشقة ما فى تنفيذ هذه الخطة . والواقع أنه كان قد اختار لزعامة الأكثرية فى المجلسين سياسيين نابهين فى مقتبل العمر ، مرضاة لفريق الأحرار من الحزب الدمقراطى ، فكان يحق له أن يتوقع اتحاد

الأعضاء على تأييد شيهن ولكنه لم يحسب حساباً لفرنكلن روزفلت .

والغريب فى هذه الحكاية ، أن هناك ما يبعث على الظنّ بأن شيهَنْ لم يكن مختار مورفى الخاص لو كان حرًّا من كل قيد فى الاختيار . غير أن مورفى كان فى موقف حرج . فشيهَنْ كان قد أسدى إليه خدمات جليلة . وكان ثَرِيًّا . وأبواب الشركات الكبيرة مفتحة أمامه . ففى وسعه أن يعزّز مال الحزب ، بماله أو بمال الشركات التى له صلة بها . وكان قد بذل فى الانتخابات القريبة عن سعة وسخاء . فاختيار مورفى إيّاهُ كان مفروضاً عليه بدافع الشرف السياسى ، كما كان يفهمه ، و بدافع مصلحة الحزب . ولكن روزفلت كان قد وفّى جميع النفقات الخاصة بمعركة الانتخاب من جيبه الخاص ، فلم يشعر أنه مدينٌ لمورفى أو لشيهَنْ فى شىء من هذا القبيل . ولكن معظم أعضاء الحزب الذين فازوا فى الانتخاب لم يكونوا كذلك .

ولم يكن الاعتراض على انتخاب شيهَنْ ناشئاً عن مشاركته فى فضيحةٍ ما ، سياسية أو مالية ، ولا لأن روزفلت كان يرغب فى منافسة الرجل على عضوية مجلس الشيوخ فى وشنطن (عضو الشيوخ يجب أن يكون بالغاً ثلاثين سنة من العمر على الأقل) ولكنه كان ناشئاً عن كونه من فريق المحافظين الغلاة فى الحزب ، وكان صديقاً لقاضٍ يدعى باركر ، من غلاة المحافظين كذلك ، وكان الحزب قد رشح باركر للرآسة سنة ١٩٠٤ ، فهُزم فى الانتخاب هزيمة ذريعة . وعلاوة على ذلك ، كان شيهَنْ من أعوان الشركات الكبيرة ، والبيوت الثرية ، وكانت عنايته بالطبقات الشعبية غير الغنية ، غير بادية فى أقواله وأفعاله ، أى أنه كان من ذلك الطراز من الرجال الذى كان مسعى الحزب الدمقراطى بوجهٍ خاص ، والشعب بوجه عام ، موجّهاً إلى إقصائهم عن مقاعد السلطان . فانتخابه عضواً لمجلس الشيوخ الاتحادى عن ولاية نيو يورك يكون مناقضاً لاتجاه الحزب الدمقراطى ، وعبئاً ثقيلاً عليه ، فى انتخابات الرآسة المقبلة (سنة ١٩١٢) . فمن الناحيتين السياسية والعنوية ،

كان شيهَنْ لا يصلح لهذا التمثيل ، ولعل مورفى كان يعلم هذا ، ولـكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ فقد كان مديناً للرجل ، وظنَّ أن فى قدرته أن يوفِّى الدين بانتخابه . ولـكن روزڤلت الشابَّ أخلف ظنه .

ذلك بأن روزڤلت لم يكن مديناً لشيهَنْ فى شىء . ولا لمورفى . وكان بصيراً بسير الشؤون العامة فى الأمة الأميركية ، فأدرك أن انتخاب شيهَنْ لتمثيـل ولاية نيو يورك فى مجلس الشيوخ الاتحادى يكون صفعة لذلك العنصر الذى كان فى رأى روزڤلت مناطَ أمل الحزب الدمقراطى والأمة . ولـكنه كان شابًّا مقبلاً على ميدان السياسة ، وكان من المسلم به أن مورفى زعيم « تامانى هول » — وهو اسم مقرِّ زعامة الحزب الدمقراطى فى مدينة نيو يورك فى الولاية — كان يقبض بيديه على زمام المشتغلين بالسياسة من الحزب . وكان نجاحه فى دائرته استهلالاً حسناً لسيرته السياسية ، ولا ريب فى أن مورفى سيرمقه بعين العناية ، ويسهل له طريق الارتقاء إذا هو جاراه وكسب عطفه . واهتمام مورفى بانتخاب شيهَنْ دليل على أن مورفى لا ينسى مَنْ يسدى إليه خدمة ما . فاذا غامر روزڤلت فى معارضة مورفى ، فإنه يثير عليه حتماً سخط أقوى زعماء الحزب فى الولاية . لأنه إذا كان مورفى لا ينسى من يسدى إليه معروفاً ، فإنه لا ينسى كذلك من يتصدَّى له ويتحدَّاه . فمعارضته خطر كبير على سياسى ناشىء طموح .

فلما عُلِم فى آلبنى أن مورفى يؤيد شيهَنْ قضى روزڤلت ساعات وهو يذرع شوارع العاصمة محاولاً الوصول إلى قرار . ولا يُفهم اضطرابه هذا إلاَّ إذا تذكرنا أن روزڤلت كان من معتنقى مبادىء الأحرار ، ولـكنه لم يكن ميَّالاً إلى الثورة . فهو لم يجىء إلى آلبنى وفى نفسه أن يثور على زعامة مورفى ولا أن يهدم منزلة « تامانى هول » . كان يعلم أن الفساد سارٍ فى هذا النادى السياسى . ولـكنه كان يعلم كذلك أن الحزب السياسى ، أيًّا كان ، لا حياة له بغير نظام وهيئة تشرف على هذا النظام .

وكان روزڤلت يظنُّ أن خير مرشح لتمثيل ولاية نيويورك فى مجلس الشيوخ الاتحادى كان ادورد شبرد، وهو دمقراطىٌّ مستقلٌّ. ولو اختار مورفى مرشحاً آخر غير شيهَنْ أو غير شبرد من خمسة رجال أو ستة معروفين لكان روزڤلت وافق على الاختيار.

ولكنه لم يهضم اختيار شيهَنْ. قد يضطرُّ غيره من أعضاء الحزب الأحرار الناشئين، أن يرضَوْا بهذا الاختيار لأن الثورة على مورفى تعنى الانتحار السياسى. ولكن روزڤلت كان من أعالى الولاية. ولا سلطة مباشرة لتامانى ومورفى عليه. وكان قد انتُخِب عضواً لمجلس الشيوخ بغير تأييد مورفى، فليس فى وسع هذا أن يخرجه منه. نعم إن مورفى يستطيع — إذا شاء — أن يتنكر له، ويعرقل مساعيه، ولكن حياة روزڤلت السياسية لم تكن وقفاً على استرضاء مورفى ومجاراته. ففى هذه الحالة، أكان فى وسعه أن يرضى بالاقتراع لشيهَنْ بغير أن تثلم كرامته الشخصية والسياسية فى نظره الخاص؟ فقرَّر أن يمتنع عن هذا الاقتراع.

إلى هنا كان تفكيره وقراره ما يُنتظر من حُرٍّ مستقيم. وهذا كان واجباً عليه. وآل روزڤلت عرفوا بأنهم ينهضون بما يعدُّونه واجباً عليهم. ولو كان فرنكلن روزڤلت، لا يزال كما كان قبل معركة الانتخاب، لرضى بما فعل واكتفى بذلك. ولكن روزڤلت الجديد لم يكتفِ. بل قرَّر أن يمضى فى قراره إلى نهايته المنطقية، أى أن يعارض اختيار شيهَنْ وأن ينظم معارضة له. فبدأ يبحث بين أعضاء لهيئة التشريعية، لعله يهتدى إلى من يرى رأيه فى هذا الاختيار. واستطاع أن يقنع ثمانية عشر عضواً من أعضاء مجلس النواب فى توقيع بيان صرحوا فيه أنهم لن يقترعوا لشيهَنْ مهما تفعل الهيئة الدمقراطية المدعوة للاجتماع، ولذلك سيمتنعون عن حضور هذا الاجتماع.

إن هذا القرار أمرٌ خطير. لأن امتناع ثمانية عشر عضواً من الدمقراطيين عن حضور الاجتماع، أى امتناعهم مقدماً عن التزام قرار اختيار شيهَنْ يخفض

عدد الذين يحتمل التزامهم هذا القرار إلى خمسة وتسعين ، وهو أقلُّ من العدد اللازم لانتخابه عند ما يجتمع الشيوخ والنواب فى هيئة مؤتمر للانتخاب . ومع ذلك لم يعبأ مورفى فى البدء بهذا التمرُّد على سلطته ، حتى بعد ما علم أن أربعة آخرين انضموا إلى هؤلاء الذين وقَّعوا البيان . فقد رأى قبل ذلك مراراً تمرُّد الشبان على المخضرمين من رجال السياسة ، وكان واثقاً بقدرته على إكراههم على الإذعان له . فأصدر أمره بما يجب ، ووقف ينتظر انهيار المعارضة .

ولكن الأساليب التى أمر مورفى باتباعها لتفريق شمل المعارضة لم توهنها . فروزفلت مثلا ، كان قد فاز بتعيين أحد أبناء دائرته الانتخابية فى قسم الحراج فى الولاية ، فاستُغنى عنه . وغيره من المتمردين كانوا قد وُعدوا — وفقاً للتقاليد المتبعة فى الحياة السياسية الأميركية — بمزايا تتاح لأنصارهم فنقضت الوعود . وتلقى غير واحد منهم خطابات تنطوى على تهديد . ووُصِف روزفلت فى الصحف بأنه شابٌّ وسيم أنيق يصلح للمسرح ، حيث تخفق لطلعته قلوب العذارى . ولمَّحت صحفٌ أخرى تلميحاً خفيًّا إلى أن الرشوة من قِبَل بعض المصالح الخاصة هى سبب هذا الامتناع عن قبول شيهَنْ . ونشرت صور المعارضين على وجهٍ يوحى بأنهم قضوا الليـل فى العربدة والفسق . ومع ذلك مضى التمرد فى سبيله ، فعمدت هيئة الحزب حينئذ إلى التنقيب فى سجلاّت المتمردين لكشف ما يسهل الاستناد إليه فى التأثير فيهم لصرفهم عن القرار الذى اتخذوه . فظهر أن بعضهم مدينٌ لبعض البنوك . فطلبت البنوك منهم توفية الديون . فانصرف روزفلت إلى البحث عن مال يمكنه من التوفية ، وأصاب نجاحاً فيما سعى إليه . وتمكن المتمردون من تجاهل التهديد الموجَّه إليهم ، ومضى التمرُّد فى سبيله .

وعند مابلغ النضال هذه المرحلة ، كان اسم روزفلت قد انتشر فى دوائر الولاية ، فخفّ إلى تأييده وتأييد جماعته غير واحدٍ من شيوخ السياسة الناقمين على مورفى وأساليبه . وكان مورفى قد أدرك أن التمرُّد على سلطته أخطر شأناً مما كان يظنُّ .

فاستفزّه الخطر . ولـكنه طار بصوابه . وكان مشهوراً بأنه يحسن تقدير الرجال . ولـكن يلوح أنه استخفّ بزعيم خصومه الشاب فى هذا النضال . وكان فى وسعه أن يستردّ ترشيح شيهَنْ ويرشح غيره فيتفق الجميع على المرشح الجديد ، ولـكنه أبى لأنه عَدَّ هذا التمرد تمرُّداً عليه ، فقرّر أن يسحق المتمردين ، وقضى عشرة أسابيع يحاول ذلك . بينما دوائر الحزب الجمهورى وصحافته تهلِّل لهذا الانشقاق الداخلى فى حزب الخصوم .

ولسنا نعلم على وجه التحقيق ما سرُّ الخطإ الذى وقع فيه مورفى فجعله سخرية بين رجال السياسة ، وأضعف منزلته بين أقطاب حزبه . إن مورفى وحده يستطيع أن يجلو هذا السرَّ . وهو لم يتكلم . ولـكن من المحتمل أن خطأ مورفى ، كان نفس الخطإ الذى وقع فيـه غير واحد من خصوم روزفلت فيما بعد ، ولم يكونوا دون مورفى معرفةً بأقدار الرجال . وذلك بأنهم جميعاً عجزوا عن التمييز بين « الخفة » و « المرح » . وقد كان مورفى يظنُّ أن الرجل الجادَّ لا يبتسم . فإذا كان الرجل كثير الابتسام ، وأحياناً عالى القهقهة ، فلا يمكن أن يكون رجلا جادًّا يقام له وزن كبير . وهذا المتمرد الشابُّ لا يفارق الابتسام ثغره ، وقد حوَّل داره فى « آلبنى » إلى منتدى يجتمع فيه أنصاره ، يضحكون وينكتّون ويدخنون ، ويأبون كل ما وُجِّه إليهم من تهديد أو استرضاء . ولعل نقمة مورفى استفحلت لأن خصومه كانوا فى مَرَحٍ دائم .

وعلى كل حال ، مضى النضال بين مورفى و بين هذه الحفنة من المتمردين عشرة أسابيع . وجاءت قاصمة الظهور عند ما شبَّت نارٌ فى دار الـكابيتول فى آلبنى ، ونقلت اجتماعات « المؤتمر » إلى دار ضيقة ، فتعالت أصوات البَرَم من أتباع مورفى ، فاضطرَّ الزعيم العنيد ، فى آخر الأمر ، إلى الاعتراف بأنه غُلِب على أمره . فعرض أن يسحب اسم شيهَنْ . وقضت حكمة المنتصرين بألاَّ يفرضوا شروطاً قاسية على

خصمهم المخذول . وقد كان روزڤلت يقول : نحن لا نعلم من يكون ممثّل الولاية فى مجلس الشيوخ الاتحادى ، ولكننا نعلم أنه لن يكون شيهَنْ . فلما سلم مورفى بخذلانه ، رُشِّح رجل آخر من أقطاب « تامانى » ، وكان عضو المحكمة العليا فى الولاية ، وهو رجل ذو نزعة حرة ، وخلق مستقيم . وانتخب .

إن هذه الحوادث تكاد الآن تكون نسياً منسيًّا فى الولايات المتحدة ، فأحرِ ألاّ تهمّ من لم يكن أميركيًّا . ولكننا توسّعنا فى وصفها ، لأنها تفصح عن ناحية من نواحى الحياة السياسة فى كل ولاية من الولايات الثمانى والأربعين ، ولأنها كانت السلم الذى ارتقى فرنكلن روزڤلت عليه إلى منزلة ملحوظة فى السياسة الأميركية ، عند ما كان لا يزال دون الثلاثين من عمره ، ولأنها أبانت عن ناحية من أخلاقه السياسية تجلّت فى المراحل التالية . وقد أكبّ روزڤلت على عمله فى مجلس شيوخ الولاية . فالخدمة أو الواجب يسير هنا جنباً إلى جنب مع نضال العزائم وصراع الإرادات . وهو يجنى من الاثنين متعة كبيرة . ومما يروى عنه ، أن مشروع جعل ساعات العمل فى ولاية نيو يورك أربعاً وخمسين ساعة كان يحتاج إلى صوت إضافى واحد لإقراره ، وكان المشروع يهمّ روزڤلت لأنه يحقق ناحية ، ولو يسيرة ، من نواحى العدل الاجتماعى الذى يصبو إليه . وكان أحد الشيوخ ملتزما فراشه ، فصدر الأمر من جماعة الموافقين بوجوب إحضاره ، ولا بدّ من تأخير الاقتراع حتى يحضر ، فوقف روزڤلت يخطب ، فتكلم فى كل موضوع خطر له ، إلى أن أقبل على موضوع العصافير ، فإذا رئيس الجلسة يقول : « التزْم الموضوع » فقال روزڤلت : « إننى ملتزم الموضوع . فالعصافير تعلّمنا أن . . . » وإذا الشيخ الملتفع قد أُدخل البهو ، وإذا مشروع القانون بخفض ساعات العمل إلى أربع وخمسين ساعة قد أُقِرّ .

— ٣ —

جُدِّد انتخاب روزفلت لمجلس الشيوخ فى ولاية نيويورك على رغم مقاومة هيئة حزبه له ، وإصابته بالحمى التيفودية فى أثناء معركة الانتخاب . وفى المجلس الجديد ، أيّد طائفة من مشروعات القوانين المتسمة بسِمة الأحرار ، وكان مرجعه وغرضه فى معظم ما قال إلى وجوب العدل والاستقامة فى تصريف الشؤون العامة . ولكن نظره فى خلال هاتين السنتين أخذ ينصرف عن ألبنى إلى أفق أوسع ، بدأ يطلع فيه نجم سياسىٌ جديد علّق به الأحرار عامةً ، وأحرار الحزب الدمقراطى على وجهٍ خاص ، أملهم العريض . وكان ذلك النجم السياسىٌ نجم ودرو ولسن .

كان فرنكلن روزفلت كغيره من شباب الحزب الدمقراطى المتحمسين للمثل الدمقراطية العليا ، وقد أذكى حماستهم وعزّز آمالهم ظهور رئيس جامعةٍ فى ميدان السياسة ظهوراً استوقف أنظار الأمة . فقد انتخب ولسن رئيس جامعة برنستون ، حاكماً لولاية نيوجرزى فى سنة ١٩١٠ وكان فرنكلن روزفلت كلما قرأ خطب هذا الحاكم وتصريحاته ، ولا سيما قوله — إن « الثروة المركزة هى طاغية القرن العشرين ، وإن هذا الطاغية يجب أن يخضع لسيطرة الدولة ، وإلاّ فإنه يستعبد الملايين » — يزداد يقيناً بأنه القائد المنتظر للحزب الدمقراطى .

وقد قال روزفلت ، فيما بعد ، إن أهم ما آل إليه من إرث ولسن إنما هو السعى إلى تحقيق هذا الغرض الذى حالت الحرب العالمية الأولى دون تحقيقه .

فهل تحول الحرب العالمية الثانية دون مضى روزفلت فى تحقيق طبعته الجديدة من إرث ولسن الاجتماعى ؟

كان الزمن مؤاتياً لظهور قائد دمقراطى جديد . فالخلاف بين روزفلت الكبير (ثيودور) وتافت (الرئيس الجمهورى) كان قد قذف بالحزب الجمهورى الى مشكلة

معقدة . فإذا امتنع روزڤلت الكبير عن ضبط نفسه وخرج على تافت وهيئة الحزب الرسمية ، فلا مفرّ من انشقاق يتيح للحزب الدمقراطى فى انتخابات الرآسة المقبلة (١٩١٢) فرصةً نادرة . وإذاً فعلى الحزب الدمقراطى أن يتأهب لهذا ، وأن يعد للانتخاب خير مرشح يستطيع أن يخوض المعركة نائباً عنه . وأيقن فرنكلن روزڤلت أن هذا المرشح يجب أن يكون ودرو ولسن .

كان الفرق بين الرجلين — ودرو ولسن وفرنكلن روزڤلت — عظيماً . فولسن يكبر روزڤلت سنّاً خمساً وعشرين سنة ، حتى ليصح أن يكون والداً له . وكلُّ ما كان يراه فرنكلن فى ثيودور روزڤلت بطل صباه من شجاعة وجرأة ورغبة وفرحة فى النضال ، وبراعة فى امتطاء الجياد ، وبشرة لوحتها الشمس ، وعضلات صقلتها الرياضة ، لم يجد له أثراً فى ولسن . هذا ابن قسيس لم يقض حياته لا فى الريف ولا فى المدن ، بل بين الكتب . والدافع الى العمل فيه لم يكن مرده الى رؤية الضرورة الدافعة إلى العمل ، بل كان مرده الى دراسة دقيقة ، وتأمل عميق ، واقتناع بمبادئ معينة . نعم إن خلق ولسن ينطوى على كل مايعوز ثيودور وفرنكلن كذلك — الثقافة المصقولة ، والمنطق القوى السليم ، والتأهب العقلى . ولكن الصلة بين ولسن وفرنكلن روزڤلت ، كانت الرغبة المشتركة فى توزيع نعم الحياة توزيعاً أعدل مما كان مجتمعهما يتيحه . ولكن هذه الرغبة فى فرنكلن ، كانت مقترنة فيه بمتعة الحياة والاندفاع الى العمل الذى لم ينبع فى ولسن إلا من التفكير . وكان بينهما صفة مشتركة هى صفة العناد . وقد اعترف بها ولسن فى أخريات أيامه ، ولعل روزڤلت يعترف بها يوماً ما . ومع ذلك وعلى رغم الفرق بين الرجلين ، رأى روزڤلت فى ولسن الرجل المنتظر للحزب الدمقراطى ، وللأمة الأميركية .

ولكن مورفى ، وأقطاب هيئة « تامانى » الدمقراطية فى مدينة نيويورك ، لم يكونوا على هذا الرأى . بل ليذهب كثيرٌ من الكتّاب إلى أن هؤلاء الرجال كانوا

يفضّلون فى حدود معيّنة ، رئيساً من الحزب الجمهورى على رئيس من حزبهم يكون ودرو ولسن أو من طرازه ، لأنهم كانوا قد تبيّنوا فى تصريحاته الحازمة عن وجوب مكافحة « الثروة المنظمة فى شركات ضخمة » مشيئةً اجتماعية تناقض ما لهم من أغراض خاصة ومطامع . فانحازوا إلى رجل يدعى « تشامب كلارك » وأخذوا يؤيدونه للترشيح عن الحزب الدمقراطى فى انتخابات الرآسة المقبلة . فأسف فرنكلن روزڤلت لما رأى هذا الانحياز ، ولكنه تبيّن فرصة متاحة له لتنظيم مؤيدى ولسن فى ولاية نيو يورك والدعوة له . وكان بعد فوزه فى النضال مع مورفى فى حادثة « شيهَنْ » قد اشتهر بقدرته على التنظيم السياسى ، فرأى فيه أعضاء الحزب من مؤيدى ولسن قوةً جديدة تنضمّ إليهم ، فأفسحوا له مكاناً فى الطبقة الأولى بينهم فلما عُقد مؤتمر الحزب الدمقراطى فى مدينة بُلطيمور ، كان فرنكلن روزڤلت من زعماء الدمقراطيين المعترف بهم فى ولاية نيو يورك . ولما فاز ولسن بالترشيح للرآسة[1] من قبل المؤتمر سلّم كلُّ متتبعٍ شؤون السياسة الأميركية بأن روزڤلت كان ذا شأن فى هذا الفوز . وعند ما انتُخِب ولسن رئيساً فى نوفمبر من سنة ١٩١٢ لم يتردد أحدٌ من الحزب فى القول بأن الإنصاف يقضى بتعيين فرنكلن روزڤلت فى منصب يليق به فى الحكومة الجديدة . والواقع أن غير منصب واحد عُرض عليه ، ومنها ، على ما يقال ، وكالة وزارة المالية ، ولكنه أبى . وأخيراً لما عرض عليه وزير البحرية الجديد — جوزيفوس دانيلز — منصب وكالة وزارة البحرية قبل فى الحال .

كان مردُّ قبوله إلى اهتمامه بالبحر والأسطول منذ نشأته ، وإلى أن ثيودور

---

(١) يروى أن روزڤلت نظم نحو مائتين من أتباعه لتأييد ولسن وأدخلهم بهو الاجتماع لابسين شارة « تشامب كلارك » . وفى الدقيقة الموعودة بدأوا يصيحون : « نريد ولسن » فكان ذلك بدء انقلاب التيار إلى الموافقة على ترشيح ولسن . والرأى أنه فعل ذلك عند ما علم أن أنصار « تشامب كلارك » سيدخلون فريقاً من « فتوات البلد » ليصيحوا : « نريد كلارك » للتأثير فى جماعة المترددين فى تأييد كلارك .

روزفلت — مرمى آماله وهو حَدَثٌ — تقلَّد هذا المنصب قبل انتخابه وكيلاً للرآسة. وأخيراً لأنه أحبَّ دانيلز الوزير الجديد، على ما بينهما من فارق فى النشأة والذوق والأخلاق.

فقد كان روزفلت مثالاً مجسَّماً للسيد الكريم المتحدر من أسرة كريمة. وُلد فى نيويورك، وتعلَّم فى جروتون وهارفرد، وصُقلت أخلاقه بالرحلة والاجتماع. بينما كان دانيلز من العامة، وُلد فى كارولينا الشمالية، ولم يتخرج فى جامعة ما، واحتفظ بمظهره الخشن وحديثه الجاف. وكان الفرق بينهما يتجلى فى ملابسهما. فروزفلت لم يتعدَّ الأناقة، ولم يغلُ فى الإنفاق، ولكنه كان يفصِّل ملابسه عند المجيدين من خيَّاطى نيويورك، بينما كان دانيلز يتعمد الظهور فى ملابس هى أقرب إلى الرثِّ فى مظهرها منها إلى المتقن. الأول مظهره مظهر محامٍ نيويوركى أنيق، والثانى مظهره مظهر مبشِّرٍ كهلٍ من الجنوب.

والواقع أن كثيرين حسبوه مبشِّراً عند ما شاهدوه أولاً، وكان تعيينه وزيراً للبحرية فى حكومة ودرو ولسن، مثاراً لمناقشة عنيفة وجدل كثير. ومن الروايات التى تروى، أن طائفة كبيرة من ضباط الأسطول أُغمى عليها عند ما شوهد وزير البحرية أولاً. ومنهم من كان يقول بعد تعيين روزفلت وكيلاً: «لننتظر حتى يذهب دانيلز فنسوِّى المسألة مع روزفلت».

فالفوارق بين روزفلت ودانيلز ما كانت تشعر بأن روزفلت الشاب يستطيع أن ينفذ منها إلى حقيقة رئيسهِ فيدرك قيمته على وجهها الصحيح. ولكن الصلة توثقت بينهما فى الحال. ولم يطل بروزفلت المطال حتى تبيَّن أن رئيسه ليس «الرجل الغبى» الذى رآه بعض قصار النظر فيه. فوراء تلك البسمة الأنيسة والنظرة الخاشعة كان عقلٌ ذكىٌّ حصيف، ومشيئة قوية تؤيدها شجاعة وجرأة لا حدود لها.

ويقال إن دانيلز روى أن الباعث له على اختيار روزفلت إنما كان أنه لم يرَ

شابًّا أبهى منه طلعة وآنق ملبساً فى وشنطن . ولكن دانيلز كان رئيس قسم الدعوة فى هيئة الحزب الدمقراطى . ولا ريب فى أنه أدرك ما لتعيين شابٍّ من أُسرة روزڤلت فى حكومة ولسن من قيمة شعبية . ثم لا ريب فى أنه أدرك بعد حديث قصير مع روزڤلت أنه الرجل الذى يصلح بطبعه وتربيته لمخاطبة أمراء البحر وصغار البحارة على السواء . ولكن لم يكن فى وسع دانيلز ، أن يصرِّح بالبواعث الحقيقية التى حملته على اختيار فرنكلن روزڤلت لوكالة البحرية ، فقال إنه اختاره لبهاء طلعته .

ومضى الوزير ووكيله يتعاونان تعاوناً دقيقاً ، نهض بالأسطول الأميركى ، إذ كانت الدنيا تتمخض عن الحرب العالمية الأولى . فدانيلز كان من أتباع «بريان» Bryan. وكان الناس بوجهٍ عام ، ورجال الأسطول بوجهٍ خاص ، يظنونه يشاطر « بريان » نزعاته السلمية ، فاتجه الضباط وقوّاد البحر إلى روزڤلت ليقينهم أنه رجل يفهم آراءهم ويعطف عليها ، فيسهل التفاهم بينهم وبينه . ولو كان دانيلز غير ما هو لسخط وغار . ولكنه كان عميق الإدراك بعيد النظر كريم الخلق ، فلم يستفزّه ما أدركه وكيله من منزلة عند رجال الأُسطول . بل إنه رأى فيه التحقيق الكامل لخطته . فروزڤلت ورجال الأُسطول متفقون . ولكن تعزيز الأُسطول لا يكون إلاّ بعد ما يرصد الكونغرس المال اللازم لذلك . وعندئذ فالنزعة السلمية التى اشتهر بها ، أو ألصقت به من تأييده بريان خلال عشرين سنة تقريباً ، تمكِّنه من إقناع الكونغرس بوجوب إرصاد المال . لأنه إذا قال رجلٌ ، هذه نزعته ، إن المال واجبٌ لتعزيز الأُسطول ، فوجوبه لا ريب فيه .

ومن ألطف ما يروى فى هذا الصدد عن بريان ، وكان وزير الخارجية الأميركية فى العهد الأول من رآسة ولسن ، أنه خاطب روزڤلت فى أحد الأيام قائلاً : « أريد بارجةً فى الحال لتذهب الى هايتى » . وكان ذلك على أثر حوادث اغتيل

فيها كثير من البيض، فاقتضى الحادث تظاهراً بالقوة من جانب الحكومة الأميركية.

فقال روزفلت : « إن جميع بوارجنا بعيدة الآن . ولكن فى متناولى الآن سفينة مدفعية gunboat وفى الوسع أن تصل إلى هايتى فى ثمانى ساعات . »

فضحك بريان موافقاً وقال : إذا ذكرت « البوارج » بعد الآن فلا تظن أننى أقصد « بوارج » بالمعنى الفنى .

وكان الرأى الغالب فى سنة ١٩١٤ أن دانيلز سينزع الى خفض ميزانية وزارة البحرية إلى أدنى حد مستطاع . والواقع أن هذا الخفض وقع فى بقية السنة المالية التى تولى الدمقراطيون الحكم فيها (مارس ١٩١٣ الى يونيو ١٩١٣) وكان الخفض مليونى ريال . ولكن الزيادة بلغت فى السنة التالية عشرة ملايين إذ ارتفعت من ١٣٠ مليون ريال الى ١٤٠ مليوناً . وكان ذلك قبيل نشوب الحرب فى أوربا فى صيف تلك السنة . وبعد ما نشبت الحرب غدا إقناع الكونغرس بوجوب زيادة ميزانية البحرية زيادة كبيرة أمراً لا يقتضى كبير عناء .

— ٤ —

فى سنة ١٩١٤ حدثت حادثة غريبة لا يستطاع تفسيرها حتى الآن إلاّ تفسيراً عاماً . ففى تلك السنة رضى روزفلت — وهو لا يزال وكيلاً للبحرية وله بعمله شغف عظيم — بأن يرشح عن الدمقراطيين فى ولاية نيويورك عضواً فى مجلس الشيوخ الاتحادى . وأصيب بالهزيمة السياسية الوحيدة فى حياته التى كان مردُّ الفصل فيها إلى الانتخاب العام . نعم إنه خسر الانتخاب لوكالة الرآسة فى سنة ١٩٢٠ عند ما أصيب الدمقراطيون بهزيمة عامة ، ولكن خذلانه حينئذ لم يكن خذلاناً شخصياً له، بل كان خذلاناً للحزب ، ولمرشح الرآسة كوكس فى المقام الأول .

أما لماذا قبل الترشيح عن دمقراطى نيويورك ليكون عضواً فى مجلس الشيوخ

فليس واضحاً . والغالب أنه أحس أو أنبىء أن الرئيس ولسن راغب فى ذلك . والغالب كذلك أن الرئيس ومستشاريه كانوا يرغبون فى أن يفوز أحد رجال الحكومة القائمة فى انتخاب من هذا القبيل ، وبخاصة فى مجلس الشيوخ حيث كان أنصار السياسة التى جرى عليها ولسن قليلين وإنْ كان الدمقراطيون كثرةً فيه .

ومهما يكن من أمر ، فإن مورفى خصم روزڤلت فى حادثة شيهَنْ وترشيح ولسن ، كان لايزال زعيماً قويًّا ، فأحكم خطة المعارضة لروزڤلت ، لأنه لم يشأ أن يهزم أو أن يبدو أنه هزم مرة أخرى على يدى روزڤلت . فأوحى باختيار جيمز جيرار للترشيح عن الحزب الدمقراطى . وكان فى اختياره هذا بارعاً البراعة كلها . فجيمز جيرار كان سفير الولايات المتحدة فى ألمانيا ، وكان ولسن قد عينه سفيراً . ومن الواضح أنه كان من المتعذر على ولسن أن يعارضه معارضة صريحة ، أو أن يؤيد روزڤلت تأييداً صريحاً . وحاول روزڤلت أن يجعل مدار الاختيار مسألة الخضوع أو عدم الخضوع فى الحزب للزعماء المتحكمين فى شؤونه . ولكن أحداً لم يصدق أن جيرار كان أداة فى يدى مورفى . فتعثرت حملة روزڤلت من بدئها ، وجرد مورفى كل قوته لمعارضة روزڤلت فغلبه . ولكن جيرار لم ينتخب ، لأن مرشح الحزب الجمهورى — جيمز ودزورث — غلبه يوم الانتخاب العام .

وقد حاول كثيرون تفسير هذه الهزيمة التى أصيب بها روزڤلت . ولكن المرجح أنه لم يحسن القيادة ، إذ أقدم على المغامرة فى معركة قبل أن يستوثق من أن مواصلاته الخلفية مأمونة . لأنه إذا كان روزڤلت يعتمد على تأييد البيت الأبيض ، فكان واجباً عليه أن يستوثق من أن الفريق المعارض لا يرشح رجلاً كبيراً من أتباع ولسن أو أصدقائه كما حدث فعلاً ، حتى لا تُغلَّ يدا ولسن فى تأييده . ولعل هذه الهزيمة علّمته درساً لم ينسه . ففى كل معركة انتخابية خاضها بعد ذلك — إذا استثنينا انتخاب الرآسة سنة ١٩٢٠ وكان هو مرشحاً للوكالة فقط — كان روزڤلت

يستوثق دائماً من أمرين . أولهما : ما مصادر تأييده ، وثانيهما : ما مبلغ اعتماده عليها . ومنذ ذلك الحين لم يخسر معركة انتخابية بفعل الكسّارة — على حدّ التعبير الحربى — أى بإطباق المعارضة التى يواجهها عليه من الأمام ، وضعف القُوَى التى تؤيده من الوراء .

والواقع أن روزڤلت خاض معركة انتخاب عضو الشيوخ عن ولاية نيويورك بهمة فاترة . لأن نشوب الحرب الأوربية فى صيف ١٩١٤ — أى قبل الانتخاب المذكور بثلاثة أشهر — كان قد رفع من شأنه وشأن منصبه فى وزارة البحرية إلى المقام الأول . وقد يكون من السخف أن يزعم أحد أن روزڤلت رأى ببصيرته النافذة سير الحرب ومصيرها وتطوُّرها حينئذ ، ولكنه حتماً أدرك يوم أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٤ أغسطس ١٩١٤ أن أسطولاً أميركيًّا قويًّا غدا أمراً لا بد منه ، ولا غنى عنه ، لسلامة الولايات المتحدة ، بل ولكيانها .

إلا أن إدراكه الصحيح تعدَّى المبدأ العام إلى التفصيل الدقيق . فهو لم يدع الى تعزيز الأسطول وحسب . بل سعى كذلك الى وجوب تعزيز قواعده . إذ ما فائدة السفن الحربية بغير قواعدها . وهذا الفهم والسعى هما أعظم ما أسداه فرنكلن دلانو روزڤلت الى ظفر الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . كان روزڤلت قد مضى عليه سنة أو أكثر قليلاً فى وكالة البحرية عند ما نشبت تلك الحرب فى صيف ١٩١٤ . وكان فى خلال تلك السنة قد بحث بحثاً دقيقاً محكماً حاجة الأسطول الأميركى فثبت له أن ضعف الأسطول ليس فى سفنه ورجاله ، بل فى قواعده — قواعد التموين ، وأحواض الترميم والإصلاح ، والمخازن ، ودور الصنعة ، ومحطات التدريب . ومردُّ هذا النقص إلى أن كل ضابط بحرى يطمح إلى الارتقاء حتى يبلغ مرتبة تتاح له فيها قيادة سفينة حربية . ولكن يندر بينهم من تتجه مطامحه إلى مركز القيادة فى محطة فحم أو دار صنعة .

وكانت النتيجة التى لامفرَّ منها خلال سنوات ، أن أهملت فيها هذه المنشآت البحرية ، وكانت مهمة روزڤلت أن يصلح الخلل ، فأقبل عليه بكل ما عهد فيه من نشاط وهمة متقدة فى حملته السياسية الأولى . وقد وصفت المسز روزڤلت فى ترجمتها تلك الأيام وما تخللها من رحلات متوالية طويلة شاقة لتفتيش هـذه المنشآت ، فما كان شىء يغيب عن نظر روزڤلت الفاحص ، وهو المعنىُّ بمسائل السفن منذ حداثته الأولى . ففى الصفحة ٢٠٤ من كتابها تقول : كان زوجى معنيًّا أعظم عناية بجمع كل ما يستطيع جمعه من كتب ورسائل وصور ، خاصة بالأسطول الاميركى ونماذج سفنه . وكانت مجموعته كبيرة ، إلا أن السنوات التى قضاها فى وشنطن وكيلاً للبحرية أتاحت له فرصاً كثيرة للاضافة إليها . ومما عرض عليه ، فى وقت ما ، صندوقٌ حافلٌ برسائل الحبِّ التى كتبها ضباط الأسطول فى عهده الأول ، فاقتناه . . . ثم قالت ما يلى عن رحلات التفتيش : فى هذه الرحلة كغيرها من رحلات التفتيش كانت مواعيدنا تبدأ فى الساعة التاسعة صباحاً ، وتنتهى حوالى منتصف الليل .

وكذلك أخذت الحياة تدبُّ فى هذه المنشآت الساحلية . ومما يعزى إليه ويدلُّ على صدق نظره ، إصداره أمراً إلى كل سفينة حربية عند عودتها إلى قاعدتها بأن تعبِّئ ما تحتاج إليه من وقود وذخيرة وما أشبه حال إرسالها وقبل أن يُسمح لأحدٍ من رجالها بالنزول إلى البرِّ ، حتى إذا حدث ما اقتضى سفرها مفاجأة لم يكن فى الحاجة إلى الوقود مانعٌ من السفر . وقد ظُنَّ هذا الأمر عند صدوره قطعة من التحكم المدنى البيروقراطى فى الأسطول . ولـكن فائدته تجلت عند ما اقتضت الأحوال إرسال سفينتين حربيتين على جناح السرعة إلى فيرا كروز فى سنة ١٩١٤ . ولولا القاعدة التى سنّها روزڤلت لوجب أن تتأخر السفينتان أربعة أيام أو خمسة قبل إقلاعهما ، ولـكن السفينة الأولى أقلعت فى هذه الحالة بعد انقضاء ساعتين على صدور الأمر ، فأفحم المعارضون .

هذا العمل الخطير الذى تولاّه روزڤلت ، لم يستوقف عناية الجمهور ولا اهتمامه . فهو عمل لا يبلغ الصفحات الأولى من الصحف . ولـكنه كان عملاً عظيم القيمة وأدرك رجال الأسطول قيمته فذاع فى طبقاتهم أن فى الوزارة فى وشنطن رجلاً يفهم معنى القوة البحرية فهماً صحيحاً ، ويستطيع أن ينفِّذ ما يرى تنفيذه واجباً . وكان هؤلاء الرجال لا يزالون مُعْرِضين عن دانيلز ، ولـكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن روزڤلت متمتع بثقة رئيسه ، وروزڤلت فى نظرهم رجل ممتاز فلا بدَّ أن يـكون دانيلز كذلك .

وكذلك سَرَت موجةٌ من الثقة فى الأسطول ، أخذت تتعالى باقتراب الولايات المتحدة من شفا جرف الحرب ، بدلاً من أن تضعف إلى الاضمحلال . أما ما لم يدركه رجال الأسطول حينئذ فهو مدى سعى دانيلز إلى تعزيز الأسطول ، وكان قد وقف نشاطه ومنزلته على إقناع الرئيس ورجال الـكونغرس بوجوبه . وأخيراً وُفِّق إلى ما أراد إذ طلب الرئيس ولسن فى سنة ١٩١٦ إنشاء أسطول كبير حقًّا ، وقفزت ميزانية وزارة البحرية إلى ٣٠٠ مليون ريال ، أى إلى ضعفى ما كانت عليه سنة ١٩١٤ — ١٩١٥

وقد روى باسيل وون فى كتابهِ عن روزڤلت قصة جديرة بالتدوين وخلاصتها أنهُ عند ما نشبت الحرب بين المانيا وبريطانيا فى سـنة ١٩١٤ ذهب الـكابتن « جاى جونت » الملحق البحرى البريطانى فى وشنطن إلى مكتب روزڤلت وعلى جبهته امارات اليأس وقال له : «يا مستر روزڤلت أنت معقد أملى الأخير . ففى مرفأ نيويورك طائفة من السفن الألمانية الـكبيرة التى سلحت للاغارة على الملاحة . وهى تتأهب للخروج . وهأنذا عائد من وزارة الخارجية (كان وزير الخارجية بريان من دعاة السلام) والرأى هناك أنهُ لا يسعهم أن يمنعوها من الخروج . فاذا خرجت خسرنا حياة بحارة كثيرين وسفناً وشحنها الثمين فهل ثمة طريقة لمنعها ؟ »

فكر روزڤلت لحظة واتخذ قراره . واستدعى بالتليفون ددلى فيلد مالون مدير مرفأ نيويورك وقال : ددلى . هنا فرنكلن روزڤلت يتكلم . ان السفينة الألمانية « كرونبرسنزسن اليس » وغيرها من السفن الألمانية تتأهب للخروج من المرفأ للاغارة على الملاحة . هل فى وسعك أن تعمل عملاً قانونياً ما لمنعها ؟

فقال مالون — وهو الذى روى الحكاية لباسيل وون — « لست أعلم إن كانت هناك طريقة قانونية لمنعها ، ولكننى سأمنعها من الخروج بطريقةٍ ما » .

وكان لا بد لهذه السفن من استصدار الترخيص بالخروج من المرفأ . فلما بحث مالون فى ذلك وجد أن الرخص قد أمضيت وأرسلت ، فبعث رسولاً فى أثرها فاستردَّها قبل تسليمها لربابنة السفن . وبعد قليل جاء وفد من الألمان الساخطين يشكون فقابلهم مالون متجاهلاً مستنكراً ووعد ببحث المسألة . وفى اليوم التالى ، جاء الملحق البحرى الألمانى وهو أشدُّ سخطاً ممن سبقَهُ ومعهُ فريق من ضباط السفن فقال لهم مالون : « إننى أبحث المسألة . ويلوح أن هناك اعتراضاً ما من ناحية الممنوعات الحربية . طبعاً إن ذلك لايصدق . لأنهُ لو صح لكان انتهاكاً لحرمة الحياد الأمركى . ولعلكم تدركون حرج موقفى . فعلىَّ أن استوثق » . وكذلك أرسل مالون مفتشيه فوجدوا السفن وقد قويت دكاتها لنصب المدافع ، ووجدوا المدافع مخفية فأمرت السفن بالبقاء فى المرفأ وظلت هناك إلى أن دخلت الولايات المتحدة الحرب فى ابريل من سنة ١٩١٧

وليس ثمَّة ريب فى أن روزڤلت ، ككل عاقل ، رأى فى جزع ، ولكن بغير قلق ، موجة الحرب تقترب من الولايات المتحدة . وليس ثمة ريب كذلك فى أنه كان مكبًّا على العمل العظيم الذى بين يديه إكباب شغف ووطنية وعزم صادق . وفى هذه الفترة من حياته حدثت حادثة لم تروَ ، قبل أن رواها روزڤلت نفسه لإميل لدڤيج فدوَّنها فى كتابه عن روزڤلت . وليس فى وسع من يقرؤها إلاَّ أن يعقد موازنة بين

روزڤلت فى سنة ١٩١٦ وروزڤلت فى سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤١ . ففى الأولى كان روزڤلت وكيلاً للبحرية ، وكان عليه أن ينبّه رئيس الولايات المتحدة إلى ما يراه من وجوب تعزيز الأسطول تأهباً لما عسى أن تجرّه الليالى والأيام فى ذيولها . أما فى سنة ١٩٤٠ فقد كان روزڤلت فى مقعد الرآسة : مقعد القائد العام للقوات الاميركية المسلحة جميعاً .

وخلاصة الحادثة ، كما رواها لدڤج فى كتابه ، أن روزڤلت دُعى فى خريف سنة ١٩١٦ إلى مقابلة الرئيس ولسن فى مهامَّ معيَّنة ، فاغتنم الوكيل الفرصة ليعرض على رئيسه رأيه فى الحالة الدولية ، ولا سيما ما كان منها خاصًّا بالأسطول ، فقال له إن الحوادث تسير سراعاً ونحن على وشك الانغمار بها على ما يلوح ، فيجب أن نكون متأهبين . فهزَّ الرئيس رأسه معارضاً . وعند ما همَّ روزڤلت بالخروج استبقاه ولسن وقال له : إن عيون التاريخ محدّقة فينا . نعم من المرجح أننا سندخل الحرب . ولكن فى سنة ١٩٨٠ سيكتب مؤرخٌ ما تاريخ هذه الحرب . وقد يكون ألمانيًّا أو روسيًّا . فيجب أن يكون فى وسع هذا الرجل أن يقول صادقا : « إن أميركا لم تتأهب للحرب إلا بعد ما اضطرت إلى خوض غمارها » . . . و بعد ما أعلنت الحرب فى ابريل سنة ١٩١٧ ظهر — على رغم النشاط الذى بذله روزڤلت — أن ثلث السفن الحربية كان على جانب واف من التأهب ، وأن الأسطول يحتاج إلى تسعة أشهر قبل أن يبلغ أقصى قوته . وتسرَّبت هذه الحقائق ، فكانت أكبر تهمة وُجِّهت إلى روزڤلت فى حياته السياسية فيما بعد ، أنه خاب فى أهمِّ ما يجب عليه نحو قومه عند ما كان وكيلاً لوزارة البحرية ، إذ قصَّر ، عن قصد أو عن جهل ، فى إعداد الأسطول الأميركى . ولكن ولاءه لولسن ولذكراه حال دون إذاعة التفسير المستخرج من الحادثة السابقة ، ولم يفض به إلاّ لإميل لدڤج — على قول لدڤج — فى سنة ١٩٣٨ أو قبيلها .

ولعل العناية الكبيرة التى وجهها روزڤلت إلى تعزيز الأسطول وطلبه المبالغ الطائلة

من الكونغرس خلال السنة السابقة لنشوب الحرب العالمية الثانية وفى سنتها الأولى والسنوات التى تلتها ، مردُّ بعضه على الأقل إلى ما انطبع فى ذهنه من ذكرى تلك المحادثة مع ولسن فى سنة ١٩١٦ . فروزفلت لا يستخف بالمؤرخ ، ولكنه يفضِّل مواجهة الحقائق الأليمة على أحكام المؤرخين ، ومن المرجح الذى فى مرتبة اليقين أن حكم التاريخ سيكون « أن روزفلت أحسن فيما فعل » .

لم تكد تنقضى أشهر على دخول الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى حتى قرر روزفلت التطوع للقتال . فقد كان فى عنفوان شبابه وكان بَرِماً بعمل يقضيه فى مكتب أمين مهما يكن خطير الشأن ، بينما ألوف من الشبان يغامرون بحياتهم فى خطوط القتال . ويجب أن يضاف إلى هذا الباعث ، باعث آخر ، وهو أن روزفلت على رغم ارتفاع منزلته السياسية ، كان لا يزال متأثراً بصيت نسيبه ثيودور . ومن المشهور أن ثيودور تطوع أو رغب فى التطوع ، حالما أعلنت أميركا الحرب ، مع أنه كان فى الستين ، وقد أكبرت الأمة والحكومة هذا النبل ، ولكن أبت أن تعرضه لخطر قيادة فرقة . وما لبث أبناء ثيودور حتى كانوا فى صفوف القتال فى فرنسا ، وبعد قليل قتل أحدهم . فلا غرو فى أن تؤثر جميع هذه الحقائق فى فرنكلن روزفلت الجالس وراء مكتبه بعيداً ألوفاً من الأميال عن ساحات النضال .

ولكن دانيلز أبى أن يسمع مقترحاً من هذا القبيل ، وقد كان مقتنعاً بأن روزفلت أقدر على إسداء الخدمة إلى قوات أميركا المسلحة فى وشنطن منه فى فرنسا أو فى سفينة محاربة . فكأن والده الذى منعه من التطوع قبلا فى الحرب الأميركية الأسبانية تجسم فى وزيره ، فحال دون اشتراكه فى الحرب العالمية الأولى اشتراكاً فعالاً . ولكنَّ الوزير قبل بعد لأْيٍ أن يوفده فى رحلة إلى منطقة الحرب فى أوربا لتفتيش المنشآت البحرية فيها . وقد فتش روزفلت فى خلال هذه الرحلة نحو خمسين محطة وقاعدة بحرية أميركية من كورفو فى البحر المتوسط إلى الجزائر الخالدات (أزورس) فى المحيط

الأطلسى إلى جزائر أوركنى فى الشمال من سكتلندا . ويقال إنه لم يقض ، خلال الرحلة ، ليلتين متواليتين فى مكان واحد .

ومما يروى أنه زار الملك جورج الخامس ، ولكنه أسف لأنه لم يجد متسعاً من الوقت لدراسة الصور والنماذج البحرية التى فى الحجرة المجاورة لحجرة المقابلة الملكية . ويقال إنه أُرسل فى مهمة إلى روما لحثّ الحكومة الإيطالية على الخروج عن تحفظها فى بعض المسائل الحربية ، وحضر — على ما روى هو لإميل لدفج — اجتماعاً عقدته الوزارة الإيطالية فقال للوزراء : يا أسياد إن أسطولكم لم يخرج من مرفإ تارنتو مدى سنة كاملة . فرد أورلندو : ليس فى هذا مأخذ علينا ، فالنمسويون لم يحركوا ساكناً طول هذه الفترة .

وفى باريس قابله كليمنصو فى أحد الأيام وباداه بالتعنيف قائلاً : إنك كدت تقلب الوزارة ، وتخسر الحرب ! نعم . إنك أبلغت الصحفيين أنه جرت عادتكم فى أميركا بعقد مؤتمرات صحفية مرتين كل يوم ، وكتّابنا يطالبوننى الآن بحديثين كل يوم !

فى أثناء هذه الرحلة عزم عزماً قاطعاً على الاستقالة عند عودته ، والانتقال الى القوات المحاربة . ولكنه عندما عاد الى نيويورك حمل رأساً الى المستشفى . ففى اليوم السابق لوصول السفينة التى كانت تقله تلقت وزارة البحرية برقية بأن فرنكلن روزفلت مصاب بذات الرئة ، وأن الطبيب يأمر بإرسال سيارة خاصة لنقله الى المستشفى ، ولكن المسز روزفلت تروى أن إصابته كانت بالانفلونزا ، وكانت إصابة شديدة ، ولم يبل منها إلا فى اكتوبر ، فعاد حينئذ الى واشنطن ليقدم تقريره الرسمى عن رحلته ، ولم يكد ينجز ذلك حتى كانت الحرب قد انتهت والهدنة قد عقدت فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

— ٥ —

وذهب روزڤلت ثانية الى فرنسا فى أثناء التئام مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يكن عضواً فى الوفد الأميركى ، ولا خبيراً ملحقاً به . بل كانت مهمته الإشراف على التصرف فى منشآت الأسطول الأميركى فى فرنسا ، وكانت تشمل محطة لاسلكية كبيرة ، كانت تعد بين كبرى المحطات اللاسلكية فى العالم ، وخمساً وأربعين قاعدة بحرية ، ومبانى ومخازن وآلات لا تحصى ، ومقادير وافرة من الذخيرة والسلاح . وكان عليه أن يحكم فى ما يصلح منها لنقله الى أميركا ، وما يجوز بيعه أو توزيعه . وهذا العمل استغرق أشهراً كثيرة من المفاوضة والمحاسبة ، فلم تتح له فرصة وافية لتتبع مجارى الأمور عند منابعها . ولكنه عاد فى شهر فبراير سنة ١٩١٩ — وكانت قرينته معه — على السفينة « چورچ وشنطن » التى أقلت الرئيس ولسن الى الولايات المتحدة ، لكى يخوض معركته الأخيرة فى سبيل العصبة . فأتيح لروزڤلت أن يرى الرئيس ويجتمع به كثيراً . ونبهه أحدهم الى المائدة التى كتب عليها ولسن النصوص الأولى لميثاق العصبة ، والكرسى الذى جلس فيه عند الكتابة . فاقتنى بعد ذلك روزڤلت المائدة والكرسى ، وهو يعدهما من أعز مقتنياته عليه ، ويستعمل الكرسى فى مكتبه بداره فى هيد بارك .

وانقضت عشرون سنة لم يرَ المؤرخون خلالها ما يحملهم على عدّ هذه الاجتماعات بين ولسن وروزڤلت ، شيئاً مذكوراً . ولكن عند ما دار التاريخ دورته ونشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ووافق نشوبها تربُّع روزڤلت فى مقعد الرآسة أصبح لما طبع فى ذاكرة روزڤلت وما جناه من عبرةٍ وحكمة ، فى تلك الاجتماعات منزلة عظيمة . لأن الكتاب فى سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يخطر لهم أن جيلاً تالياً سيجىء فتفتنه المبادىء التى فتن ولسن بها العالم ، ويقرر أن لا خلاص للعالم إلاّ

بتطبيقها تطبيقاً عملياً ناجحاً . ولـكننا نعلم الآن أن ولسن الشيخ كان يواجه عندئذ شاباً أعدته العناية لـكى يخلفه فى منصبه العظيم ، بل ولـكى يخلفه فى تحمل مثل التبعات الجسام التى تحملها هو .

أما ما كانت الخواطر التى خطرت لروزفلت حينئذٍ فلا يدريها إلاّ الرئيس وحده . وليس بالمرجح أنه استكشف بفكره المستقبل حينئذ ، واستشرف الأفق الدولى الى أن بلغ فى استشرافه سنة ١٩٤١ لأنه ليس متكهناً . ولـكن الشاب فى هذه الاجتماعات كان حتماً مدركاً أن الأمور ليست سائرة على مايرام . وليس بين ساسة أميركا الأذكياء من كان يجهل مغزى الخذلان الذى أصيب به الحزب الدمقراطى فى الانتخابات النيابية (نوفمبر ١٩١٨) إذ أصبحت الأكثرية فى مجلس النواب للجمهوريين ، أى للمعارضة .

فى ذلك الانتخاب ، بدأ الارتداد الأميركى من چنيف ، وما حف به ، ولزم عنه من كوارث عالمية . وليس لنا أن نفرض أن الشاب نفذ الى روح الشيخ ، وفهمه ، وتأثر به . ولعله لا يزال حتى الآن عاجزاً عن التأثر بتلك الصوفية التى كانت عنصر القوة والضعف فى شخصية ولسن . ولـكن لنا أن نفرض أن روزفلت خرج من هذه الأحاديث بفهم صحيح للشأن العظيم الذى يمثله العمل المشترك بين الدول الحرة فى منع الحروب المقبلة وهو ما درجنا على وصفه فى عهدنا بلفظى « السلامة المشتركة » . وخطبه — أى خطب روزفلت — فى معركة انتخابات الرآسة (سنة ١٩٢٠) دليل على صحة هذا الفرض . ومن أقواله فيها : « ليس المقام الأول لتشريح الوثيقة — أى ميثاق العصبة — ولـكن المقام الأول إنما هو للموافقة على قواعد الخطة العامة » . وقوله كذلك : « إن البراهين التى تساق لمعارضة عصبة الأمم سيقت قبلاً لمعارضة الاتفاق الدستورى[1] وقد أثبت الزمن أن هذه الوثيقة كانت باعثة على الرضى التام » . ومن

(١) الدستور الأميركى .

أقواله « إذا لم تشترك الولايات المتحدة فى العصبة ، فالعصبة تصبح عندئذ تحالفاً أوربيًّا . وإذا اشتركنا فيها ، فإننى لواثقٌ بأن العصبة لن تطلب من الولايات المتحدة شيئاً لا ترتضيه . والعصبة ليست شيئاً كاملاً ، وهى رهن الروح الذى تقبلها به الولاياتُ المتحدة الأميركية . فنجاحها وخيبتها مرتبطان بموقفنا منها . . . قد لا تضع العصبة حدًّا للحرب على طول المدى ، ولكن الأمم تطلب أن يبذل هذا السعى » .

ولكن مناشدة عقول الناس فى وقت طغى فيه الانفعال والشهوة السياسية على نور العقل ، كان عبثاً . فالارتداد الأميركى من جنيف كان قد أصبح فراراً ، وروزڤلت حمله التيّار ، كما حمل غيره ، وقذفه كسيراً كقطعة من الخشب على الشاطىء .

واقترب انتخاب الرآسة فى سنة ١٩٢٠ فرغب الساسة الدمقراطيون الذين يدركون الواقع ويرغبون فى مجاراته ، فى الابتعاد عن ولسن وسياسته ليقينهم أن لا أمل لهم فى النجاح إلاّ فى هذا الابتعاد . فاختاروا مرشح الحزب للرآسة رجلاً بعيداً عن دائرة ولسن . وكان ذلك المرشح جيمز كوكس حاكم ولاية أوهايو . ولكيلا يظن الناس أنهم متنكرون التنكر التام لولسن أرادوا مرشحاً لوكالة الرآسة ، قريباً من الرئيس المريض . فاختير فرنكلن روزڤلت . فقد كان من نيويورك ، ولولاية نيويورك وزنٌ عظيم فى ميزان الانتخاب ، وهو علاوة على ذلك سياسىٌّ بارع ، وخطيب مفوَّه . وظنوا أن هذا الجمع بين كوكس وروزڤلت ، يرضى مقتضيات السياسة ، وذلك الفريقُ من الشعب الأميركى الذى كان مؤمناً بولسن وسياسته .

وعندئذٍ حدث ما يقلب نظريات الساسة رأساً على عقب . فقد كان كوكس وروزڤلت مرشحى الحزب للرآسة والوكالة . وكانت مهمتهما أن يكسبا الانتخاب ، والانتخاب لا يكسب إذا جعل المرشح مدار انتخابه على قضية لا يؤيدها الجمهور الأكبر من الناخبين . وكانا يعلمان أن تأييد عصبة الامم ينفِّر الناخبين منهما ، ولا يحملهم

على الإقبال على تأييدهما ، وكانا يعلمان كذلك أنهما يستطيعان أن يداورا فيتجنبا العصبة بغير أن يتنكرا لها . فلا غرو إذا ترددا فى خير الخطط التى يجريان عليها فى الانتخاب . وكانا لا يزالان مترددين عند ما ذهبا معاً إلى وشنطن لزيارة الرئيس الكسيح زيارة مجاملة . وبعد ما لبثا فى حضرته فترة ما همَّا بالانصراف ، فوقف كوكس أمام الشبح المقعد وقفة احترام ، وقال :

يا جناب الرئيس : لقد كنت معجباً ، عظيم الإعجاب بنضالك فى سبيل عصبة الأمم .

فاستوى الجسم المتهدم وقدحت عيناه شرراً ، كالشرر الأخير الذى تنثره نارٌ خابيـة ، ورنَّ صوته رنَّةً أعادت إلى ذهن الزائرين صورة ولسن فى أيام عظمته . وقال :

« يا مستر كوكس لا يزال فى وسعنا أن نكسب النضال »

ويقول روزڤلت إن الدموع طفرت إلى عينىْ كوكس ، ولكن لا يعلم هل أجاب ، وبماذا أجاب . ولما خرجا عرف كلٌّ منهما ما يدور فى خَلَد صاحبه ، وإذا كوكس يقول :

« روزڤلت . . لنجعلْ العصبة مدار معركتنا » .

وقد فعلا وخسرا الانتخاب . وإذا قيس قرارهما هذا بمقياس السياسة العملية ، كان حمقاً ما بعده حمق ، وهذا كان رأى أصدقائهما بين أقطاب الحزب . ولـكن المرجح أن الفوز فى الانتخاب كان آيلاً إلى الحزب الجمهورى على كل حال مهما يفعل كوكس وروزڤلت . فالبلاد الأميركية كانت مسوقة بقوة غريبة إلى عهد هاردنغ وما سرى فيه من فساد .

إلاّ أن روزڤلت كافح فى سبيل العصبة ، عالماً أنه مخفق ، وأن اختيارها مداراً لحملة

الانتخاب كان سياسة خاطئة ، ولـكنه كان مع ذلك يعلم فى قرارة نفسه ، أن هذا الاختيار كان صواباً . وانقضت سنون قبلما أُثيب على ما فعل . وها هو ذا الآن وقد انقضت اثنتان وعشرون سنة على خسارته المرحلة الأولى من المعركة ، وإذا ذلك الشرُّ الذى حاول ولسن جهده أن يحول دونه ، قد انطلق ثانية على العالم ، وإذا الرجل الذى كافح فى سبيل العصبة ، أو فكرتها ، عند ما كان الكفاح انتحاراً سياسيًّا ، جالسٌ فى مقعد ولسن ، يواجه أُمةً تعلم أنه بذل قبلاً غاية الجهد ، لترويض هذا الشرِّ ، ففى وسعه أن يطلب إليها أن تثق بهِ بأنه سيبذل الجهد ، مرةً أخرى ، لغلبته الآن .

الفصل الثالث

طريق البيت الابيض

١ — المرض امتحان . . .

٢ — المرض فرصة . . .

٣ — عودته السياسية

٤ — حاكم مصلح

٥ — أهل الفكر

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

إن المرض امتحان ، فإذا كان حاداً ، كان امتحاناً لقوة الجسم ولعلم الطبيب فى المقام الأول ، و إذا كان مستعصياً ، كان امتحاناً ، على الأكثر ، لقوّة الخُلُق وشدّة المراس وصلابة العزم . و إذا كان المريض رجلاً فى عنفوان رجولته ، مُدِلاً بعافيته ووسامته ، مزدهياً بالنشأة الكريمة التى نشأها ، والمناصب العالية التى تولاّها ، منساقاً مع الآمال العظيمة التى عُقدت عليه وفتحت أبوابها أمامه ، وأُصيب بما يقعده عن الرياضة التى يهواها ، وحُذف أسمه من سفر الرجال الذين أعدّتهم الطبيعة للمستقبل ، فالإصابة محنةٌ لا يغلبها إلاّ قويُّ الشكيمة من الرجال ، والقُعود هزيمةٌ يسهل معها الاستسلام الى جور القَدَر ، ولا يجوز واديَها المظلم ، الى سهول الظفر المشرقة ، إلاّ من وجد فى نفسه نبعاً من القوة لا يغيض . فإذا لم يكن هذا النبع هناك ، فلا سهر الزوج ولا محبتها ، ولا عناية الأصدقاء ولا عطفهم ، تجدى .

وقد امتحن روزڤلت هذا الامتحان فلم يخفق ، ووُزِن بهذا الميزان فلم يكُ ناقصاً ، وجاز وادى ظلّ الهزيمة ، معتصماً بنفسه ، فإذا هو بعد اجتيازه ، أكمل رجولةً مما كان ، وأدقّ اتّزاناً فى قواه العقلية والخلقية جميعاً ، وأدنى الى الحكمة .

كان روزڤلت قد قضى عشر سنوات فى مضمار الخدمة العامة ، بدأها فى «آلبنى» عضواً فى مجلس الشيوخ ، وأستأنفها فى « وشنطن » وكيلاً للبحرية ، وختمها مرشحاً عن الحزب الدمقراطى لوكالة الرآسة ، فخُذِل مع كوكس مرشح الرآسة ، فى انتخاب سنة ١٩٢٠ ، فعاد الى مضمار الأعمال الخاصة ، فاختير مديراً لشركة تأمين كبيرة ، وكان مرتبه يفوق كل مرتب آخر جناه فى كلّ عمل سابق . وكان الطريق أمامه ممهداً الى حياة ينعم فيها بكل ما تعوّده فى شبابهِ من رخاء ورياضة واجتماع .

ولكن القَدَر كان يخبىء له الامتحان ، لأنه كان يُعِدُّه لساعةٍ من أقتم الساعات فى التاريخ الأميركى ، ثم فى تاريخ الحضارة . وكان مستهلُّ الامتحان رحلةً مع نفر من الصحب ، غرضها النزهة والمتعة . فكان طبيعيًّا أن يدعو رئيس مجلس الإدارة فى شركة التأمين زميله المديرَ الجديد ، الى رحلة على يخته فى شهر أغسطس من سنة ١٩٢١ فى المياه التى تغسل سواحل ولاية نيو يورك . وكان طبيعيًّا أن يطلب روزڤلت الى مضيفه أن يوجِّه يخته صوب كامپو بلّو حيث كان روزڤلت يقضى أيام الصيف مع أسرته ، فى عهد الحداثة ، فأَضْفَتْ عليها ذكريات الصبا غلالة من الجمال شفافة . وأُتيح لروزڤلت أن يدير دفّة اليخت فى تلك المياه كما كان يفعل فى صباه ، فكانت فرحتهُ لا تُحَدُّ ، لأن فى هذا العمل تجديداً و بعثاً لأفراح الحداثة . وما كاد اليخت يصل الى مرساه ، حتى أعدَّ روزڤلت معدّات الصيد ، وهو يكاد يقفز غبطة ، ولكن قدمه زلَّت وسقط فى الماء . قال ما ملخصه :

« لم أُحسَّ فى حياتى ماءً أبرد من ذلك الماء ، ولم أكد أغطس حتى شعرت بأن برد الماء كافٍ لتخدير الأطراف ، مع أننى كنت لا أزال ممسكاً باليخت بإحدى يدىَّ ورأسى لم يبتلّ . ولعلّ هذا الشعور كان مردُّه الى الفرق بين بَرْدِ الماء ، على هذه السواحل ، و بين حرِّ اليخت الناشىء عن نار المحرك ، وأشعة شمس أغسطس المنصبَّة عليه . ونزلنا الى برِّ الجزيرة فى اليوم التالى ، وكان يملأ جوَّها روح شجر التنّوب وهو يحترق . ففى إحدى الغابات نار تلتهم . فقضينا النهار نكافح النار ، فدمعت عيوننا بفعل الدخان ، وعلانا القذر من الرأس إلى الاخمصين ، ولذعتنا الحروق والنفط الناشئة عن الشرر المتطاير ، وأعيانا الكفاح فغطسنا فى بركة ماء عذب فى الجزيرة لنُصيبَ فيها قسطاً من الابتراد والإنعاش ، ثم عَدَوْنا إلى الدار ، ونحن فى ملابس الحمّام ، على طرق يكثر فيها الغبار و يشتدُّ الهجير . فلم أشعر برَدِّ الفعل الذى يتلو عادةً رياضة من هذا القبيل ، وأخذتنى ، وأنا داخل الدار ، قشعريرة

لم أستطع التغلب عليها . وفى الدار وجدت رسائل وصحفاً ، فجلست أقرأ ، وليس بى همةٌ لارتداء الملابس للعشاء . إننى لم أشعر فى حياتى مثل هذا الشعور . وفى الصباح عند ما حاولت النزول من سريرى ، لم تَنْقَدْ فخذى اليسرى للعادة والرغبة ، ولكنى تمكَّنت بشىء من الجهد ، أن أتحرك وأن أغسل وأحلق . وحاولت أن أُقنع نفسى بأن التعب عضلىٌّ ، وأنه ذاهبٌ لا ريب . ولكن فخذى اليسرى لم تلبث حتى تيبَّست ، ثم تبعتها الأخرى » .

هذا ملخص ما يرويه روزڤلت عن بدء مرضه .

و بعد ثلاثة أيام عُرِفتْ الحقيقة ، وهى أن روزڤلت مصابٌ « بشلل الأطفال » وكان وَبَأُه ، حينئذٍ ، فاشياً فى نيويورك .

و إذنْ هنا رجلٌ فى الأربعين من عمره ، صحيح الجسم ، تتدفق العافية من نظرته وتنساب فى مشيته ، تحيط به جميع أسباب الرغد والعيش الرضىّ والنجاح الدنيوىّ ، و إذا اليد القاسية تهوى عليه ، فى الجزيرة التى عرف فيها أولاً متاع الصبا ، و إذا جسمه من الوسط إلى الاخمصين مشلول . فهل فى خُلُقه القوة الكافية لاجتياز هذا الامتحان والتغلب على المحنة الكبيرة الاولى التى مُنِىَ بها فى حياته ؟

إن شلل الأطفال[1] مرضٌ غريب ، وصفه معجم دورلند الطبى بأنه التهاب المادة السنجابية فى النخاع الشوكى . وهو يصيب الأطفال على الغالب فى عهد السنتين الأوليين ، ولكنه لا يقتصر عليهم . وقد يحدث فجأة ، ويغلب أن تصحبه حمّى وشلل فى عضلات الحركة ، وحؤول فى طوائف من العضلات ينتهى إلى التقلص والتشويه الدائم . وهذا الوصف ينطبق — بحسب دورلند — على أعمِّ أنواعه .

وقد تفضَّل طبيبٌ مشهور[2] بوصفه لكاتب هذه السطور كما يلى :

---

(١) Poliomyelitis, Infantile Paralysis

(٢) الدكتور حسن كمال

يحدث هذا المرض من مِكْروب غير مرئى ، يصيب الجهاز العصبىَّ الرئيسىَّ بالجسم ، ودَوْرُ حضانته سبعة أيام عادة ، ثم تظهر أعراض المرض فجأة ، بحمَّى وضعف وصداع وتلبُّك فى المعدة والأمعاء مدَّة يومين أو ثلاثة أيام ، ويعقب ذلك أعراض إصابة المخ والنخاع الشوكى من ارتعاش عضلى ، وفَقْد التوازن عند الحركة ، وتيبُّس العنق والعامود الفقرىِّ ، وازدواج النظر والحَوَل ، ثم تبدو أعراض الشلل الارتخائى المميِّز للمرض .

وليست جميع الحالات شديدة الوطأة . فهناك حالات حِدَّتها خفيفة ، ومُدَّتُها قصيرة ، وقد لا تصحبها أعراض عصبية ، فيصعب تشخيصها ، إلاّ إذا كانت فى زمن وباء متفشٍ . وهى عامل خطير الشأن فى تيسير نشره بين الجمهور .

والتلف الجسمانى الناشئ عن هذا المِكْروب يتركَّز فى الخلايا العصبية فى الحبل الشوكى وفى القسم الأمامى منه ، وفى الجزء السفلى من المخ ، وتحدث الوفاة عادةً عند ما تصاب عضلات التنفس بالشلل . وقد نجح زنسر Zinsser فى نقل المرض إلى القِرَدة . والأطفال أكثر تعرُّضاً للإصابة به من البالغين . وقد تحدث الإصابة فى كل سنّ .

والمرض ينتقل على الأكثر بالرذاذ من المريض أو حامل المرض إلى السليم ، فيدخل الجسم عن طريق الأنف والبلعوم . وقد تجمَّعت الأدلّةُ أخيراً على أن المِكْروب ينتقل إلى المخ بطريق عَصَب الشمّ ، كما تجمَّعت أدلةٌ أخرى على أن العدوى قد تنشأ من تعاطى غذاء لبنى موبوء .

ومِكْروب المرض ، على الرغم من صغر حجمه وتعذُّر رؤيته بالمجهر ، قد استُنبِت بالطرق الخاصة ، واتضح من ذلك أنه يعيش مدة طويلة فى الجفاف أو فى الماء أو اللبن . ومن غريب ما ظهر أخيراً أن يونغبلات بيَّن فى سنة ١٩٣٥ أن ڤيتامين C يلطِّف ضرر المِكروب وقد يمنع الإصابة به . واتضح كذلك أن الإصابة بالمرض

تحصّن المصاب ضدّه مدى الحياة . وأن السائل الدموى (المصل) المأخوذ من أناس سبقت إصابتهم بالمرض ثم أبلّوا يحوى موادّ شافية . والبالغون أقدر على مقاومة المرض من الأطفال . وقد جُرِّبت أخيراً طريقة المعالجة بالمصل المأخوذ ممن سبقت إصابتهم ، وذلك عن طريق الحقن فى الوريد أو العضل أو النخاع . ولا تزال النتائج القاطعة رهن الفحص والتحقيق . . . اهـ

كانت معظم الحقائق المعروفة الآن عن هذا المرض غير معروفة قبل عشرين سنة من الزمان . وكان أسلوب المعالجة المتّبع حينئذ بعد اجتياز فترة الإصابة الحادة غيره الآن ، وربما كان على النقيض منه . وكانت نتائج العلاج لا تبعث على الاطمئنان إلى الشفاء فى كثير من الحالات . فالاعتماد على ما كان يعرفه الطبُّ عن هذا المرض فى سنة ١٩٢١ كان يفضى إلى القول باحتمال بقاء روزڤلت مُقْعَداً إلى أن تدركه الوفاة ، وإذا أُتيح له أن ينزل من سريره ، فإلى كرسىّ مُقعدٍ يدرج على عجلات . وكان معروفاً أن بعض الذين أُصيبوا إصابات خفيفة تمكّنوا من استرداد القدرة على تحريك أطرافهم ، ولكن معظمهم كان من الأطفال ، وكان فى وسعهم أن يتحملوا أسلوباً شاقّاً من العلاج يستغرق سنين لأن مشيئة والديهم كانت تُفرض عليهم فرضاً ، فهم مكرهون وليسوا بأبطال . وكان من النادر بين الكبار الذين أُصيبوا به ، مَن تجتمع فيه صفات الشجاعة التى لا تُحَدُّ ، والعزم الذى لا يفلُّ ، والصبر الذى لا ينفد ، لمتابعة العلاج . ولذلك قلَّ مَنْ شُفى بين الكبار الذى أُصيبوا .

وكان زملاء روزڤلت السياسيون يعلمون هذه الحقائق ، أو بعضها ، عندما انتهت إليهم أنباء إصابته ، فمحوا اسمه من كشف الأسماء التى تعلق بأصحابها آمال كبيرة ، فى حلبة السياسة . ولعلهم زفروا متأوّهين وهم يقولون : ما أفجع المنتهى لهذه السيرة السياسية الباهرة ! انتهى الفصل فلنقلبْ صفحة جديدة !

ولكن رجلاً واحداً لم يقل هذا القول ، على الرغم من حزنه العميق . كان هذا

الرجل صحفيًا مخضرماً عند ما نشب النزاع بين روزڤلت ومورفى على ترشيح شيهن لمجلس الشيوخ فى وشنطن سنة ١٩١١ . ففتنه ما تبيَّنه فى هذا الشاب الارستقراطى من حِسٍّ سياسى مرهف ، وصلابة عزم لا تفل . ولسنا نعلم متى أدرك هذا الرجل أن فى بُرْدَىْ روزڤلت رجلاً يصح أن تناط به الآمال ، ولكننا نعلم أن آصرة الصداقة بينهما توثقت فى آلبنى ، فلما ذهب روزڤلت إلى وشنطن أخذ صاحبه معه سكرتيراً له فى وزارة البحرية .

كان هذا الرجل لويس ما كهنرى هَاوْ .

فلما اعتزل روزڤلت العمل فى وزارة البحرية بوشنطن ، تخلف « هَاوْ » عنه لتسوية طائفة من الأعمال التى تركت معلقة فى أثناء معركة الانتخاب ، ثم استقال من وزارة البحرية ، وقلد منصباً فى شركة تجارية ، فبدا أن الطريقين اللذين التقيا فى آلبنى وامتدا متحاذيين إلى وشنطن ، افترقا فى نيويورك . جمعت بينهما السياسة ، وفرّقت بينهما الأعمال .

وما كاد « هاو » يعلم بإصابة روزڤلت حتى هرع إلى جزيرة كامپو بلّو ، وما كاد يدرك خطر العلة ، حتى تخلى بغير تردد عن عمله ببرقية أرسلها إلى رئيسه .

فى تلك اللحظة قرر هاو أن يكون لصديقه المقعد ، العينين اللتين تريان ، والفخذين اللتين تسعيان ، والأذنين اللتين تسمعان . وما كان له أن يعلم أن الأمد سيمتدُّ به و بصديقه خمس عشرة سنة أخرى يلازمه فيها عليلاً ، وحاكماً لولاية نيويورك ، ورئيساً للولايات المتحدة . ولكنه عندما توفى فى سنة ١٩٣٦ كان لايزال فى خدمة روزڤلت وكان مقره فى البيت الأبيض .

إن كثيرين من الذين عرفوا هَاوْ لم يميلوا إليه . فسحنته كانت أشبه بسحنة راكب جياد السباق بعد أن يجفوه الشباب . وغير قليل من أصدقاء روزڤلت وخصومه ، كانوا يردون إليه كل خطإ فى أعمال الحاكم ، ولا سيما فى أعمال الرئيس .

ولا ريب فى أن هاو كان كسائر الناس غير منزه عن الكمال . ولكنَّ فى إقباله على روزڤلت ، وهو فى هذه المحنة سِمَة من سمات العظمة النفسية . فليس بالمستغرب أن ينوط رجل ما مركبته بنجم طالع[1] فى سماء السياسة . ولكن لوناً من ألوان العظمة الحقيقية وحده يدفع رجلاً إلى أن يلزم سياسيًّا فى ساعة محنةٍ لايبدو ، ولا على الأفق البعيد ، وجهُ اجتيازها .

وقد يكون من العبث ، فى هذه الترجمة القصيرة ، أن نعنى بتفصيل الحوادث الخاصة بمرض روزڤلت ، وبجهاده فى سبيل الشفاء . وحسبنا للدلالة على الروح الذى واجه به محنته قوله : « إنه لمن السخف أن تقولوا لى إن رجلاً لا يستطيع أن يقهر مرض أطفال » وقوله لزوجته : « إننى سأقهر هذا الشىء » ، وقد قضى روزڤلت معظم السنوات السبع التالية من حياته فى تحقيق هذا العهد الذى أخذ نفسه به .

ولكن إذا كان المقام لا يتسع لتفصيل هذا الكفاح ، فإننا لا نستطيع أن نمرَّ بالآثار التى تركها هذا الكفاح فى عقل الرجل وخُلُقه مرَّ الكرام . لأن فى هذه الآثار « مفتاح » روزڤلت الرئيس الذى فرض نفسه فرضاً عل وَعْى الأمة الأمريكية ، ثم على وعى العالم . فروزڤلت « التوزيع الجديد » وروزڤلت « الحريات الأربع » استكمل تكوينه الخلقى والذهنى فى سنى هذا الكفاح .

بعد سنوات من الكفاح ضد المرض استرد روزڤلت قدرته على استعمال ذراعيه ، و بعض قدرته على استعمال فخذيه مستعيناً بعكازين . وكان من أثر النظام الصحى الذى جرى عليه ، وساعات لا تعد قضاها فى السباحة ، أن اتسعت كتفاه ، وقويت

---

(١) أصل التعبير لامرسن « نط مركبتك بنجم » Hitch your wagon to a star
ومؤداه أعرب عنه المتنبى فى قوله :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

عضلاتهما . فأصبح مشهده مشهد ملاكم كبير ، إذا قصِر النظر على النصف الأعلى من جسمه . وهذه العافية مكَّنته من خوض ثلاث معارك لانتخاب الرآسة ، وخوضُ معركة واحدة ، كافٍ لإنهاك أصحِّ الناس بدناً .

على أن العافية البدنية لم تكن كلَّ ما كسبه فى الكفاح ، ولا أهمَّ شىء كسبه ، بل الكفاح نفسه ، هو الذى جعله أحد الناس .

تأمَّلْ سيرته إلى أن أقعده الشلل . كانت نشأته كما قلنا أميركية فى صميمها . ولكن هذه النشأة كانت تختلف عن نشأة المتوسط من الأميركيين . ولعلَّ تحدُّره من أُسرة على جانب من الثراء ، كان الفارق بينه وبين الصبىّ الأميركى المتوسط . ولكنه لم يكن الفارق كلَّ الفارق . ولعلَّ هذا الفارق يرجع كذلك إلى أنه ينتمى إلى أُسرة اشتهرت فى تاريخ أميركا ، وأضفى عليها ثيودور روزفلت ألقةً خاصة . أو إلى أصدقائه الكثار ، أو إلى قدرته على توثيق أواصر الصداقة مع الناس والتقرُّب إليهم ، أو إلى مواهبه العقلية الممتازة . كلُّ ذلك أقام فارقاً بينه وبين الأميركى المتوسط . ولكن الفارق الأصيل الذى ميَّزه عن جمهور الناس من الأمة الأميركية ، كان شيئاً آخر. ذلك أن حياة فرنكلن روزفلت خلال تسع وثلاثين سنة ، لم تغْشَها كدرةٌ ما . ومَنْ يقال هذا القول فيه ، مميَّزٌ حتماً عن خلق الله . قد يكون ألمعيًّا ، أو قد يكون عبقريًّا ، أو قد يكون عضواً مفيداً فى المجتمع ، ولكنه ليس واحداً من الناس . فالناس لايفهمونه تماماً ، وليس ثمَّة ما يستطيع ، أو مَن يستطيع إقناعهم ، بأنه يفهمهم . ويندر بين الرجال والنساء من يبلغ الأربعين من العمر بغير أن يواجه معضلة من معضلات الحياة . قد تكون واحدة من معضلات كثيرة ، مردُّها إلى الفاقة والعوز أو إلى فقد حبيبٍ أو عزيز ، أو إلى الشعور بالخيبة فى الحياة . تتعدد الأسباب ، ولكن النتيجة واحدة . وسِماتها انهيار الأمل ، أو سقوط الإيمان معفَّراً فى أنقاض المطامح ، أو الإحساس بأن القوة تحوَّلت ضعفاً وعجزاً ، أو أن الكبرياء انقلبت يأساً

وقنوطاً . ومتى شرب امرؤٌ من هذه المياه المرَّة ، أحسَّ فى قرارة نفسه ، أن كل مَنْ لم يشرب منها إنما هو غريب عنه ، وأن الصلة — صلة التعاطف والتفاهم — بينهما مبتوتة .

ولكن روزڤلت شرب من هذه المياه بين سنتى ١٩٢١و١٩٢٧ وشرب أكثر مما يقسم شربه المتوسط من الناس . لم تهدِّده الفاقة فى يوم من أيامه ، ولكن المستعطى أغنى من غنيٍّ لا يستطيع أن يأمرَ فخذيه . ولم يذُقْ طعم الهزيمة الصحيحة — (إن خذلانه فى ترشيح نفسه ضدَّ جيرار سنة ١٩١٤ ثم فى انتخاب الرآسة سنة ١٩٢٠ عند ما كان مرشحاً للوكالة لا يعدّان هزيمة ، بل إن الخذلان الثانى قد يعدُّ فى معنى خاص نصراً أدبيًّا) — ولكن هذا المرض هزمه وألقاه أرضاً . ولم يكن روزڤلت يعرف فى حياته الخاصة والعامة معنى الجور ، فالأبواب أمامه مفتّحة ، وقسطه من نِعَم الدنيا غير يسير ، ولكن هل ثمَّة جور أعظم من هذه المصيبة التى نزلت به ؟ ولم يذق روزڤلت طعم الألم ، ولكنه شرب الآن من كأسه حتى الثمالة . كان قبلاً رياضيًّا يمتطى صهوة الجياد ، ويدير دفّة المراكب ، وكان يُدِلُّ بقوَّته و براعته ، ولكنه الآن كسيح مقعد . كان صحابُه بين المميّزين من أبناء الأرض ، أما صحابه الآن ، فالمحرومون والمصابون . كان قد تعوَّد الاحترام الواجب لمنزلته الاجتماعية والسياسية ، ولكنه الآن يحسُّ مرارة رَمْقِهِ بعين الإشفاق .

كلُّ هذا أنشأَ بينه و بين الجمهور الكبير من الأمة الأميركية صلة لا تنفصم ، وتعاطفاً لا تخمد حرارته .

وجاءه يوماً من سمع بأن فى ولاية جورجيا ينابيع ماء دافئ ، وأن السباحة فيه تعينه على إلانة ما تيبس من عضلاته ، فأخذ يختلف إليها ويتروَّض فيها . وكشفه صحفىٌّ هناك ، وهو يسبح فى بركة يصبُّ فيها هذا الماء الدافئ ، فكتب مقالاً فى صحيفته ، فسخط روزڤلت لأنه كان يفضِّل أن يداوى « جراحه » بعيداً عن أعين

الناس . ولـكن المقال حمل كثيرين من المصابين بشلل الأطفال على الوفود إلى « ينابيع جورجيا الدافئة » ، وعندئذ تحوّل روزڤلت من السخط إلى الرضا ، بل وأنفق نصف ثروته الخاصة فى ابتياع الأرض ، وإنشاء المنشآت اللازمة لعلاج المصابين . ووقف عليها مالاً لإدارتها ، وكأنه ذكر ما جاء فى الإنجيل : « قال له يسوع إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبِعْ أملاكك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنزٌ فى السماء ، وتعالى اتبعنى . فلما سمع الشابُّ الـكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة » . ولـكن روزڤلت أعطى ، وبالعطاء أخذ من الحياة شيئاً كثيراً

ويروى عنه بعد انقضاء سنوات على ما تقدم أن وباء شلل الأطفال فشا ثانية ، وكان الباحثون فى حاجة الى دم الذين أصيبوا بالمرض ولم يقض عليهم ، لتجربة التجارب بمصل ذلك الدم . فتقدم روزڤلت بقدر من دمه ، وقد قال بعد ذلك لأحد أخصائه : « ظننتُ أن هذا العطاء يكون قدوة » .

وقد روى لى سعادة الـكسندر كيرك وزير الولايات المتحدة المفوّض فى المملـكة المصرية أنه ذهب الى وشنطن فى صيف ١٩٤٠ بعيد انهيار فرنسا ودُعى الى البيت الأبيض ليذهب مع الرئيس وجماعة من صحبه فى رحلة بحرية قصيرة ، فهاله ما بدا له على سمات الرئيس وقسماته من أمارات التعب والإعياء ، عندما شاهده فى البيت الأبيض ، فلما وصل الصحب الى السفينة نزل روزڤلت الى حجرته وبدل ملابسه وعاد الى حيث انعقد المجلس ، وقد تبدل الرجل رجلاً آخر ممتلئاً عافية وهمةً ، ثم انتحى ركناً وجلس يعـدُّ فى ظروف صغيرة مجموعات منوعة من طوابع البريد ليرسلها الى « أصحابِه الصغار » من المصابين بشلل الأطفال !

— ٢ —

فى هذه السنوات تعلَّم روزڤلت قيمة « الوقت » وعبث ذلك اللون من الاجتماع الذى طالما ضيع وقته فيه . فمثل روزڤلت فى هذا كمثل غنىٍّ خسر معظم ماله فحملته التجاريب على العناية بالقليل الباقى له . فعكف روزڤلت المقعد على « ملء كل ساعة بستين دقيقة » — على حدِّ تعبير كبلنغ — من الدراسة والبحث . كان خريج جامعة، ولكنه لم يعن من قبل عناية خاصة بدراسة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تواجهها أُمم هذا العصر . فعمد الى إكمال هذا النقص . وكأنَّ مرضه كان من هذه الناحية كصمم اديسون . فالمرض والصمم فى الحالين مكنا الرجلين من الانصراف عن كثير من عبث الحياة الاجتماعية الى الإكباب على بحث المسائل التى تهمهما .

وبينما كان روزڤلت مكبًّا عَلَى دراسة مشكلات عصره ، فى عزلة داره ، كانت السنوات التى تلت عقد الهدنة ومعاهدات الصلح تعلوها سِمَةُ الاستسلام الى الشعور المكبوت خلال الحرب ، وإنكار العقل وأحكامه . فاندفع الناس فى دردور من المرح والعبث والشرب والرقص والمضاربة والرحلة الى مواطن المتعة ، فكأن مخدِّراً خاصًّا أصاب أعصاب الناس مزيناً لهم أن المتعة الحسية فى جميع ألوانها هى أعظم ما فى الحياة ، أو كلُّ ما فيها .

هذا الفرار من مشكلات الحياة وتبعاتها ، واللوذ بأسباب المرح المصطنع ، لم يدركا روزڤلت ، لأنه كان مريضاً مقعداً ، فلا يسعه ولو أراد ، أن يرقص مع الراقصين ، ولا أن يشرب مع الشاربين . وبينما كان ملقى على السرير فى دار والدته بنيويورك ، محروماً المتعة التى هيأتها له وراثته البيولوجية والاجتماعية ، آبياً التسليم مع من يقول من أصحابه وذويه ، إن هذه الإصابة ختام سيرته العامة ، أخذ الفساد يدب فى الجراح التى فتحها الحرب فى جسم الاجتماع البشرى ، لأن الناس انصرفوا عنها ، جهلاً أو إهمالاً ، الى « رقصة الشيطان » .

مرّ به الموكب المثل المعربد ، ووصلت اليه ضوضاؤه ، ولكنه كان بحكم حاله فوق الضوضاء . ولو انصرف الى مرارة التأوه على عجزه عن الانتظام فى الموكب لما لِيمَ ، ولكنه كان منصرفاً الى الدراسة و إلى التأمل ، وكأن سرير المرض صخرة عالية يشرف منها على عصره ، فأدركته نعمة النظر المشارف . وكان يحيط به نفرٌ مخلص من أصحابه وذويه ، فى طليعته زوجه إليانور وصديقه هاو ، فكان فى وسعه أن يراقب ، وأن ينظر من عل ، وأن يوازن ويحكم . فسنوات الألم التى جاز فيها روزفلت وادىَ ظلِّ المرض كانت سنوات بركة عليه ، لأنه تغلب فى خلالها على مصائب الجسد ، واكتمل له نموُّ العقل والخلق والطمأنينة النفسية .

والشلل يصحبه بوجه عام تنبه ذهنى فى الوقت الذى تقيد به حركة الجسم . وذهن روزفلت كان دائماً متقداً ، ولكنه نشط الآن نشاطاً عجيباً لأنه كان قادراً ، وهو منصرف عن « رقصة الشيطان » ومهام العيش ، أن يركز فكره . فكان فى وسعه أن يدرس المشكلات التى تهمه . وكانت على الأكثر مشكلات اجتماعية ، وهى مشكلات عقد منشئو الجمهورية الأول رجاءهم على اجتنابها ، ولكن ازدهار الصناعة الحديثة وانتشارها ، جعلاها مشكلات لا مفرَّ منها . هنا بلد من أغنى بلدان العالم فى ثراه وخلق شعبه وكلِّ ما يتيح الرخاء ويوفر أسباب الرغد لأبنائه . وقد كان البادى من حياة هذا البلد يشير الى رخاء ورغد . ولكن الخفىَّ كان غير البادى . فوراء الرخاء والرغد الظاهرين كان تعطل عن العمل آخذٌ فى الازدياد ، وفساد فى السياسة وارتباك ، واستهتار بين الشبان والشيوخ ، وانحطاط فى النظرة الأخلاقية الى الاجتماع ، وكان أهم مظاهر هذا الانحطاط عدم الاهتمام بالخروج على القانون حتى لكأن مراعاة القانون لا تعنى أحداً . وكانت عصابات « الأشرار » (Gangsters) قد هوت بكفها الملوثة على بعض دوائر الحكومة والمحاكم ، والحرية قد غدت إباحة وفوضى ، وصرح الدمقراطية بدت فيه شروخ تتحول الى صدوع .

وهذه أمور لا يدركها من يكون منساقاً مع التيّار ، ولا يستطيع أن يدركها إلا الحكيم الفطن الذى يستطيع أن يرتفع فوق التيّار ، لينظر إليه نظراً مجملاً مشارفاً . وروزفلت لم يكن منساقاً مع التيّار ، لأنه مريض ، ومرضه مهّد له سبيل النظر المشارف والحكمة . وكان ذهنه مهيّأً ، فاغتنم الفرصة ممسكاً بناصيتها .

فهم الأعراض وفكّر فى العلاج ، فازداد على مرّ الأيام يقيناً أن الإصلاح فى دولة دمقراطية لا يمكن أن يتم إلاّ إذا كان السلطان مستمدًّا من الشعب . والفوز بهذا السلطان يقتضى أولاً تعليم الشعب ، والسياسة يجب أن تكون أداة هذا التعليم . إن فى منظر هذا المقعد وهو يتأهب لقيادة أمةٍ ، لجلالاً يغصب الإعجاب والاحترام غصباً .

فى هذه السنوات استوضح روزفلت كثيراً من آرائه ومعتقداته السياسية والاجتماعية الأولى . كان قبل رحلته الثانية إلى أوربا بعيد انتهاء الحرب قد قَبِل عن اقتناعٍ الصورةَ المثاليّة التى رسمها ولسنْ لجمعية أمم ، تصبح فيما بعد « دولة عالمية » . ولكنه بعد ما اتصل بساسة أوربا ، وتنفّس فى جوّها السياسى ، أدرك ، أو بدأ يدرك ، أن الجمعية لن تفلح إلاّ إذا أُعطيت سلطاناً بدلاً من أن يوزّع السلطان على أعضائها ويكون كلٌّ منهم على حدة ، الحَكَم الأخير فى قراراتها الخطيرة . ولكن سنوات الدرس والتأمل ، خلال فترة المرض ، ساقته إلى الاقتناع بأن « الاجتماع الدمقراطى » مصيره معلّق بالفرد من الجماعة ، ومدى تأهُّبه لحمل نصيبه من التبعات المشتركة . ومن هنا نزعته التى أصبحت قاعدة ثابتة فى أسلوبه السياسى ، إلى توجيه ندائه إلى عقل الشعب ، وحسبانه السياسة تعليماً شعبيًّا فى المقام الأول ، وتوجيهاً إلى خطة يقبلها العقل العامُّ بعد ما يقيم العقل الخاصُّ الدليل على سلامتها . وقد كتب فى سنة ١٩٣٠ فى هذا المعنى « إن الفرد لم يمارس قبلاً فى دمقراطيةٍ ما ، ممارسة عامة حقوقَهُ الدستورية ، ولكننا مُقْبِلون على زمن يجب فيه على الأفراد

ممارسة هذه الحقوق إذا شاؤا أن تكون الحكومة ما يريدونها أن تكون . والاقتراع ليس إلاّ حقًّا واحداً من هذه الحقوق » . فالحكومة فى نظره يجب أن تكون « من الشعب » كما قال لنكن ، ولكن الواجب الأول على السياسىّ ، هو أن يرشد ويعلِّم ، لا أن يحكم ويتحكم .

— ٣ —

أقعد المرض روزڤلت ولكنه — بعد اجتياز المرحلة الحادّة من إصابته — لم يقطع صلته قطعاً باتًّا بعالم السياسة بمعنَيَيْهِ : الواسع أى الشعبى ، والضيّق أى الحزبى . فحجرته كانت كل يوم محطًّا لطوف من الرسائل ، فكأن أسلاكا خفيَّةً مُدّت بينه وبين جماعة كبيرة من المريدين فى الأمة الأميركية . وحرصت زوجه ، من ناحية ، وصديقه هاَوْ من ناحية أخرى ، على الاحتفاظ بجميع الصلات السياسية والاجتماعية التى كان روزڤلت قد أنشأها ووثقها فى مراحل حياته السابقة : فلاحاً سيِّداً ، وعضواً فى مجلس شيوخ ولاية نيويورك ، ووكيلاً للبحرية ، ومرشحاً للوكالة عن الحزب الدمقراطى ، ومديراً لشركة تأمين كبيرة .

وكذلك تعاون الزوج الوفية ، والصديق الصدوق ، على خدمة هذا المُقعد ، فكانا عينيه اللتين تريان ، وأذنيه اللتين تسمعان ، وأحياناً الصوت أو الصدى الذى يفرض الاحترام على أخدانه وخصومه على السواء ، فى ميدان السياسة . وكان الهمُّ الأول طبعاً متجهاً الى حفظ اسم روزڤلت حيًّا ، فى مجالس الحزب ، لكى لا يكون نسْياً منسيًّا ، أو كأنه عائدٌ من عالم بعيد ، عند ما يتيح له التحسن المطَّرد فى صحته الرجوع الى حومة السياسة . فانصرف هاَوْ الى الاتصال بجماعات الحزب فى الولاية وفى الأمة يشاهد ويسمع ثم يعود إلى صديقه بما شاهد وبما سمع . وكان عند ما تتاح له الفرصة للإعراب عن رأى صديقه فى شتى المسائل ، لا يحجم عن الإعراب

فيقول « إن فرانك يرى هذا » أو « إن فرانك يظنُّ أنه يتعين علينا الاهتمام بهذا أو بذاك » أو « إن رأى المستر روزڤلت فى الموضوع هو كيت وكيت » . أما زوجه فنزعت عن وجهها نقاب الإحجام ونزلت الى الحَلْبة ، مهتمة بمسائل ونواحٍ من السياسة العملية ، كانت قبل ذلك لا تعنى بها إلاّ من الوجهة العقلية المحضة . فما لبثت حتى أصبحت خطيبة بارعة ، وحتى غدت ذات مقام عالٍ ونفوذ عظيم فى الهيئات النسوية الأميركية الكبيرة ، مثل « عصبة الناخبات » و « وعصبة نساء اتحاد العمال » والهيئة النسوية للجنة الدمقراطية فى ولاية نيويورك . وكانت فى المرحلة الأولى تستند الى حكمة هاوْ و إرشاده ، إلاّ أن ذكاءها ونزعتها الانسانية ورغبتها الصادقة فى الخدمة العامة ما لبثت جميعاً حتى مهَّدت لها حنكةً سياسية ، جعلتها بصرف النظر عن زوجها ، وعن كونه حاكماً أو رئيساً ، فى طليعة النساء الأميركيات المشتغلات بالمسائل العامة فى هذا العصر .

قضى روزڤلت صيف سنة ١٩٢٣ فى دار والدته بهيدبارك على ضفة الهدصن فى أعالى الولاية . وكان العزم والثقة السِمَتين اللتين تسودان كلَّ عمل وكلَّ قول يعمله أو يقوله . وكان قد تعلَّم أن يمشى مستعيناً بعكازين . ولم يكن موقفه من مرضه موقف سخط على عدوٍّ ، بل موقف نضال مع منافس ، فأبى إباءً مطلقاً أن يستسلم . وكان يعقد كل صباح مؤتمرات سياسية تدوم ساعتين أو أكثر فى حجرته ، ويجلس إلى مكتبه بعد الظهر للكتابة أو القراءة ، وكان عند وجوده فى نيويورك يختلف إلى مكتب المحاماة الذى أنشأه مع صديقه أوكونور . وفى المساء ينصرف إلى الرياضة وهو يقول : « سأقهر هذا الشىء » . وهو شعاره .

وكذلك أقبلت سنة ١٩٢٤ وهى فى الولايات المتحدة سنة انتخاب ينتخب فيها رئيس الجمهورية ووكيله ، وجميع أعضاء مجلس النواب وثلث أعضاء مجلس الشيوخ والحكام وأعضاء الهيئات التشريعية فى طائفة كبيرة من الولايات .

فى تلك السنة هُيِّئت لروزفلت العودة إلى حَلْبة السياسة ، وقد كانت عودته فى سبيل قضية يؤمن بهـا ، وصديقٍ تعلَّم أن يحترمه منـذ أيامه الأُولى فى ألبنى . ذلك بأنه رأى فى صديقه آل سمث (الفرد ى . سمث) حاكم ولاية نيويورك خير من يحمل عَلَم الحزب الدمقراطى فى انتخاب الرآسة المقبل لإنقاذ الأمة من عهد هاردنج الفاسد ، فقرَّر أن يؤيده . ودُعى إلى تولِّى إدارة الهيئة التى تمهِّد لترشيح سمث عن الحزب . وكانت هذه الدعوة تحيةً كريمة لروزفلت ، ولكن قلَّ من ظنَّ حينئذٍ من أقطاب الحزب ، أن روزفلت يستطيع ، وهو فى حالته الصحية المعروفة ، أن ينهض بالتبعات الجسام فى عمل من هذا القبيل . وكانوا مكتفين مقتنعين بأن يقرن اسمه باسم الجماعة التى تؤيد سمث . ولكن رأى روزفلت كان مخالفاً لهذا الظنِّ ، فهو لا يقرن اسمه بحملة سياسية إلاّ إذا كان مشرفاً عليها الإشراف التام . وكذلك قضى روزفلت ثلاثة أشهر وهو يصنع العجائب فى تنظيم الهيئات الموالية لصديقه . وهذا عمل يكاد ينوء بهِ رجلٌ سليمٌ قويٌّ .

ولكن سنة ١٩٢٤ كانت سنة الجماعة المعروفة باسم « كوكلوكس كلان » وهى معادية لليهود والكاثوليك على السواء . وسمث كاثوليكى . واجتمع مؤتمر الحزب الدمقراطى فى مدينة نيويورك لاختيار مرشحى الحزب للرآسة والوكالة ، فرشح روزفلت صديقه فى خطبة أصبحت مشهورة فى تاريخ أمريكا السياسى باسم خطبة « الجندى السعيد » لأن روزفلت وصف صاحبه هذا الوصف عند ما ختم خطبته ببيت وردزورث الشاعر الإنجليزى وترجمته : « هذا هو الجنديُّ السعيد ، هو من يريد كلُّ مكافح أن يكون »

كان الرجلان المقدّمان على غيرهما فى كشف المرشحين ، آل سمث ووليم مكادو ، (وزير المالية سابقاً – فى عهد ولسن – وصهر الرئيس ولسن) . وانقسمت معظم الأصوات بينهما ، بغير أن ينال أحدهما الأكثرية اللازمة للترشيح ، وقد كانت حينئذ فى

الحزب الدمقراطى « ثلثى الأصوات » . وأُعيد الاقتراع أكثر من مائة مرة بغير أن يعنو أحد الفريقين للآخر . وكان وقت الاجتماع فى الصيف ، وجوُّ الصيف فى نيويورك لا يطاق ، لأنه مشبع برطوبة تثقل على الصدور وتكاد تزهق النفوس . فلما ضاق أعضاء المؤتمر ذرعاً بغير إمكان الاتفاق على أحد المرشحين ، تخلَّى الفريقان عنهما كليهما ، ورشحا جون دايفس (سفير أميركا سابقاً فى لندن) . فخُذل دايفس فى الانتخاب ، وكان منافسه الذى خذله كلفن كولدج .

فى خلال هذه الفترة المرهقة ، عمل روزفلت ما يعجز عنه رجل بساقين سليمتين . ومع أن مرشحه عجز عن الفوز بتأييد الحزب له فى الترشيح للرآسة ، تمكن روزفلت من الاتصال الشخصى بأقطاب الحزب الديمقراطى المجتمعين فى نيويورك من جميع أنحاء البلاد ، واستطاع بكثير من الدهاء وقوة الإقناع ، أن يستميل فريقاً كبيراً من خصوم سمث إلى تبديل رأيهم فيه فعادوا إلى ولاياتهم وهم عازمون على تأييد سمث فى المؤتمر القابل ، إذا كان اسمه معروضاً للترشيح . ولم يقنع روزفلت بهذا ، فمضى خلال السنوات الأربع بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٨ (وهى سنة انتخاب الرآسة التالى) يسعى ممهداً لترشيح صاحبه ، وأتاحت له فرصة الرحلة الى ينابيع المياه الدافئة فى جورجيا ، أن يهدم بعض الحوائل التى وقفت سدًّا منيعاً بين سمث وبين تأييد الولايات الجنوبية له ، وهى الولايات التى تُعَدُّ معقلاً للدمقراطيين ، وكانت مناوئة لسمث لأنه كاثوليكىٌّ ، ولأسباب أخرى .

فلما عقد مؤتمر الحزب الدمقراطى فى سنة ١٩٢٨ فى بلدة هوستن بولاية تكساس الجنوبية ، ذهب روزفلت إليها ، وكان يستعين بعصَوَين على المشى ، ورشح صديقه مرة أخرى فوافق المؤتمر على الترشيح فى الحال . وكان المرشح الجمهورى المنافس له هربرت هوفر .

لولاية نيويورك فى انتخاب الرآسة منزلة عالية ، لأن لها الحق فى أن تنتخب سبعة

وأربعين ناخباً من مجموع ٥٣١ ناخباً فى مجمع انتخاب الرئيس . فمَنْ يفُزْ بكسب الأكثرية فى ولاية نيويورك يغنم فى انتخاب الرآسة غنماً كبيراً . وفى نصف القرن الماضى لم يفز مرشح للرآسة إلاَّ وكانت نيويورك فى جانبه ، يستثنى من ذلك انتخاب ولسن سنة ١٩١٦ فقد انحازت إلى خصمه ، هيوز ، ومع ذلك فاز بتجديد رآسته ، لأن تأييده فى طائفة كبيرة من الولايات الكبيرة الأخرى كان قويًّا .

وعند ما تقترع ولاية نيويورك لمرشحى الرآسة ، تقترع كذلك لانتخاب حاكم جديد وهيئة تشريعية جديدة . والصلة بين الاقتراعين ليست مطَّردة . فقد تنحاز الولاية إلى مرشح الرآسة الدمقراطى ، وقد تنتخب فى الوقت نفسه حاكماً عليها من الجمهوريين ، وقد يعكس . وذلك مردُّه إلى مسائل السياسة المحلية على الأكثر . وكان يهمُّ سمث المرشح للرآسة أن تنحاز إليه ولاية نيويورك بأصواتها السبعة والأربعين فى مجمع انتخاب الرئيس . ومع أنه كان قد قضى حاكماً لها ثمانى سنوات ، كان يعلم أن انحيازها إليه فى انتخاب الرآسة ليس مضموناً . ولذلك كان يهمُّه أن يكون مرشح الدمقراطيين لمنصب الحاكم فيها رجلاً ذا منزلة عالية واسم مشهور ، لعلَّ شهرته ومنزلته السياسية ومشاركته فى الحملة الانتخابية ، تؤثر فى اقتراع الرآسة ، فتنحاز الولاية إلى سمث . ولم يجد سمث لهذه المهمة خيراً من روزڤلت . وكان روزڤلت قد ذهب إلى جورجيا للعلاج بالرياضة فى مياه جورجيا الدافئة . وكان الأطباء قد عقدوا أملهم على أن تفضى رياضته هناك مدى أشهر متوالية إلى اطِّراد التحسن فى صحته فيستطيع أن يمشى بغير سَنَد . فقد مضى عليه سبع سنوات من الكفاح ، وأصبح قريباً من الهدف . ولسنا نعلم هل كان الأطباء على صواب فيما ذهبوا إليه من تمام الشفاء بعد قليل . لأن روزڤلت لم يتمكن من أن يلبث فى هذه البقعة ، وأن يقيم على هذه الرياضة المدة المفروضة . فالزعماء الدمقراطيون المؤيدون لسمث اجتمعوا فى نيويورك ، وقرَّروا أن المرشح الدمقراطى الوحيد ، لمنصب حاكم ولاية نيويورك ،

الذى يستطيع أن يسدى عوناً إلى سمث والحزب فى هذه الولاية ، إنما هو فرنكلن روزڤلت . و إذا بجرس التلفون يقرع ليلاً فى مقرّ روزڤلت فى جورجيا . وكأن روزڤلت استشفّ ما فى الجوّ فقضى المساء بعيداً عن التلفون ، ولكنهم اتصلوا به أخيراً ، وحادثه سمث ، و بيّن له الموقف ، وناشده قبول ترشيح الحزب الدمقراطى إيّاه لمنصب حاكم ولاية نيو يورك .

هذه حقائق لا مماراة فيها .

ولكن الكتّاب اختلفوا فى تفسيرها . وقد ذهب بعضهم إلى أن روزڤلت كان يأكله الطمع فى هذا الترشيح ، فدبّر حيلة بارعة قوامها الابتعاد ، حتى يبرز فضله فيرجَى رجاء . وقد يكون هذا صحيحاً . ومن المحتم أن هناك طائفة من رجال السياسة لا يفهمون شؤون الحياة إلاّ على هذا الأساس . ولكن فريقاً كبيراً من العقلاء يدركون أو يستطيعون أن يتصوروا ، على الأقلّ ، رجلاً يفضّل أنْ يستعيد صحته الكاملة واستعمال نخذيه ، على أن يكون حاكماً لولاية نيو يورك ؛ حتى غير العقلاء يستطيعون أن يتصوروا رجلاً يفضّل الصحة على أن يخوض معركة سياسية مصيرها غير مضمون . ومهما يكن من أمرٍ فإن روزڤلت كان مقتنعاً بأن انتخاب سمث رئيساً أمر مرغوب فيه ، ولولا اقتناعه هذا لما بذل ما بذل فى سنة ١٩٢٤ أولاً وسنة ١٩٢٨ ثانياً لتأييد ترشيحه عن الحزب الدمقراطى . و إذنْ فروزڤلت الوطنىّ المقتنع هذ الاقتناع ، لا يستطيع أن يأبى طويلاً ، التضحية باحتمال شفائه التام ، إن كان فى تلك التضحية تعزيز لمقام سمث فى الانتخاب المقبل . فقَبِل أن يرشح عن الدمقراطيين لمنصب حاكم الولاية .

وكانت النتيجة ، أن فاز روزڤلت بانحياز نيو يورك إليه فى انتخاب الحاكم بأكثرية ٢٥ ألف صوت ، وخسرها سمث فى انتخاب الرئيس ، وخسر الانتخاب فى الاتحاد إجمالاً ، إذ فاز هوڤر عليه .

— ٤ —

حاكم ولاية نيويورك — كحكام سائر الولايات السبع والأربعين — رئيس دولة ورئيس وزارة فى آنٍ ، فى النطاق الذى يبيحه له دستور الاتحاد . وولاية نيويورك مساحة أرضها ٤٧،٦٥٤ ميلا مربعاً ، وعدد سكانها بحسب إحصاء ١٩٣٠ يزيد على اثنى عشر مليوناً ونصف مليون نسمة ، ومن المحتمل أنه أوفى على خمسة عشر مليوناً فى إحصاء ١٩٤٠ وميزانية حكومتها سبعون مليوناً من الجنيهات فى السنة العادية .

والولاية صناعية وزراعية . فبحسب إحصاء سنة ١٩٣٠ كان عدد المزارع فيها نحو ١٦٠ ألفاً ، ومساحتها نحو ١٨ مليوناً من الأفدنة ، أو نحو ٥٩ فى المائة من مساحة أرض الولاية . وبلغ الدخل العام من الحاصلات الزراعية عشرين مليوناً من الجنيهات فى سنة ١٩٣٠ وأربعين مليوناً أو أكثر قليلا من الماشية . وللتمثيل على موارد نيويورك الزراعية تكفى الإشارة إلى أن إنتاج اللبن الحليب فى سنة ١٩٣١ أربى على سبعة آلاف مليون رطل ، وأن محصول الذرة فى سنة ١٩٣٢ بلغ نحو ٢١ مليون بوشل ، ومحصول الحنطة فى السنة نفسها بلغ ٢٢ مليون بوشل ، والعنب ٦٨ ألف طن ، والكرنب ٣٠٠ ألف طن . وكان عدد الحيوانات الزراعية فى أول يناير سنة ١٩٣٢ يشمل ٣٠٣٠٠٠ فرس و ٦٠٠٠ بغل ومليوناً ونصف مليون بقرة حلوب و ٤٧٣ ألف رأس ضأن و ٢٠٥ آلاف خنزير وأربعة عشر مليوناً ونصف مليون دجاجة . إنها فى الواقع دولة زراعية كبيرة .

أما الصناعة ، فمنها استغلال الموارد الطبيعية ومنها المصانع ، وقد بلغ عدد المنشآت الصناعية فيها سنة ١٩٢٩ تسعة وثلاثين ألفاً أو تزيد ، وكان عدد عمالها مليوناً ومائة وخمسة آلاف .

وفى الولاية مدينةُ نيويورك المشهورة بناطحات السحاب ، وهى فى المرتبة الأُولى

بين مرافئ العالم ، وقد بلغت قيمة الواردات التى دخلته فى السنة المالية التى تنتهى فى ٣٠ يونيو ١٩٣٢ أقلّ قليلاً من ألفى مليون ريال ، وقيمة الصادرات منه أكثر قليلاً من ١٦٠٠ مليون ريال .

وكان فى الولاية فى سنة ١٩٣٢ ثلاثٌ وثلاثون جامعة وكلية وثمانى عشرة مدرسة للفقه الدينى وعشر مدارس للقانون وسبع مدارس للتربيـة وإحدى عشرة مدرسة للطب وثلاث لطب الأسنان واثنتا عشرة للهندسة ، وهكذا .

هذه حقائق يسيرة متفرقة عن ولاية نيويورك توضح أولاً أن منصب حاكمها منصبٌ عظيم الشأن ، وأنه يتيح لشاغله فرصة نادرة للتمرُّس بعلاج المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة بالولاية ، وأنَّ عليه أن يوازن موازنة دقيقة بين مصالح أصحاب الصناعة ورجال الأموال من جهة ، وهى مركّزة على الأكثر فى منطقة المدينة ، وبين أصحاب المصالح الزراعية المنتشرة فى جميع أنحاء الولاية . فالحاكم يغدو بحكم منصبه ، بين الأقطاب المنظور إليهم فى حزبه ، الذين يُحسب لهم حساب فى الترشيح للرآسـة عن الحزب ، لأن للولاية حقًّا فى إرسال وفدٍ عدد رجاله أربعة وتسعون ، إلى مؤتمر الحزب الذى يتولى الترشيح للرآسة والوكالة ، وهذا الوفد يكون على الغالب ، برآسة الحاكم أو يتلقى الأمر منه ، أو يقيم وزناً كبيراً لآرائه ورغباته .

فى اليوم الأول من سنة ١٩٢٩ احتُفِل بتنصيب فرنكلن روزڤلت حاكماً لولاية نيويورك ، ثم أُعيد انتخابه حاكماً فى خريف سنة ١٩٣٠ أى أنه قضى حاكماً للولاية أربع سنوات . وقد وُصِفت أعماله فى خلال هذه المدة بأنها كانت متَّسمة بسِمَة « الثورة » ولكنَّ كلَّ من يطالع المجلد الأول من أوراقه الرسمية فى أثناء هذه المدة يتبين أن فرنكلن روزڤلت كان أدقَّ فهماً لروح الدستور الأميركى من ناقديه ، وأنهُ كان أجرأ من أسلافه حكام ولاية نيويورك فى سعيه إلى تجسيم هذا الروح فى

حكومة الولاية . إن روح الدستور الأميركى مُفْرَغٌ أبلغ إفراغ وأبسطَه فى عبارة لنكن المشهورة فى خطبة جتسبرج « حكومة الشعب من الشعب للشعب » . ولكن التيَّار فى هذه الولاية — بل فى الحكومة الاتحادية كذلك — كان متجهاً منذ العقود الأخيرة فى القرن التاسع عشر، إلى الانصراف عن « حكومة الشعب من الشعب » وإلى تركيز مرجع الحكم الفعلى فى أيدى أصحاب المصالح المالية والصناعية الكبيرة أو فى رغباتهم . وقد حاول ثيودور روزفلت وودرو ولسن الحدَّ من سلطان هذه الطوائف ، ولكنها على الرغم من ذلك نَمَتْ نموًّا عجيباً ، واتسع نطاق سلطانها وتمكَّن ، وغَدَت قابضةً على ناصية الحياة الاقتصادية فى الأمة لأن أسباب الاعتماد المالى (Credit) كانت فى أيديها . فعند ما أقبل فرنكلن روزفلت على سعيه للحدِّ من هذا السلطان ، لم يكن مناوئاً للنظام الرأسمالى ، ولكنه كان مناوئاً لهذا النبات العجيب الغريب الذى نبت فى تربة النظام الرأسمالى . والواقع أن روزفلت سعى ، عند ما كان حاكماً لولاية نيويورك ثم عند ما تقلَّد رآسة الولايات المتحدة ، إلى تعزيز النظام الرأسمالى وتأييده ، بتطهيره من هذه الآفة التى طرأت عليه ، وتغلغلت فيه . وسنزيد هذا بياناً عند الكلام على نظام « التوزيع الجديد » فى الفصل الرابع .

وإذنْ يصحُّ أن يقال إن عمل روزفلت لم يكن ثورةً كما أراد خصومه أن يصفوه ، وإنما كان عَوْداً إلى لباب الدمقراطية الصحيحة كما أراده واضعو الدستور ، ووصفه لنكن ، وكما يجب أن تكون الدمقراطية الصحيحة .

وقد يكون مِن وضع الشىء فى غير محلِّه ، أن نتولَّى بالتفصيل فى هذه الصفحات وصْفَ النضال الذى دار بين روزفلت وهو حاكم ولاية نيويورك وبين أصحاب المصالح المالية والصناعية الكبيرة . ولكن إذا كان التفصيل متعذراً هنا ، فالإجمال لا مفرَّ منه ، لأن فهم روزفلت وسياسته الاقتصادية والاجتماعية لا يستقيم إلاَّ إذا عُرفت المبادىء التى توخَّى تطبيقها فى هذا الميدان من الإصلاح السياسى والاجتماعى .

أما المبدأ الأول ، فهو أن الأعمال المالية الكبيرة يجب أن تستمدَّ — كالحكومة — سرَّ كيانها ، من كونها خادمة الشعب .

وأما المبدأ الثانى ، فهو أن نشاط الشركات الكبيرة لا يجب أن ينهض على مدى ما تستطيع أن تتقاضاه من الشعب ثمناً لما تسديه إليه من خدمات ، بل على أعظم خدمة تستطيع أن تسديها إلى الشعب بأقلّ ربحٍ مستطاعٍ كافٍ لتأمين ربحٍ معقول للمال ، وأجر وافٍ للعمال .

وأما المبدأ الثالث ، فهو أن رأس المال لا يكون له أساسٌ أدبىٌ اجتماعىٌ يسوِّغ وجودَه وما له من امتياز ، إلاّ إذا كان يستعمل فى خدمة الشعب ، ولذلك فحَشْدُ الثروات الضخمة منافٍ للأدب والاجتماع والمصلحة العامة .

أما المبدأ الرابع ، فهو أن التشريع يجب أن يستند إلى مشيئة الشعب المتنورة المهذَّبة ، دون رغبات الجماعات التى تمثِّل أصحاب المصالح الخاصة . وإذا كان التشريع قد أباح مزايا خاصة لجماعات خاصة ، فهذه المزايا يجب أن تخضع للمراقبة العامة .

أما المبدأ الخامس ، فهو أن منح شركةٍ ما امتيازاً أو حقاً فى استغلال منابع نفطٍ أو توليد طاقةٍ من ماء منحدر أو ما أشبه ، إنما هو فى منزلة أَمانة شعبية تودَع فى أيدى الشركة ، فيتعين عليها ألاّ تبذِّر الموارد ، وألاّ تتقاضى من الشعب إلاّ جعلاً معقولاً لقاء حقِّ الشركة فى استغلال موارد هى فى الواقع ملْك الشعب .

أما المبدأ السادس ، فهو أن الملكية الخاصة للمرافق العامة يجب أن تستنكر بوجهٍ عام ، وأن تحلَّ محلَّها الملكية العامة على قدر الطاقة .

أما المبدأ السابع ، فهو أن كلَّ نزاع يقوم بين المصلحة العامة و بين المصلحة الخاصة يجب أن يُحْسَم بإذعان الثانية . فإذا لم تفعل ذلك اختياراً فيجب أن تُقْسَرَ عليه بالتشريع ، أو بقرارٍ حكومى .

أما المبدأ الثامن ، فهو أن المال بحدِّ ذاته لا يتيح لصاحبه امتيازاً ما فى التشريع .

ولكن إذا كان المال يستغَلُّ فى سبيل النفع العام فيجوز عندئذٍ أن يُجزَى صاحبه بامتيازٍ ما . ولكن الامتياز فى الأصل يجب أن يكون من حقِّ الشعب فهو يعطى وهو يأخذ

أما المبدأُ التاسع ، فهو أن أعمال الشركات الكبيرة يجب أن يكون التفتيش عليها مباحاً لممثلى الشعب ، وإذا لزم وجب أن تنال موافقتهم .

جميع هذه المبادىء تستخلص من أعماله ومقترحاته التشريعية خلال المدة التى تولّى فيها منصب الحاكم فى ولاية نيويورك . وهى مبذولة فى قوالب شتى فى الجزء الأول من أوراقه الرسمية ، وهو يشمل أكثر من ثمانمائة صفحة كبيرة ، وقد جعل عنوان هذا المجلد « تحدُّر نظام التوزيع الجديد » The Genesis of the New Deal . ولعلَّ لباب هذه المبادىء جميعاً مُفْرَغٌ أبلغ إفراغ فى عبارة واحدة صافية كالبلور ، تضمَّنتها رسالته الى الكونغرس الأميركى فى شهر ابريل سنة ١٩٣٨ قال : « إن الغرض هو المحافظة على نظام الجهد الفردى فى ميدان الأعمال بإطلاق حرِّيته لاستغلال مواردنا فى العمل ورأس المال . ثم قال : إن تركيز السلطان فى أيدى الأفراد أو الهيئات الخاصة بلغ الآن مبلغاً لا مثيل له فى التاريخ . والعبرة الوحيدة التى تستخرج من الحوادث فى البلدان الأخرى هو أن حرية دولة دمقراطية ما لا بدَّ أن يحفَّ بها الخطر إذا تسامح الشعب فى نموِّ السلطان الخاص حتى يبلغ مرتبة تجعله أقوى من الدولة الدمقراطية نفسها » .

وقد أشار إلى الموضوع نفسه فى ختام الخطبة الأخيرة التى خطبها قبيل انتخاب الرآسة فى شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٦ قال : « لقد تعيَّن علينا أن نكافح أعداء السلام : — الاحتكارَ التجارىَّ والمالى ، والمضاربَة ، وأعمالَ البنوك المتهورة ، والجفاء بين الطبقات ، والاستغلال . هؤلاء — الأعداء — بدأوا يعدُّون حكومة الولايات المتحدة الأميركية مجرَّد ذيل لأعمالهم ومصالحهم . ولم يسبق فى التاريخ أن احتشدت

هذه القوى كما هى محتشدة اليوم ضدَّ مرشح واحد . إن أصحابها مجمعون على مَقْتى ، وأنا أُرحِّب بمَقْتهم ... وإنه ليسرُّنى أن يقال إن قوى الأَثَرة والجشع قد لقيت فى رآستى الأولى ندًّا لها ، وفى رآستى الثانية سيدها » .

وإننى لأذكر أن مجلة « هارپرز » المشهورة نشرت فى أحد أعدادها الصادرة فى صيف سنة ١٩٣٦ — وهى السنة التى انتُخب روزڤلت فى خريفها ثانية للرآسة — مقالا عنوانه « لماذا نمقت روزڤلت ؟ »

ويروى باسيل وون أحد مؤرخى سيرة روزڤلت أنه عاد الى الولايات المتحدة فى ربيع سنة ١٩٣٩ ودخل « بار الريتز » فى شارع ماديسون فسمع أقوالاً من الأغنياء الذين يختلفون اليه ، فى حقّ روزڤلت لم يكد يصدّق أنهُ يسمعها . وكان أحد المتكلمين مليونيراً يصنع زوارق سباقٍ فقال : « إن عيبنا اننا لسنا مقاديم . ولو كنا ، لأطلقنا الرصاص على هذا الرجل » فردَّ عليهِ شيخ وهو مدير مصرف لم يستطع أن يثبت سلامة مصرفه فى سنة ١٩٣٣ : « إن إطلاق الرصاص عليه قليل . يجب أن يسلَق فى الزيت » . فالتفت وون الى صاحبه وقال لهُ : « أيتكلم هؤلاء عن رئيس الولايات المتحدة ؟ » فردَّ عليه وهو سمسار : « أتعنى ذلك — الذى فى البيت الأبيض ؟ نعم . ويحسن بك أن تصغى اليهم عند ما يشدّدون النكير عليه . . » . ويقول ألن مؤلف كتاب « منذ أمس » : إن من الروايات التى كان خصومه يشيعونها عنه أنه مخبول فيقولون مثلاً : « تساورهُ أوهام العظمة فيظن أنهُ فرنكلن دلانو روزڤلت » . أو أنهُ شيوعى : « إنهُ يوسف ستالين آخر — ولكنه أسوأ وأضلُّ سبيلاً » أو « إنه خائن طبقته » أو « إن أسرته ثملة دائماً وإن مسز روزڤلت تدبِّر ما يلزم لتخلف زوجَها إلى أن يحين الوقت ليتقلَّد أبناؤها الزمام » . وهذه الأقوال هى ما يستطاع نشرهُ من عديد الروايات السخيفة .

فإشارة روزڤلت فى الفقرة التى تقدَّم نصُّها واضحة لمن تتبع الحملة الشديدة التى

شنتها عليه هيئات المصالح المالية الكبيرة ، وهى الحملة التى تبلورت فى عنوان المقال المشار إليه فى مجلة هارپرز .

أما الشركات الكبيرة التى تستغلُّ المرافق العامة كالطاقة الكهربية والنور الكهربى فلم تقبل من الحاكم الجديد هذه المبادىء والمشروعات القائمة عليها بغير أن تحرّك ساكناً . فكافحته بكل ما تملكه من وسيلة ، زاعمة أن ما تتقاضاه من الجمهور من أجور ليس مبالغاً فيه . وأشارت الى كفاءتها فى خدمة الجمهور . فكان رد روزڤلت على هذا الزعم ردًّا عمليًّا ، إذ وضع مشروعاً لتوليد الطاقة الكهربية من مياه نهر سانت لورنس . وقال إن هذا المشروع سيكون مقياساً لما يتعيَّن على الشركات الخاصة أن تتقاضاه . ولما كانت هذه الشركات تولد خمسة أسداس الطاقة المستهلكة فى ولاية نيويورك ، فلا يمكن أن يُعَدَّ مشروعه منافساً لها ، ولكنه مرشد ومعيار . وفى هذا العمل إنصاف للشعب وللشركات نفسها .

وسواء أمنصفاً كان مشروع روزڤلت هذا أم غير منصف ، فإن الشركات لم ترْضَهُ ، وقاومته مقاومة عنيفة ، وأنفقت فى سبيل مقاومته والحطِّ من قيمة روزڤلت ، ملايين من الريالات . ولما كانت عاجزة عن اتهامه فى استقامته ، اتهمته واتهمت مشروعاته بأنها أوهام تطوف بذهن حالم . وليس لها أساسٌ عمليٌّ تنهض عليه . ولكن روزڤلت أثبت أن حسّه العملى أدقُّ من حس خصومه . وإذا كان ، كما زعموا ، من رجال الخيال والأحلام ، فإنهم عجزوا عن أخذه وهو نائم . وعلى الرغم من أن الهيئة التشريعية فى الولاية كانت معارضة له ، فإنه فاز فى آخر الأمر بالموافقة على المشروع ، وعلى تنفيذ طائفة كبيرة من آرائه ومشروعاته .

وكذلك كانت ولاية نيويورك مجالاً للاختبار فى الاصلاح العام . وليس من المبالغة فى شىء أن يكون عنوان المجلد الأول المحتوى على أوراقه ورسائله فى أثناء هذه السنوات « تحدُّر نظام التوزيع الجديد » قبل أن وُلد لفظا « التوزيع الجديد »

واستعملا فى السياسة الاميريكية . وكثيراً ما نراه بعد توليه الرآسة يشير إلى تجاربه فى ولاية نيويورك عند ما يريد تأييد ناحية من نواحى مشروعاته العامة الجديدة ، فيقول : « فى ولاية نيويورك فعلنا كذا وكيت » أو « علّمتنا التجاريب فى ولاية نيويورك كذا وكيت » .

فى خلال هذه المدة وجّه روزفلت جانباً كبيراً من عنايته إلى مشكلات الفلاّح . وكان مبدأه أن « الزراعة السليمة ركنٌ هامٌ للنظام الاقتصادى السليم » وكان الفلاّح فى نيويورك مُهمَلاً بوجهٍ عام لطغيان الاهتمام بمصالح الهيئات المالية والصناعية المركّزة فى مدينة نيويورك ورغبة المشتغلين بالسياسة فى الفوز بتأييد هذه الهيئات القوية . وليس ثمة ريب فى أن حالة الفلاحين هذه ، كان مردُّ بعضها إلى امتناعهم عن التعاون فى سبيل المصلحة العامة . ولكن الجانب الأكبر مردُّه الى امتناع الحكومة عن النهوض بالتبعة الواقعة عليها . وإذا كان أسلافه فى المنصب قد جعلوا من حالة الفلاّح مسألة سياسية للمساومة ، فإن روزفلت ، وقد أدرك فى شبابه مشكلات الفلاح — لأنه عالج نواحى منها بنفسه بعد ما تعلمه منها من والده — عزم عزماً قاطعاً على أن يواجهها مواجهة حازمة . فقرر أن يتبع مبدأين : أما الأول فالأراضى التى لا يمكن استغلالها بحكم طبيعتها استغلالاً اقتصاديًا موفقاً ، يجب أن تمنع الزراعة فيها وتحوّل أراضى للتحريج . وأما الثانى فالأراضى التى يمكن استغلالها بحكم طبيعتها استغلالاً اقتصاديًا موفقاً ، يجب أن تشقّ لها الطرق التى تصل بينها وبين الأسواق التى تباع فيها المحصولات ، وأن تجهّز بجميع أسباب الحياة الرضية من طاقة كهربية وخطوط مواصلات تلفونية ومستشفيات ومدارس وما أشبه . فالحكمة الاقتصادية تقضى بالانصراف عن بذل الجهد فى أراضٍ لا تغلّ ، وتمهيد الطرق لاستغلال الأرض الصالحة استغلالاً أوْفَى .

كان روزفلت فى مقترحه هذا على الطريق القويم . ولكن خصومه أبوا إلاّ أن

يناوئوه مناوأة سياسية عندما عجزوا عن نقد مشروعاته وانتقاصها . ولكنهم وجدوه فى المعترك السياسى أدهى مما كانوا يتوقعون . فروزفلت المصلح لم يكن ضعيف الحس السياسى ، فلم يندفع وراء الاصلاح إلاّ بعد أن تسلّح بالحقائق . فمسح الأراضى ، ليعرف الصالح منها وغير الصالح . وعند ما ملك الحقائق بين يديه تقدم بها الى الهيئة التشريعية والى الشعب كذلك . فاقترح تعديلاً دستوريًا يبيح للهيئة التشريعية أن ترصد عشرين مليوناً من الدولارات لشراء الأرض غير الصالحة ، وتحويلها الى التحريج ، لأنه من العبث أن يكدّ الفلاّح و يضنى فى محاولة استغلالها استغلالاً اقتصاديًا موفقاً . ففى محاولة من هذا القبيل تبذير فى طاقة الشعب وصحته وماله .

فارتفعت الصيحة بأن هذا الرجل « اشتراكىٌّ مستتر » وأنه يسعى الى جعل نيو يورك قطعة من روسيا . ولكنّ الإصلاح على طريقة روزفلت لا يعنى فرضه على الشعب فرضاً بل يعنى تعليم الشعب مزاياه ، لأنه يؤمن بأن الدمقراطية لا يمكن أن تستتبّ إلاّ إذا فهم الشعب المشكلة التى يواجهها ، وأدرك منافع الإصلاح المقترح . وقد كتب قبلاً « إن الواجب الأول على السياسى أن يرشد و يعلم لا أن يحكم و يتحكم » . ولذلك عمد روزفلت الى مجلة زراعية فبسط فيها مشروعه . وقد قال فيها ، إن أحداً لن يقسر على الخروج من أرضه بالقوة ، ولكنه ذهب فيها فى الوقت نفسه الى أن طائفة كبيرة تفضّل أن تبيع أرضاً لا تستطيع أن تستغلّها إلا بشقّ النفس ، لتبدأ حياة جديدة فى مكان آخر يواتيها فيه النجاح والتوفيق . وقد صحّ ما توقعه من هذا القبيل . وعند ما نقدت الأسس الاقتصادية لمشروعه ، أثبت أن ما تنفقه الحكومة (حكومة الولاية) فى شراء الأراضى غير الصالحة للاستغلال الزراعى الموفق لن يذهب سدى بل ستسترده أضعافاً من طرق الاقتصاد فى المال الذى ينفق إعانة لهذه الأراضى ، ولصيانة الطرق الممتدة فيها (نحو ألفى ميل من الطرق تكلف صيانة كل ميل منها مائة ريال) و إلغاء مائتى مدرسة وألف ميل من خطوط التلفون والتلغراف والأسلاك

التى تسرى فيها الطاقة الكهربية فى المناطق التى ينتظر هجرها . وليس هذا التوفير هو كل ما تكسبه الحكومة ، بل هناك قيمة الخشب الذى يؤخذ من الحراج . قال : « وهذه خطة من شأنها أن توجه شعبنا الى المواقع التى تتاح لهم فيها أعظم فرص النجاح » ذلك بأن رخاء الفرد ورغده ، هما الألف والياء فى كل إصلاح دعا روزفلت إليه .

وثمة ناحية ثالثة تدلك على القالب الذى أُفرغ فيه روزفلت . فقد كان المجلسان التشريعيان مناوئين له . فلم ينزل الى استمالتهما عند ما كان الخلاف بينه وبينهما على مبدإ . بل كثيراً ما كان يعمد الى التحدّى والهجوم . فالعادة فى ولاية نيويورك كانت قد جرت بأن تعنى لجنة مؤلفة من أعضاء الهيئة التشريعية بوضع ميزانية الحكومة ، ثم تقرُّ وتعرض على الحاكم لتوقيعها . فعمد روزفلت إلى عكس ذلك وطلب إلى الهيئة التنفيذية أن تعدَّ الميزانية (كما يحدث فى البلدان البرلمانية مثل بريطانيا ومصر) ثم تعرض على المجلسين للموافقة عليها بعد مناقشتها . فاشتدَّ الاعتراض عليه ، وعمدت الهيئة التشريعية الى تعديلها تعديلاً ، ترك الميزانية الأصلية شبحاً هزيلا ثم أقرّتها بعد التعديل مناوأة ونكاية . فكان ردُّ الحاكم روزفلت ، أن طلب إلى المحكمة العليا فى الولاية الفصل فى الأمر . وإليها مردُّ الفصل فى الخلافات الدستورية . فذُهِل خصومه لجرأته ومفاجأته . وحكمت المحكمة بأن ما فعلهُ الحاكم لا اعتراض عليه مطلقاً من الناحية الدستورية . فأذعن المجلسان التشريعيان .

هذه نواح من عمل روزفلت عند ما كان حاكماً لولاية نيويورك بين سنة ١٩٢٩ و ١٩٣١ وهى تشهدنا على خلقه وأغراضه السياسية العليا . وقد أعرب أهل الولاية إعراباً لا ريب فيه عن موافقتهم على أعمال حاكمهم واتجاهاته ، إذ أعادوا انتخابه حاكماً فى نوفمبر سنة ١٩٣٠ بأكبر أكثرية فاز بها حاكم ما وهى أكثرية ٧٢٥٠٠١ صوت . بينما كانت أكثريته فى الانتخاب الأول لا تزيد على ٢٥ ألفاً . (وهو

يقول ضاحكا عند ما يتحدث عن نتيجة الانتخاب الثانى : إن ذلك الصوت الواحد فى رقم ٧٢٥٠٠١ إنما هو الصوت الذى ألقاه هو لنفسه) .

— ٥ —

عند ما انتُخب روزڤلت ثانية (١٩٣٠) حاكماً لولاية نيويورك ، ارتفع مقامه بين أقطاب الحزب الدمقراطى الذى يحتمل ترشيحهم عن الحزب للرآسة فى سنة ١٩٣٢ . فقد كان من أُسرة عريقة شهر اسمها ثيودور روزڤلت الرئيس الأسبق . وكان حاكماً لأكبر ولاية بين الولايات الثمانى والأربعين ، وقد أعرب شعبها عن موافقته على سياسته بأكثرية (فى الانتخاب الثانى) لا مثيل لها . وكان خطيباً مجيداً استحدث بين الأساليب السياسية أسلوب توجيه النداء إلى الشعب ومخاطبة أفراده على أنهم أصدقاء له ورفاق . فكان من المعقول أن يتجه إليه أقطاب الحزب لترشيحه عن الحزب للرآسة فى سنة ١٩٣٢ . ولكنهم مع ذلك انصرفوا عن ذلك ، أو انصرف فريق كبير منهم وهو الفريق المنظم ، إلى تأييد آل سمث الذى رشحه روزڤلت قبلاً فى سنة ١٩٢٤ فلم يفز بالترشيح الحزبى ، ثم رشحه فى سنة ١٩٢٨ ففاز بالترشيح الحزبى وأخفق فى الانتخاب العام .

كان سمث كاثوليكيًا نشأ بائع صحف فى أفقر أحياء نيويورك (الجانب الشرقى — إيست سيد) ثم دخل ميدان السياسة فتدرَّج رقيًا فى هيئة الحزب الدمقراطى بمدينة نيويورك (تامانى هول) ثم انتُخب عضواً فى الهيئة التشريعية فى عاصمة الولاية (آلبنى) فزعيماً للهيئة الدمقراطية فيها ، ثم انتخب حاكماً لولاية نيويورك أربع مرات فكان حاكماً فاز بالولاء والاحترام . ففى سيرته كثير من العناصر التى ترفع من مقام الرجل بين الأميركيين . ولكنه بعد ترشيحه للرآسة فى سنة ١٩٢٨ و إخفاقه فى الانتخاب عُيِّن رئيساً لمجلس إدارة الشركة الكبيرة التى تدير أعلى ناطحات السحاب

فى نيويورك (إمبير بلدنغ) ومع ذلك لم ينصرف عن السياسة . فبحكم الوضع السياسى الأميركى ظلَّ زعيماً رسمياً للحزب الدمقراطى ، كما أن وندل ولكى هو الزعيم الرسمى للحزب الجمهورى الآن . وهو الذى اختار أعضاء اللجنة القومية للحزب عند ما رشح للرآسة ، فهم يأتمرون بأمره أو يجارونه على الأقل . فسمث فى سنة ١٩٣٠ كان رجلين — أحدهما رجل يُعَدُّ بين كبار رجال الأعمال فى مدينة نيويورك ورجال الأعمال يوافقون عليه لأنه منهم ، والآخر سياسىٌّ عالى المقام فى الحزب الدمقراطى ، لا تزال نزعته إلى الرآسة قوية فيه . وقد حاول سمث فى بدء عهد روزڤلت فى حكم ولاية نيويورك أن يسدى إليه نصحاً بأن لا يشتدَّ فى تحدّى الهيئات المالية الكبيرة ، ولكن روزڤلت أبى أن يأخذ بنصحه ، فنشأ فى البدء فتور بين الصديقين ، ثم لما ظهر مقام روزڤلت بعد انتخابه ثانية لمنصب الحاكم ، وبدا أنه يطمح إلى الترشيح عن الحزب للرآسة فى سنة ١٩٣٢ تحوَّل الفتور عداء لدوداً . وقد كان سمث صريحاً فى إعلان عدائه . وليس هناك ما يثبت أن روزڤلت بادله العداء . ولكنه احتفظ باستقلاله . وقد اتهم روزڤلت بإنكار الجميل حيال سمث لأن سمث هو الذى ألحَّ عليه فى قبول الترشيح لمنصب الحاكم فى سنة ١٩٢٨ . ولكن سمث فعل ذلك ، كما تقدم معنا ، لأنه كان يعتقد أن ترشيح روزڤلت يسدى إليه خدمة فى انتخاب الرآسة . وعلى كل حال اتسعت الهوَّة بين الصديقين . وكان أصحاب سمث من رجال « تامانى هول » وأعضاء اللجنة الدمقراطية يمقتون روزڤلت مقت رجال المال والأعمال الكبيرة إياه . وكانوا يفضلون انتخاب رئيس من الجمهوريين على انتخابه رئيساً . ذلك بأنهم قوم كانوا فى ميدان السياسة لجَنْى ما يستطيعون جَنْيَه منه على الأكثر . وأمَّا روزڤلت فكان مكتفياً بما يملكه من حطام الدنيا ، وإنما أراد السياسة وسيلة إلى خدمة الشعب . فالسياسة فى نظره وسيلة ، وفى نظرهم غاية . وعلاوة على ذلك لم يغتفروا لروزڤلت أمرين — أولهما إخراج صديقهم « ووكر » محافظ مدينة نيويورك

من منصبه عند ما فضحت أعماله ، وثانيهما أنه اتخذ مستشاريه فى الاجتماع والانتقاد من جماعة الأساتذة، بدلاً من رجال الحزب نفسه . وكان بعض هؤلاء المستشارين من الجمهوريين مثل « وَيْنانت » وهو السفير الأميركى فى بلاط سانت جيمز (لندن) .

والواقع أن تنكُّر هؤلاء السياسيين الدمقراطيين فى نيويورك لروزڤلت ، كان مزية له ، على رغم شدة معارضتهم لمطامحه السياسية . ذلك بأن مشروعات روزڤلت فى ألبنى ، وخطبه ، ومناوأة هذا الطراز من السياسيين النفعيين له ، وجَّه إليه أنظار جماعة كبيرة من أصحاب الآراء والأفكار الحرة ، فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة . ومن كان منهم لا يعرفه ، سعى إلى التعرُّف إليه . فبعضهم وافق على ما أعلنه من آراء ومبادىء ، ومنهم مَن رأى فيه زعيماً قد يستطيعون إقناعه بتبنِّى آرائهم ومبادئهم الخاصة ، و بعضهم نزع كما ينزع كثيرون إلى السير فى ركاب رجلٍ ماضٍ إلى القمة .

أما روزڤلت ، فكان يختار الخبراء و يستشيرهم فى كل مسألة من المسائل الاجتماعية والاقتصادية المعقَّدة التى تعرض له . وكان السواد منهم من علماء الاقتصاد ، لأن معظم المشكلات التى كانت تواجهه ، مشكلات اقتصادية . و بينهم أساتذة من جامعات هارڤرد و برنستون وكورنيل ويايل وكولومبيا وغيرها من معاهد التعليم العالى . وهذه الجماعة من الخبراء هى التى أطلق عليها روزڤلت أولاً اسم « مجلسى الخاص » ثم وصفها كيران فى جريدة نيويورك تيمس بلفظى « أهل الفكر » أو « أهل الرأى » Brains Trust

هذه الهيئة كان قوامها فى المقام الأول ريموند مولى وركسفورد تَجْوِل وأدولف برل وهم من أساتذة الجامعات ، ثم روزنمن وأوكونور من رجال القانون ، وهيوجنصن وتَوْسيج من رجال الأعمال . واستعانة مرشحى الرآسة أو الرؤساء بأصحاب الرأى ليست شيئاً جديداً فى تاريخ الرآسة الأميركية . ولكن الشىء الجديد فى هذه الهيئة ، أنها لم تضم فيها أحداً من المشتغلين بالسياسة . فمهمتها فى نظر روزڤلت كانت إعانته

على التفكير ، وعلى استيضاح الأفكار التى تخطر له ، فى شتى المسائل المعقَّدة التى تمتُّ إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . وغير صحيح ما يقوله فريق من أن ذهن روزڤلت كان مجدباً ، فاستعان بهؤلاء ، ولا ما يقوله الفريق الآخر من أن روزڤلت أرادهم — أو أراد معظمهم — أن يكونوا فى منزلة سكرتيرين كبار ، يعيدون طبع ما يكتبه من رسائل و يبحثون له فى المطولات عن الحقائق والإحصاءات التى يحتاج إليها .

والغالب أن روزڤلت كان يقلِّب فى ذهنه ما يخطر له من آراء ، فإذا استجاد رأْياً منها حدَّث زوجه وهاوْ فيه . وكانت زوجه تعرب عن رأْيها فيه من ناحيته الإنسانية ، ومقياسها « ما نفعه ؟ » . أما هاوْ فكان ينظر فيه من الناحية السياسية العملية ، وهل فى الوسع تطبيقه . فإذا خالفه أحدهما أو كلاهما ، حاول روزڤلت أن يقنع المخالف أو المخالفين معاً . فإذا عجز عن الإقناع انصرف حيناً عن الرأْى ثم يعود إليه . ذلك بأن روزڤلت على ثقته بنفسه لم يكن عنيداً أحمق . فإذا امتنعت زوجه الذكية أو صديقه الحكيم عن الموافقة على رأْى ما ، فلا بدَّ أن يكون هناك اعتراض كبير عليه ، أو خطأٌ أساسىٌّ فيه . و إذا كان هذا صحيحاً ، فجديرٌ به أن ينصرف عنه إلى أن يزيل الاعتراض أو يصحِّح الخطأ . أما إذا وافقاه على الرأْى ، فعندئذ يعرضه على الخبراء للنقد والتمحيص والتفصيل .

وقد استعان روزڤلت بهؤلاء الأساتذة فى أثناء حكمه ولاية نيويورك — فى نطاق محدود — ثم فى أثناء حملة الانتخاب للرآسة ، و بعد انتخابه ذهب فريق منهم معه إلى وشنطن ، مع أن المقرَّبين منهم إليه تبدَّلوا تبدلاً كثيراً .

الفصل الرابع

نظام « التوزيع الجديد »

١ — انتخاب الرئيس فى الدستور والعرف

٢ — ترشيح روزڤلت وانتخابه

٣ — أزمة . . .

٤ — فلسفة « التوزيع الجديد »

٥ — الرئيس والمحكمة العليا

تختلف دساتير الدول الجمهورية فى طريقة انتخاب الرئيس ، ومدة رآسته ، وتجديد انتخابه . فجمهورية فرنسا المعروفة بالجمهورية الثالثة كانت تنتخب رئيسها باقتراع فى مجلسى الشيوخ والنواب مجتمعين فى هيئة مؤتمر . ومدة الرآسة سبع سنوات لا مانع دستورى من تجديدها ، ولكن جرى العرف على عدم تجديدها . ومع ذلك فعندما قضت المصلحة بهذا التجديد جددت رآسة المسيو لبران فى سنة ١٩٣٩

وفى جمهوريات أخرى ينتخب الرئيس باقتراع شعبى عام مباشر كما فى بعض جمهوريات أميركا الجنوبية ، ومنها ما يحظر دستورها تجديد انتخاب الرئيس بعد توليه الرآسة مرة واحدة كالمكسيك ، ومنها ما يسمح باعادة انتخابه بعد بقائه مدة رآسة كاملة على الأقل خارج الحكم .

أما فى الولايات المتحدة الأميركية ، فطريقة انتخاب الرئيس معقدة تعقيداً كثيراً ، لأنها بحسب الدستور انتخاب على درجتين ، ولكنها فى الواقع انتخاب مباشر . والطريقة التى يتم بها الانتخاب بحيث يكون مباشراً ولكن بغير أن يهمل النص الدستورى ، هى التى تجعل انتخاب الرئيس الأميركى موضع ظن وتأويل خاطىء عند من لم يتعمق فى دراسة النظم الدستورية الأميركية .

ينصُّ الدستور الأميركى على أن وحدة انتخاب الرئيس فى الجمهورية الاتحادية هى الولاية ، وفى الجمهورية الأميركية ثمان وأربعون ولاية ، متفاوتة مساحة وعدد سكان ، ولكل ولاية الحق فى أن تختار عدداً محدوداً من أبنائها ليكونوا أعضاء فى

ما يسمى عندهم « مجمع الانتخاب » Electoral College أى ليكونوا ناخبين للرئيس . وهذا العدد متفاوت لأنه يعدل مجموع الذين يمثلون الولاية فى مجلسى النواب والشيوخ فى العاصمة الاتحادية وشنطن . وأساس التمثيل فى مجلس النواب عدد السكان. أما التمثيل فى مجلس الشيوخ فجميع الولايات متساوية فيه ، لكل منها ، كبرت أو صغرت ، شيخان يمثلانها فيه .

فلولاية نيويورك مثلاً خمسة وأربعون ممثلاً أو نائباً فى مجلس النواب وممثلان فى مجلس الشيوخ . فلهذه الولاية أن تنتخب سبعة وأربعين عضواً فى « مجمع انتخاب الرئيس » أى سبعة وأربعين ناخباً للرئيس . ولولاية كليفورنيا عشرون ممثلاً أو نائباً فى مجلس النواب وممثلان فى مجلس الشيوخ ، فلها أن تنتخب اثنين وعشرين ممثلاً عنها أعضاء فى « مجمع انتخاب الرئيس » أو اثنين وعشرين ناخباً للرئيس .

ومجموع عدد أعضاء « مجمع انتخاب الرئيس » أى عدد ناخبى الرئيس فى جميع الولايات ٥٣١ عضواً أو ناخباً ، فالأكثرية التى يجب أن يفوز بها مرشح ما للرآسة ، لكى ينتخب هى ٢٦٦ صوتاً .

والدستور ينصّ على أنه بعد ما تنتخب الولايات ناخبيها يتعين عليهم أن يجتمعوا فى عاصمة الولاية ، وأن يكتبوا اسمىْ رجلين ليسا من ولاية واحدة ويضعوهما فى ظرف ويختم وينقل الى عاصمة الاتحاد — أى وشنطن — فيفتحه وكيل الرآسة — وهو بحكم منصبه رئيس مجلس الشيوخ — والاسم الذى يحرز الأكثرية اللازمة ينتخب رئيساً ومن يليه ينتخب وكيلاً .

فيوم انتخاب الرئيس عندهم — وهو يوم الثلاثاء الأول الذى يلى يوم الاثنين الأول من شهر نوفمبر فى كل سنة كبيسة — هو اليوم الذى ينتخَب فيه الناخبون ، أى أعضاء مجمع انتخاب الرئيس .

هذا فى نصوص الدستور . ولكن هذه النصوص طرأ عليها تطوُّر لم يعدِّل حرفها ولكنه عدل طريقة تنفيذها .

ذلك بأن قيام الأحزاب السياسية وتنظيمها جعلا يوم الانتخاب — وهو يوم انتخاب الناخبين — انتخاباً فعليًّا للرئيس .

و بيان ذلك أن فى الولايات المتحدة حزبين كبيرين هما الحزب الجمهورى والحزب الدمقراطى . وهناك أحزاب أخرى كالشيوعى والاشتراكى وحزب الفلاحين وغيرها ، ولكن أتباع هذه الأحزاب كانوا حتى الآن قلةً لا تقدم ولا تؤخر فى انتخاب الرئيس . فالرئيس المنتخب كان حتى الآن مرشح أحد الحزبين الكبيرين .

فى صيف سنة الانتخاب يعقد كلٌّ من الحزبين الكبيرين مؤتمراً يضم ممثلى الحزب من جميع الولايات . وتمثيل الحزب فى ولاية ما ، قائم كذلك على أساس تمثيلها فى مجلسى النواب والشيوخ فى وشنطن . فولاية نيو يوك مثلا يمثلها فى وشنطن خمسة وأربعون نائباً وشيخان، أى سبعة وأربعون ممثلاً . فلأعضاء الحزب الدمقراطى فيها أن يرسلوا إلى مؤتمر الحزب ضعفى هذا العدد ، أى أربعة وتسعين نائباً ، ولأعضاء الحزب الجمهورى فيها أن يرسلوا مثل هذا العدد من الممثلين إلى مؤتمر الحزب الجمهورى . أى أن عدد الذين يجتمعون فى مؤتمر كل من الحزبين يبلغ ألفاً واثنين وستين .

وعند ما يجتمع مؤتمر كل من الحزبين ، تلقى الخطب ، و يوضع البيان الخاص بسياسة الحزب وموقفه من شتى المسائل الداخلية والخارجية . ثم يختار الحزب مرشحه للرآسة ، و يليه اختيار مرشحه للوكالة . وفى هذا الاختيار يكون للمناورات السياسية بين وفود الولايات المختلفة شأن عظيم . فمن وفود الولاية من يجىء المؤتمر ، وهو مرتبط بتأييد مرشح معين من المرشحين البارزين . ومنهم من يجيئه مؤيداً لأحد أبناء الولاية نفسها ، و إن كان أمله فى الترشيح يسيراً . ولكن هذه الخطة تمكّن الوفد من المناورة والمساومة عند ما يشتد النضال بين الطامحين إلى الترشيح ، إذ

يتخلى عن تأييد « ابن الولاية » لكى يؤيد أحد المرشحين البارزين رغبة فى حسم المنافسة واقتناعاً ببعض الوعود . فوفد ولاية تكساس جاء مؤتمر الحزب الدمقراطى سنة ١٩٣٢ وهو مرتبط بتأييد ترشيح جارنر — وهو من أبناء ولاية تكساس وكان رئيساً لمجلس النواب — فلما ثبت أن الأمل فى فوز جارنر ضعيف جداً ، تحول الوفد بعد مساومة الى تأييد ترشيح روزڤلت ، على أن يؤيد أنصار روزڤلت ترشيح جارنر للوكالة .

وقد يظهر فى بدء المؤتمر متنافسان بارزان ولكل منهما فريق قوىٌّ من الأنصار . فإذا لم يفز أحدهما بالأكثرية اللازمة للترشيح فى الاقتراع الأول ، أُعيد الاقتراع ثانية وثالثة ورابعة . وقد أُعيد الاقتراع على هذا الوجه فى مؤتمر الحزب الدمقراطى فى سنة ١٩٢٤ مائة مرة وأربع مرات . فإذا رسخ أنصار كل من المرشحين فى تأييد مرشحهم وعجزوا عن استمالة عدد كاف من أعضاء الوفود الأخرى يضمن له الأكثرية ، فعندئذ يجتمع أقطاب الحزب ، ويقترحون الانصراف عن المرشحين كليهما . وترشيح مرشح ثالث فى الوسع اتفاق الجميع عليه . وفى مؤتمر الحزب الدمقراطى (١٩٢٤) الذى سبقت الإشارة اليه ، كان المرشحان المقدمان آل سمث ووليم مكادو ، ولم يكن فى وسع أحدهما أن يفوز بالأكثرية اللازمة بعد مائة اقتراع وثلاثة اقتراعات ، فاجتمع الأقطاب واتفقوا على ترشيح جون دايڤس ، فرشح فى الاقتراع الرابع بعد المائة بالإجماع أو بما يقرب منه .

وقد يكون أحد الطامحين إلى الرآسة ، قد سبق منافسيه فى الفوز بتأييد الحزب فى غير ولاية واحدة ، فتجىء الوفود الكثيرة إلى المؤتمر وهى مرتبطة بتأييده ، فيختار فى الاقتراع الأول ، أو فى اقتراع يليه . فسمث رشح عن الدمقراطيين فى سنة ١٩٢٨ فى الاقتراع الأول ، وروزڤلت عن الدمقراطيين فى سنة ١٩٣٢ فى الاقتراع الرابع ، ولكن بعد مساومة تقدَّم ذكرها .

وقلما يكون التنافس على الترشيح للوكالة قوياً ، لأن المنصب نفسه ليس مما تصبو إليه النفوس ، ولا سيما نفوس الطامحين إلى ممارسة السلطان فى الدولة . إلاَّ أن الوكيل رئيسٌ لمجلس الشيوخ بحكم منصبه . وإذا توفى الرئيس حلَّ محله وأتمَّ مدة رآسته . فثيودور روزڤلت حلَّ محلَّ مكنلى وقد اغتيل فى بدء رآسته سنة ١٩٠١ ، وكلڤن كولدج حلَّ محلَّ هاردنج وقد توفى سنة ١٩٢٣ قبيل انتهاء رآسته . وفى الحالين انتخب كلٌّ من ثيودور روزڤلت وكلڤن كولدج رئيساً فى الانتخاب التالى ، أى فى سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٢٤ . وإذا كان الوكيل رجلاً ممتازاً ، وكانت المشكلات التى تتعيَّن معالجتها على الرئيس متعددة عُهد إلى الوكيل فى أعمال على أعظم جانب من خطر الشان . فولاس وكيل روزڤلت الآن ، عُهد إليه — فى جملة ما عُهد إليه فيه — فى إدارة مجلس الحرب الاقتصادية ، وفى مهمة البحث والكلام فى أغراض الحرب وأركان النظام الدولى بعدها ، وقد نهض بهذه المهمة على أَوْفَى وجه .

بعد اختيار مرشحى الرآسة والوكالة تبدأُ معركة الانتخاب ، وتستمرُّ وهى آخذة فى الاشتداد مدى الصيف إلى الخريف ، إلى أن تبلغ أَوْجَها قبل يوم الانتخاب بساعات قلائل . وقد يشرِّق المرشحون ويغرِّبون ، ويطوفون فى الولايات ، ويخطبون فى الجماهير من منصّات أعدَّها أنصارهم لذلك ، أو من منصة فى مؤخرة القطار الذى يقلهم . وهم الآن يعتمدون على الإذاعة اللاسلكية ، ولكنها لم تحلَّ محلَّ التطواف ، فالجمهور يرغب فى رؤية المرشح ومصافحته . ولهم فى الدعوة إلى تأييد المرشحين أساليب وعجائب . وقد رُوِى عن ولكى ، منافس روزڤلت على الرآسة فى سنة ١٩٤٠ ، أنه قطع ما يزيد على ثلاثين ألفاً من الأميال فى الأشهر التى سبقت يوم الانتخاب ، واجتاز أربعاً وثلاثين ولاية من الولايات الثمانى والأربعين .

ثم يقبل يوم الانتخاب ، وهو يوم انتخاب الناخبين بحسب الدستور . ولكن الدستور لم يحسب حساباً للأحزاب . فماذا تفعل فى هذا اليوم ؟ يختار كل حزب

عدداً من أعضائه — فى كل ولاية — يماثل عدد الناخبين الذين يحقُّ للولاية أن تنتخبهم . فيختار الحزب الدمقراطى فى ولاية نيويورك سبعة وأربعين عضواً من أعضائه فى تلك الولاية . وكذلك يفعل الحزب الجمهورى . وعند ما يبدأ الاقتراع صباح يوم الانتخاب يقترع المقترع ، فى الواقع ، وفى كل دائرة انتخابية ، لكشف مندوبى الحزب الجمهورى ، أو لكشف مندوبى الحزب الدمقراطى ، أو لكشف ممثِّلى أى حزب من الأحزاب الأخرى ، وفقاً لميله . والقانون لا يحتم الاقتراع لجميع مَنْ فى كشفٍ ما . ولكن العرف جرى به . ثم ينتهى يوم الانتخاب فتفرز الأصوات ، ويعرف أى الكشوف أحرز الأكثرية . فإذا كانت الأكثرية للكشف الدمقراطى ، فجميع ناخبى الرآسة الذين يمثلون ولاية نيويورك فى « مجمع انتخاب الرآسة » يكونون من الدمقراطيين . ولما كان مرشح الحزب معروفاً ، فمفروض أن جميع هؤلاء سيقترعون له ، لأنهم حتماً لا يُختارون إلاّ ممن ثبت ولاؤهم للحزب . وعندئذٍ يذاع أن ولاية نيويورك انحازت إلى مرشح الدمقراطيين . فيوضع بجانب اسمه رقم ٤٧ وهو عدد ناخبى نيويورك . وتحصى نتائج الولايات الأخرى ، فيعرف قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة على انتهاء الانتخاب أىُّ المرشحين فاز بأكثرية ، فيعرَف من ساعتها بوصف « الرئيس المنتخَب » .

ومع ذلك فلا بدَّ من احترام نصوص الدستور ، ولو كان الاحترام صورة لا حقيقة فيها . فيجتمع الناخبون ويسجِّلون على الورق اختيارهم ويرسلونه فى ظروف مختومة مع رُسُل خصوصيين إلى العاصمة ويفتحها وكيل الرئيس وتُفرز وتُعلن النتيجة . ولكن هذا العمل لا يعدو كونه تسجيلاً لنتيجة معروفة لا أكثر ولا أقل .

وكذلك يصحُّ أن يقال إن انتخاب رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، هو بحسب نصِّ الدستور انتخاب غير مباشر ، أى من درجتين ، ولكنه فى الواقع انتخاب شعبى مباشر . وهذا الفارق بين النص والواقع يسبِّب أحياناً مفارقات فى نتائج

الانتخاب قلما يدركها من ليس أميركيًا . فقد يحدث مثلاً أن الفرق بين أصوات « الناخبين » التى ينالها كلٌّ من المرشحين الكبيرين يكون كبيراً ، ولكن الفرق بين عدد أفراد الشعب الذى اقترع للفائز منهما قد لا يزيد كثيراً عن العدد الذى اقترع للآخر . وتفسير ذلك أن أكثرية الفائز فى بعض الولايات الكبيرة قد تكون يسيرة جداً ، أى أن عدد الناس الذين يقترعون لأحدهما لا يفوق إلاّ فوقاً يسيراً العدد الذى يقترع للآخر . ولكن هذا الفوق اليسير كافٍ لجعل جميع أصوات الناخبين (من الدرجة الثانية) فى الولاية كلها فى صف الأول . ففى انتخاب سنة ١٩٤٠ كانت النتيجة كما يلى :

	مجمع الانتخاب	عدد الأصوات الشعبية
روزفلت	٤٤٩	٢٧و٢٤٣و٤٦٦
ولكى	٨٢	٢٢و٣٠٤و٧٥٥

هذا هو النظام فى خطوطه وقواعده الرئيسية . وهناك وجوه من التفصيل لا يتسع المقام لبحثها فى كتاب موضوعه «روزفلت» وليس موضوعه «الرآسة الأميركية». ومن هذه المسائل مثلاً ما يحدث إن كان هناك مرشحو ثلاثة أحزاب كبيرة ، وتوزعت أصوات الناخبين بينهم ولم يفُزْ أحدهم بالأكثرية المطلقة وهى ٢٦١ صوتاً . والردُّ على هذا السؤال الخاص هو أن الدستور احتاط لاحتمال من هذا القبيل إذ منح حق الاختيار لمجلس النواب .

قلنا إن الرئيس ينتخب فى أوائل نوفمبر من كل سنة كبيس ، ولكنه لا يتقلد منصبه إلاّ فى السنة الجديدة . وقد كان الرئيس المنتخب لا يتقلد مهام منصبه إلا فى يوم ٤ مارس التالى للانتخاب . وسبب ذلك أنَّ فترة من الزمن كان لابدَّ منها قبلاً لاجتماع الناخبين من الولايات المختلفة للنهوض بعمل الانتخاب الرسمى و إرسال النتيجة إلى العاصمة . وهذا كان يستغرق وقتاً غير يسير قبل قرن ونصف قرن من الزمان .

ولكن هذا النصَّ عُدِّل من سبع سنوات ، فقدّم ميعاد تنصيب الرئيس الجديد من يوم ٤ مارس إلى يوم ٢٠ يناير ، الذى يلى الانتخاب . وقد كان هذا التعديل قبل التنصيب الثانى لفرنكلن روزڤلت فى مستهل سنة ١٩٣٧ ، فرآسة فرنكلن روزڤلت الأولى (٤ مارس ١٩٣٣ — ٢٠ يناير ١٩٣٧) كانت فى الواقع أقصر رآسة فى تاريخ الولايات المتحدة لأنها امتدَّت من ٤ مارس سنة ١٩٣٣ إلى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٧ وكل رآسة سابقة لها وكلُّ رآسة تابعة لها ، مدتها أربع سنوات تماماً .

وفى يوم تنصيب الرئيس ، يسير الرئيس المنتخب — إذا كان جديداً — مع سلفه من البيت الأبيض ، فى عربة مفتوحة إلى منصة أمام الكابيتول — مقر الكونغرس — حيث يحلف اليمين أمام رئيس المحكمة العليا ، ويلقى خطبة الرآسة .

فما الصفات التى يجب أن يتصف بها الرجل الذى يرشح للرآسة ؟ وما المناقب التى ترجح فوز مرشح على آخر ؟

القيود الوحيدة فى الدستور هى أن يكون الرجل أميركيًّا مولوداً فى الولايات المتحدة الأميركية ، وأن يكون قد مضى عليه أربع عشرة سنة وهو مقيم فيها ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة على الأقل . هذا كل ما فى الدستور .

ولكن الاختبار السياسى خلال قرن ونصف قرن من الزمان انتخب فيها الأميركيون اثنين وثلاثين رئيساً ، أضاف إلى هذه القيود الثلاثة الرسمية أوصافاً أخرى .

خذ مسألة العمر . إن معدل عمر الرؤساء السابقين اثنتان وخمسون سنة عند توليهم مسند الرآسة ؛ فعمر المرشح الذى يغلب ترشيحه يكون قرابة ذلك على المرجح . وليس بين الرؤساء الذين انتخبوا فى السبعين السنة الأخيرة رئيس واحد زاد عمره على ستين أو نقص عن أربعين .

ويجب أن يكون بوجه عام ممن خبروا المناصب السياسية والإدارية فى البلاد . ففى الفترة التى تلت الحرب الأهلية (فى العقد السابع من القرن الماضى) دلّت التجارب على أن الرئيس الذى لا يتصف بهذه الصفة قلما يصيب نجاحاً باهراً فى أثناء رآسته . فهوفر سلف روزفلت تولى منصب وزير التجارة ثمانى سنوات ، ولـكنه لم يكسب فيه المرونة السياسية لأن العمل كان إداريًا على الغالب . وسلف هوفر كان كولدج وقد تولى وكالة الرآسة وقبلها كان حاكماً لولاية ما ستشوستس . وولسن كان حاكماً لولاية نيوجرزى . وقد شذ ولْـكى على هذا لأنه لم يكن عند ترشيحه للرآسة عن الحزب الجمهورى فى سنة ١٩٤٠ قد تولى منصباً ما فى حكومة ولاية من الولايات أو الحـكومة الاتحادية . وهو على ما نعلم أمر فذ فى تاريخ الرآسة الأميركية .

ويجب أن يكون من المذهب البروتستانتى مع أن الدستور لا يعين صفة دينية يجب أن يتصف بها الرئيس أو المرشح للرآسة . ولـكن جميع الذين انتخبوا حتى الآن كانوا من أتباع هذا المذهب على اختلاف شيعه . وقد رشح آل سمث عن الحزب الدمقراطى سنة ١٩٢٨ وهو كاثوليكى ، ولـكنه أخفق فى الانتخاب ، ويقال إن جانباً على الأقل من إخفاقه مردُّه إلى كونه كاثوليكيًا .

نعم إن مذهبه الدينى لم يكن وسيلة ظاهرة توسل بها خصومه لمناوأته . ولـكنَّ أكبر عضد للحزب الدمقراطى ، قائم فى الولايات الجنوبية ، فهى معقل هذا الحزب منذ الحرب الأهلية الأميركية . والولايات الجنوبية متمسكة بالمذهب البروتستانتى ، فكثر التحدث فى مذهب سمث ، وانشقَّ بعض الولايات الدمقراطية هذه على إجماعها التاريخى ، واقترع لهوفر فى انتخاب سنة ١٩٢٨

ويجب أن يكون خطيباً مفوَّهاً ، لأن الدمقراطية الأميركية كالدمقراطية اليونانية فى العصور القديمة ، تميل الى الخطيب البليغ وتتأثر به . وقد كان وليم جننغز بريان خطيباً وُصف بأنه صاحب « الصوت الفضى » وعلى الرغم من خذلانه ، رُشح عن

الدمقراطيين ثلاثاً للرآسة . ولكنه أخفق فيها جميعاً لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من انتشار الراديو — وهو يحتاج الى صفات خاصة فى الصوت والإلقاء — لا يزال المرشحون يطوفون فى البلاد ويخطبون فى الجماهير . وروزڤلت ممتاز فى الناحيتين ، يستطيع أن يقرّب إلى المستمعين أعوص المسائل فى أبسط الألفاظ وأقرب الأمثلة المنتزعة من الحياة اليومية ، فيحس كلٌّ أن روزڤلت يخاطبه خاصة .

ويجب أن يكون من ولاية كبيرة ، موقفها فى الانتخاب على العموم مشكوك فيه . لأنه من المفروض أن يحملها الفخر باختيار أحد أبنائها للرآسة على تأييده . فالولايات الأميركية الجنوبية لم تنجب رئيساً واحداً بعد الحرب الأهلية لأن تأييدها للدمقراطيين كان مضموناً ، فكان الدمقراطيون يبحثون عن ولاية أخرى يهمّهم أمرها . أما الجمهوريون فيعلمون أن أملهم فى انحياز ولاية جنوبية إليهم ضعيف فيعرضون عنها إلى أخرى .

ويجب أن يكون مشهوراً بالنزاهة والخلق الكريم والحياة العائلية التى لا تشوبها شائبة . وأكثر الذين انتخبوا للرآسة على هذا ، وإن شذَّ بعضهم ، ولكن هذا البعض نفرٌ قليل .

إن الرجل الذي تجتمع فيه هذه الصفات نادر ، ولكنها جميعاً من المسائل التى ينظر فيها نظراً دقيقاً عند ما تجتمع الأحزاب للترشيح ، ويتأثر بها الجمهور تأثراً عظيما فى تأييد مرشح ما قبل اجتماع مؤتمر الحزب ، فى ما يعرف عندهم بالانتخابات الأولية (Primaries) . ومع ذلك فقد تجتمع فى فرد ما جميع هذه الصفات ولا ينتخب أو قد لا يرشح ، لأن تيارات السياسة وعقل الجمهور من الناس ، من القوى الاجتماعية التى لا تقاس ولا توزن .

— ٢ —

اجتمع مؤتمر الحزب الدمقراطى فى مدينة شيكاغو لاختيار مرشح الدمقراطيين للرآسة ومرشحهم للوكالة . وكان ذلك فى أواخر يونيو سنة ١٩٣٢ . وكان مدير شؤون روزڤلت رجلاً يدعى «جم فارلى» وهو من نوابغ ساسة الأحزاب فى الولايات المتحدة ، نشيط لا يعييه سفر ، معسول اللسان لا يأباه خصم ، حكيم واسع الاطلاع على شؤون المشتغلين بالسياسة فيعرف كيف يكسب الأصحاب والأنصار . وكان قد مضى عليه فترة من الزمن مشتغلاً بشؤون نيو يورك السياسية ، وناب عنها غير مرة فى مؤتمر الحزب الدمقراطى ، فتعرّف الى زعماء الحزب الدمقراطى فى سائر الولايات. فلما بزغ نجم روزڤلت فى ولاية نيويورك ناط فارلى مركبته به . وتبين فيه روزڤلت الكياسة وحسن التدبير فندبه أولاً لمهام سياسية شتى ثم عيّنه مديراً لشؤونه الخاصة بالترشيح للرآسة ، وهى عادة جروا عليها فى الولايات المتحدة ، إذ يختار كل طامح إلى الرآسة رجلاً يصطفيه ويثق به لتدبير أموره والدعوة له . فطوّف فارلى فى الولايات فى الأشهر السابقة لمؤتمر الترشيح ، واتصل بهيئات الحزب الدمقراطى وأقطابها واستمالهم إلى روزڤلت . فلما اجتمع الحزب واقترع الاقتراع الأول ، ظهر أن روزڤلت أقوى المرشحين تأييداً ، إذ نال ٦٦٦ صوتاً ، ولكن هذا العدد من الأصوات ، لم يكن كافياً لترشيحه ، لأن القواعد المتبعة فى الحزب كانت تقضى بأن الترشيح لا يتم إلا إذا أحرز مرشح ما أكثرية الثلثين وهى ٧٧٨ فلا بد من الاقتراع ثانية وثالثة وإلى أن يفوز أحد المرشحين بثلثى الأصوات .

وكان آل سمث ، صاحب روزڤلت القديم ، أكبر منافس له على الترشيح للرآسة . نعم إنه رُشح عن الحزب فى سنة ١٩٢٨ وأخفق فى الانتخاب . ولكنه ما يزال طامعاً بالترشيح ، ولا سيّما فى هذه السنة — سنة ١٩٣٢ — التى بدا فيها

أنَّ المرشح الدمقراطى كائناً من كان ، سيفوز على هوڤر مرشح الجمهوريين لأن الأزمة الاقتصادية التى عانت البلاد شدائدها ألصقها الشعب بباب هوڤر وحزبه . وكان سمث يعلم أن مرشحين كثاراً ظفروا فى الاقتراعات الأولى بكثرة من الأصوات ، ولكن مدَّهم تحوَّل بعد ذلك جَزْراً ، ولم يفوزوا بالثلثين اللازمين للترشيح فرشح غيرهم . ومع أنه أدرك قوة روزڤلت عند ما رأى نتيجة الاقتراع الأول ، فإنه لم يسلِّم بالهزيمة ولا قطع حبل الأمل ولكنه لم يعلم أن فارلى وهاوْ الداهيتين لم يغفلا فرصة لكسب الأنصار لروزڤلت . وقد كان الاعتراض على سمث قويًّا من ناحيتين . أما الأولى فمن ناحية صلته بالمموِّلين الكبار . وهذا أمرٌ يأباه فريق الأحرار فى الحزب . وأما الثانية فالخوف من أن يكون تجديد ترشيحه بعثاً للمسألة الدينية المعقَّدة . وقد رُشح فى سنة ١٩٢٨ فعجز عن الفوز فى جميع ولايات الجنوب التى تعدُّ معقل الدمقراطيين . فكان الحزب يخشى بوجهٍ عام أن انتخاب سمث رئيساً مستحيلٌ ، مهما تكن الفرصة مواتية لانتخاب آخر ، وكذلك يقضى على الحزب إذا رشح سمث ثانية ، أن يبقى فى « بادية السياسة » أربع سنوات أخرى على الأقل ، وربما ينشقُّ على المسألة الدينية فلا تقوم له قائمة بعد . وكان فى المؤتمر خصمٌ ومنافسٌ قديم لسمث ، هو وليم مكادو . وهو الرجل الذى نازع سمث الترشيح فى سنة ١٩٢٤ وبعد مائة اقتراع وثلاثة اقتراعات اضطرَّ مؤتمر الحزب أن ينصرف عن كليهما إلى ترشيح دايڤس . وكان مكادو رئيس وفد ولاية كاليفورنيا ، وعدد أصواته أربعة وأربعون صوتاً . وكان فارلى يقظاً ، متنبهاً لانتهاز الفرص . فاختلى بزعماء وفد كاليفورنيا ، وكذلك بزعماء وفد تكساس — وكان مرشح هذا الوفد للرآسة جارنر رئيس مجلس النواب — فاتفق معهم على أن ينقلبوا إلى تأييد روزڤلت ففعلوا ، وكذلك كسب روزڤلت الأغلبية اللازمة للترشيح فى الاقتراع الرابع ، ثم تحوَّلت الأغلبية إجماعاً وهتافاً عامًّا .

إلاّ أن ترشيح روزڤلت فى مؤتمر الحزب الدمقراطى ، على الوجه الذى تمَّ ، لم

يمضِ بغير ذيل . ولعلّ الذيل كان أشدّ استرعاء لأنظار الأمة ، وأدلّ بياناً على خُلُق المرشح الجديد والطريق الذى ينوى أن يمضى فيه ، من كل ما حدث فى المؤتمر أو سبقه من تمهيد . فقد جرت العادة فى الولايات المتحدة أن يعمد مؤتمر الحزب بعد اختيار مرشحه للرآســة ، إلى اختيار مرشحه للوكالة كذلك . (وقد اختار الحزب الدمقراطىّ فى سنة ١٩٣٢ جارنر مرشحا للوكالة وكان عندئذٍ رئيس مجلس النواب) ثم تنصرف الوفود من الولايات المختلفة إلى مواطنها . وتعيّن لجنتان من قبل الحزب لتذهب بعد أسابيع إلى دارىْ المرشحين لإنبائهما بأنهما رُشِّحا عن الحزب ، فيُلقى كلٌّ منهما خطبة يقبل فيها هذا الترشيح ، ويكون ذلك إيذاناً ببدء معركة الانتخاب . وظنّ أعضاء مؤتمر الحزب الدمقراطى فى سنة ١٩٣٢ أن هذه العادة ستتّبع فى إنباء روزڤلت وجارنر . ولكن روزڤلت من الرجال الذين لا يعبأون كثيراً بالعرف والتقاليد إذا لم يكن فى المحافظة عليها خيرٌ ما . وكان روزڤلت فى ألبنى عند ما علم من إذاعات الراديو أنه رُشح للرآسة عن الحزب الدمقراطى ، فقرّر فى الحال أن يستقلّ طائرة إلى شيكاغو لإلقاء خطبة القبول فى المؤتمر قبل انفضاضه ، لأنه — على قوله — لم يدرك معنًى ما ، للتظاهر مدى أسابيع بأنه لم يعلم أنه رشح ، منتظراً إنباءهُ وفقاً للعرف المتّبع .

استقبل روزڤلت فى المطار جمهورٌ كبير من أنصاره والمعجبين به . وعند ما نزل من الطائرة مستنداً إلى ذراع أحد أبنائه ، وقف قليلاً وابتسم ، فارتفعت صيحة الجمهور بالتهليل يتخللها لفظ « الإلغاء » « الإلغاء »[1] وما دخل منبر البهو الذى اجتمع فيه المؤتمر حتى هبّ الرجال والنساء إلى الوقوف لتحية هذا المُقعد الذى غلب المرض ، وعليه عُقدت الآمال لغلْب الأزمة . وعرض عليه رئيس المؤتمر كرسيًّا يجلس فيه ، ولكنه فضّل الوقوف مستنداً إلى المنصة أمامه ريثما تخفت الضوضاء ثم رفع يده وبدأ يتكلم :

(١) إلغاء قانون تحريم المسكرات .

يا حضرة الرئيس ولش ، أصدقائى ! إننى شاكر لكم قبولكم ، بعد ستة أيام من الضنى ، أن تلبثوا هنا قليلاً ، لأننى أعلم ساعات الأرق التى مرَّت بكم وبى . ويؤسفنى أننى تأخرت ، ولكننى لا أستطيع السيطرة على رياح السماء[١] ، وإنما أحمد الله على تربيتى البحرية ... إن ظهور مرشح للرآسة أمام مؤتمر الحزب الذى رشحه قبل إرفضاضه ، ليتلقى الإنباء بترشيحه ، عمل غير مألوف ولا سابقة له ، ولكن هذه الأيام غير مألوفة ولا سابقة لها . وقد شرعت فى النهوض بالأعباء التى تواجهنا بالخروج على تقليد سخيف مؤداه أن يبقى المرشح جاهلاً ، جهلاً مطبقاً ، ما حدث بضعة أسابيع ، الى أن ينبأ رسميًّا بذلك . فليكن يا أصدقائى هذا العمل رمزاً لنيتى وعزمى على أن أكون صادقاً ، وأن أجتنب كل رياء ومواربة ، وأن أصدف عن الازورار عن الحقيقة فى هذه المعركة . لقد رشحتمونى وأنا أعرف ذلك ، وقد جئت إلى هنا لأشكر لكم الشرف الذى أوليتمونى إياه . فليكن خروجى على العرف رمزاً . وليكن همٌّ حز بنا من الآن الخروج على التقاليد السخيفة . إننا سنخرج على التقاليد السخيفة ، وسنترك لزعامة الحزب الجمهورى الخروج على العهود وهى أبرع فى هذا الفن . . . »

وقد راجعت وأنا أكتب هذه السطور ، مراجعة دقيقة هذه الخطبة كما هى منشورة فى المجلد الأول من مجموعة خطب فرنكلن روزڤلت وأوراقه الرسمية[٢] فتبينت فيها كثيراً مما يصحُّ أن يعدَّ نواة فلسفة روزڤلت السياسية والاجتماعية ، علاوة على أساليبه السياسية .

فبعد المقدمة التى نقلت بعض عباراتها ، وصف القواعد التى تقوم عليها مثل الحزب الدمقراطى فى السياسة والاجتماع فقال : « وإذ نخوض المعركة الجديدة ، يتعين علينا

---

(١) تأخرت الطائرة بسبب عاصفة .

(٢) Public Papers and Addresses of Franklin. D. Roosevelt

أن نولى وجهنا دائماً شطر مُثُل الحزب العليا . فالحزب الدمقراطى كان بحكم تقاليده ومنطق التاريخ المستمر حامل لواء نزعة الحرية والتقدم ، وفى الوقت نفسه لواء المحافظة على منشآتنا . فإذا عجز هذا النداء عن التأثير فى نفوسكم ... فإنَّ عجز زعماء الجمهوريين عن حل مشكلاتنا قد يتحول الى تطرُّف جامح . . . إن هذه الظاهرة الاجتماعية العظيمة التى نصفها « بالضائقة » تختلف عما سبقها فى أنها لم تسفر عن مظاهرات تنزع الى الشغب ، وهى المظاهرات التى تصحب عادة مثل هذه الأيام العصيبة . فالتطرف الجامح لم يفز إلا بأنصار قلائل ، وأعظم ثناء نستطيع أن نسبغه على أبناء أُمتنا هو شيوع روح النظام والرجاء بين ملايين منهم فى أيام الفاقة والألم الشديد . فإذا أخفقنا فى أن نتيح لهم فرصة جديدة ، فإننا لا نخيب رجاءهم وحسب ، بل نسىء فهم صبرهم . لأننا إذا واجهنا التطرف بالرجعية ، فقد مهدنا الطريق لحدوث الكارثة . فالرجعية لا تقوم حائلاً فى وجه التطرف . إنها تحدٍّ له واستفزاز . والطريق الوحيد لمواجهة الخطر هو وضع خطة عملية للتعمير والإنشاء ، والحزب الذى يستطيع أن يفعل ذلك إنما هو حزب طاهرُ اليدين . وهذا وحده ، ودون غيره ، هو ما يحمى الأمة من التطرف الأعمى فى الناحية الواحدة ، ومن التخبط الانتهازى فى الناحية الأخرى » .

ثم بيَّن روزفلت أن ما يقع على عاتق الحكومة من واجب فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية العامة ، ينظر إليه من ناحيتين . أما النظرة الأولى فهى امتياز فئة قليلة من الشعب ، على أن يتسرب منها بعض مزايا العيش الرخى إلى الطبقات التى دونها وهى كثرة الشعب . وهذه النظرة ليست نظرة الحزب الدمقراطى . « إن الزمن ليس زمن الخوف أو زمن الرجعية والإحجام . و إن فى الأمة رجالاً ونساء أُهملوا إهمالاً فى حساب الفلسفة السياسية التى طبقتها حكومتنا فى السنوات الأخيرة ، وهؤلاء ينظرون إلينا لإرشادهم و إتاحة الفرص لهم للمشاركة مشاركة أقرب إلى الإنصاف فى

الثروة القومية . . . إن فى المزارع والمدن الكبيرة والمدن الصغيرة والقرى ملايين من المواطنين عاقدين الأمل على أن معايير معيشتهم وتفكيرهم القديمة لم تزُلْ . ولا يجوز لهؤلاء الملايين أن يخيب أملهم ولن نخيبه . . فأنا أقطع على نفسى عهداً بنظام « توزيع جديد » للشعب الأميركى » .

هنا أصل « الرجل المنسى » فى خطب روزفلت التالية خلال معركة الانتخاب . وهنا كذلك أول ذِكْرٍ رسمى للفظى « التوزيع الجديد » اللذين أصبحا فى الولايات المتحدة، خلال رآسة روزفلت عنوان صفحة جديدة فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية .

ومضت معركة الانتخاب من يوليو إلى الأيام الأولى من نوفمبر ، جوَّل روزفلت فى خلالها مشرِّقاً ومغرِّباً ، وألقى طائفة من الخطب الكبيرة التى أعدَّها بعناية عظيمة لأنه عالج فيها أهمَّ الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية التى تشغل الناس، وألقى كذلك مئات من الخطب المرتجلة ، هنا وهناك . وقد عددتُ الخطب الكبيرة التى ألقاها ، وهى مسجلة فى المجلد الأول من مجموعة أوراقه الرسمية ، فاذا هى تسع عشرة خطبة كبيرة ألقاها فى ثلاث عشرة ولاية منها نيويورك ونيوجرزى على الساحل الشرقى ، ومنها وشنطن وكليفورنيا على الساحل الغربى ، والمسافة بين الساحلين نحو ثلاثة آلاف ميل . وقد عالج فى كلٍّ منها تقريباً ، مشكلة رئيسية من مشكلات الأمة الأميركية علاج محقق يتوخى الحقيقة ومصلح يتوخى العلاج . ومن هذه الموضوعات « قانون تحريم المسكرات » و « إحياء الزراعة » و « منزلة شبكة سكك الحديد فى الاقتصاد الأمريكى » و « توليد الطاقة الكهربية » و « أُسس الحكومة » و « فلسفة العدل الاجتماعى عن طريق العمل الاجتماعى » و « مكافحة التخريب والتأخير والخداع والقنوط » وما أشبه .

والغالب عند أهل الرأى من متتبعى السياسة الأميركية والواقفين على دخائلها أن الشعب الأميركى انتخب روزفلت رئيساً فى سنة ١٩٣٢ لأنه كان قد ملَّ هوفر

وأسند اليه ، صواباً أو خطأً ، جميع بلايا الأزمة الاقتصادية . ثم لأنه رأى فى روزڤلت قائداً جريئاً قد يتمكن من قهر أصحاب السلطان المالى . وقد يميل فريقٌ من الكتاب إلى الإعلاء من شان العامل الأول فيقول : « إن هوڤر هو الذى انتخب روزڤلت » . ويميل فريق آخر إلى القول بأن خطب روزڤلت الكبيرة فى أثناء معركة الانتخاب حَوَت وعداً بعهدٍ جديد ، فمالت اليه الكثرة من الشعب . والتقديم والتأخير فى منزلة العاملين فى انتخابه مردُّهما الى وجهة النظر الخاصة .

وأخيراً جاء يوم الانتخاب وكان يوم الثلاثاء ٨ نوفمبر ١٩٣٢ وكان روزڤلت مع فريق من أقرب المقرَّبين اليه فى حجرة خاصة فى فندق بلتمور Biltmore بمدينة نيو يورك حيث أنشأ الحزب الدمقراطى مقرَّه . هناك علم روزڤلت أنه انتخب رئيساً ، وأن أكثريته فى مجمع انتخاب الرئيس بلغت ٤٧٢ صوتاً مقابل ٥٩ صوتاً لندِّه ومنافسه هربرت هوڤر ، وأن جميع الولايات قد انحازت إليه ما عدا ستَّ ولايات .

— ٣ —

بين انتخاب روزڤلت فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٢ و بين تنصيبه رئيساً فى ٤ مارس ١٩٣٣ تفاقمت الحالة الاقتصادية والمالية فى الولايات المتحدة الأميركية . فأوصدت بنوك كثيرة أبوابها فى وجوه الذين أودعوا أموالهم فيها ، وتوقفت شركات متعددة عن توفية التزاماتها ، وتردَّدت أصداء هذه الحوادث فى حياة الناس ، فزال شعور الثقة بالمستقبل ، وضاعت أموال التوفير وهى مُعتَمَد الشيوخ والمتقاعدين عن العمل ، ونُزِعت دورٌ من ألوف الأُسر بعد ماعجز أربابها عن توفية أقساطها الرتيبة . وتألفت زُمَرٌ من الشبان والشابات تذرع البلاد هائمة على وجهها بغير قصد أو غاية ، وأخذت طوائف كبيرة من العمال المتعطلين عن العمل ، تتنقل بين منطقة صناعية وأخرى بحثاً عن عمل غدا كالسراب حتى ضاقت بهم القطرات ، وبدرت بوادر العنف

بين الفلاحين فى الولايات المتوسطة ، عند ما عجزوا عن بيع محصولاتهم فبادر من بادر إلى مصادرتها استيفاء للديون . و بلغ عدد المتعطلين عن العمل رقماً يتفاوت بين ثمانية ملايين ونصف مليون و بين سبعة عشر مليوناً . وهذا التفاوت مردُّه إلى وجهة النظر وتعريف التعطُّل . ويروى غير واحد من الكتَّاب ، أنه كان من المتعذر على أحد أن يقطع ربع ميل فى مدينة ما بغير أن يلقى من يقول : « قل يا صاح أمستغنٍ أنت عن ربع ريال » .

ماذا دهى هذه الأرض الغنية الخصبة الخيِّرة حتى يموت الصغار فيها جوعاً ، وينزع أكبر منتجى القمح والذرة فى العالم الى الثورة ؟ لو أن حرباً اجتاحتها أو لو منيت بجفاف جفف ضرعها أو جراد التهم زرعها ، لفهمت ناحية من هذه الأزمة الخانقة ؛ ولكن الولايات المتحدة لم تنزل بها كارثة حرب أو جفاف أو جراد ، كل شىء كان فيها وافراً ، الملبس والمأكل والمال . ولكن المال كان متجمداً فى البنوك . و « الاعتماد المالى » وهو فى منزلة السيال الحيوى المندفع فى عروق الحياة الاقتصادية ، كان محتضراً لأن الثقة ماتت . ومع ذلك فالفلاحون والتجار الصغار وملايين الناس فى حاجة إلى النقد فى جميع معاملاتهم ، ولكن النقد كان عزيزاً ، أو ممتنعاً . ذلك بأن نظام التوزيع فى الأمة ، كان قد أصيب بالشلل ، فالوفاض خالية على مقربة من خزائن المال ، والناس يموتون جوعاً ، يحيط بهم الوفر من كل جانب .

ولم يكد ينتصف شهر فبراير من سنة ١٩٣٣ حتى بدت فى الأفق نذُر الانهيار المالى التام . ففى اليوم الرابع من شهر فبراير ساءت حالة طائفة من البنوك فى مدينة دترويت بولاية مشيغن — وهى حاضرة صناعة السيارات الاميركية — سوءاً ، حمل كومستك حاكم الولاية ، على إصدار أمر بمنح بنوك الولاية إجازة مداها ثمانية أيام . فسرت فى طول البلاد وعرضها حملة كانت همساً فى البدء ثم ما لبثت حتى تعالى القول فيها حتى أصبح جهراً وصياحاً . ها هو ذا رجل يقابل صاحبه فى الشارع فيقول له

همساً : الحال تنذر بسوء المصير ، ويُروى أن الناس يهرعون الى البنك الفلانى فى الشارع الفلانى لاسترداد ودائعهم . نخير لك أن تستردَّ مالك . وسرى القول بين أصحاب البنوك أنفسهم : « الأحوال تنذر بسوء المصير . نخير لك أن تبيع سنداتك وأسهمك . حوِّلها جميعاً نقداً . استردَّ ودائعك فى نيويورك » . وانتشر بين أصحاب الثروات الكبيرة : « حوِّل كل ما تملك إلى نقد . اشترِ ذهباً اذا استطعت » . وقطع القول المحيط الأطلنسى إلى أوربا : « بع الدولار . اسحب الذهب من الولايات المتحدة الأميركية » . وكذلك سرى الجمود فى أداة البلاد المالية ، والذعر فى النفوس وتطرَّق إلى الأداة الصناعية والتجارية فمشت متثاقلة إلى الوقوف . ولم يكن فى وسع هوفر أن يفعل شيئاً لردِّ الذعر ، فالأرض نفسها كانت تميد تحت قدميه .

ودقت ساعة التاريخ ، دقًّا متسارعاً ، كما يسرع نبض العليل المشفى .

وفى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير ، وهو اليوم الذى تلا إعلان « إجازة البنوك » فى مشيغن ، كاد التاريخ الأميركى ، بل التاريخ العالمى ، أن يتغير على يد مغتال مهووس . ذلك أن روزفلت الرئيس المنتخب كان قد ذهب فى زيارة إلى بلدة ميامى بولاية فلوريدا وكان يصحبه « شرماك » محافظ مدينة شيكاغو ، وفريق من الصحب ، فتغلغل رجل يدعى « زانجرا » فى الجمهور وسدد رصاصة الى الرئيس المنتخب فأخطأه ولكنهُ أصاب « شرماك » فوقع مضرجاً بدمه ، فلفظ مع نفسه الأخير وهو شاخص إلى روزفلت مبتسماً : « أنى أصبت خير من أن تصاب أنت » .

هذا الحادث رفع من منزلة روزفلت عند الشعب الأميركى ، ومهد له بعض التمهيد على الأقل ، سبيل السلطان النفسى اللازم لمعالجة الحوادث الخطيرة التى واجهها يوم نصِّب رئيساً بعد انقضاء سبعة عشر يوماً على الحادث .

وتوالت الأيام ، مثقلةً مربدةً والهمة مبذولة فى مشيغن لإصلاح الحال والتمهيد لفتح البنوك . فاجتمع مديرو البنوك ومديرو مصانع السيارات فى دترويت للبحث

فى وسائل الانقاذ . وهمهمت أسلاك التليفون بأحاديث أقطاب الصناعة والمال ورجال الحكومة فى دترويت ونيويورك ووشنطن ، فلم تفض إلى حل . وفى خلال ذلك كانت السيارات المصفحة تسرى بسرعة من مدينة إلى مدينة ناقلة النقد اللازم إلى البنوك التى حاصرها الجمهور . ودلّت أرقام بنوك « الاحتياط الاتحادى » (Federal Reserve) على إقبال الناس على اختزان المال ، وعلى سرعة سحب الذهب من الولايات المتحدة ، فتفاقم الذعر .

وفى اليوم الحادى والعشرين من فبراير ، أذيعت أقوال شهودٍ دعوا إلى الشهادة أمام لجنة من لجان مجلس الشيوخ فى وشنطن ، فإذا هى تحتوى على أقوال تبعث على القلق عن سلوك طائفة من أرباب المال والأعمال فى الولايات المتحدة . فرجلٌ يدعى « تشارلز متشل » مثلاً — رئيس مجلس إدارة « ناشونال ستى بانك » بنيويورك — كان قد تناول خلال سنوات ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٢٩ من هذا البنك وفروعه والبنوك المتصلة به ، مبالغ تفوق ثلاثة ملايين من الريالات عمولة ومكافأة ، ومع ذلك توسّل بجميع أسباب وسائل الاحتيال والمداورة ، لكى ينجو من دفع ضريبة الدخل عليها ، ففضحت هذه الأساليب . وظهر فى اليوم التالى أن البنك كان قد اتخذ من التدابير ما يحمى كبار رجاله من خطر المقامرة بأسهمه بينما اقتضى من صغار الموظفين آخر فلسٍ ، مع أن الأسهم كانت فقدت معظم قيمتها ، ولم يكن فى هذا التدبير إجرام بمعنى المخالفة لحرف القانون ، ولكنهُ كان خيانةً إجتماعية أخلاقية . فما عرفت هذه الحقائق ، حتى اضطرمت الصدور حنقاً على رجال الأعمال والمنشآت المالية الكبيرة ، وكأنَّ ناراً خامدة قد نثر عنها الرماد ، وإذا الشعلة تكاد تكون متلظية ملتهمة .

وفى اليوم الرابع والعشرين من فبراير ، هرع الناس إلى البنوك فى مدينة بلطيمور بولاية ماريلند ، فأصدر الحاكم رتشى أمراً بإجازة للبنوك . وفى اليومين التاليين

٢٥ و٢٦ فبراير (وكانا يومى سبت وأحد) استحفل الذعر فى ثلاث مدن بولاية أوهايو، وفى اليوم التالى استقال متشل من رآسة مجلس إدارة « ناشونال ستى بانك » . فكأن أحد أمراء المال قد نزل عن عرشه خشية مدٍّ متعال من النقمة العامة .

وقد أشار روزفلت فيما بعد إلى هذه الحادثة وما كان من قبيلها إشارة بليغة فى خطبة تنصيبه قال — إن أعمال الصيارفة الذين لا ذمّة لهم ، مَدينةٌ الآن فى محكمة الرأى العام . منبوذة من قلوب الناس وعقولهم . وقال فى مكان آخر من الخطبة نفسها : إن أن الصيارفة فرُّوا من مقاعدهم فى هيكل الحضارة فنستطيع أن نقفهُ وقفاً جديداً على الحقائق الخالدة ، ومدى هذا الوقف مرتبط ، بمدى ما نحلّهُ من القيمة الاجتماعية النبيلة محلَّ الرغبة فى النفع المالى .

وانتشر الذعر من ولاية أوهايو إلى ولاية أنديانا فولاية كنتكى فولاية بنسلفانيا .

وأقبل اليوم الأول من شهر مارس . فأعلنت ولايتان أخريان « إجازة بنوك » فيهما ، وفى المساء تبعتهما أربع ولايات أخرى . وفى اليوم التالى اقتفت أثرها عشر ولايات غيرها . وظلّت البنوك مفتوحة فى المدن الواقعة فى ولايات لم تعلن فيها « إجازة البنوك » ، ولكن فتحها كان مقيداً بقيود دقيقة وأعمالها المالية لم تكن طبيعية .

فى ذلك اليوم ذهب روزفلت من نيويوك إلى وشنطن فى قطار خاص . وقضى معظم ساعات الرحلة يتحدث مع فارلى (مدبِّر شؤونه فى الترشيح وحملة الانتخاب) عن حاجة الناس إلى الإيمان والتدين فى أزمات الحياة . هذا الرجل الذى كانت أعطافهُ ممتلئة بشاشة وتفاؤلاً وفرحة بالحياة ، كان يعلم وهو فى القطار ، أنهُ متجهٌ إلى إعصار ، وأنهُ لا تنقضى ساعات حتى يُلقى على كتفيه وشاح الرآسة ، وعلى كاهله تبعة اتخاذ قرارات خطيرة سريعة ، ومهمة توجيه الولايات المتحدة ، فى بحر صاخب من التمرد النفسى الناشئ عن الانهيار الاقتصادى . وكانت معالم هذا التمرد ، إضطراباً آخذاً فى الانتشار بين الفلاحين والمتعطلين عن العمل ، ونقمة متعالية على أرباب

المال ، وشوقاً عميقاً إلى عمل سحرى ناجع يردُّ الإعصار وينقى الجوَّ فتصل السفينة إلى برِّ السلامة .

وما أقبل مساء اليوم الثالث من شهر مارس — وهو المساء السابق لصباح حفلة التنصيب — حتى كان الإعصار المالىُّ يلهب بسياطه الهوج ، مدينتى شيكاغو ونيو يورك وهما أمنع المعاقل المالية فى البلاد . وفى الساعة الرابعة والنصف من صباح الرابع من مارس ، عنا المعقلان للإعصار ، فأعلن « لمين » حاكم ولاية نيورك ، « وهورنر » حاكم ولاية إيلينوى « إجازة بنوك » فى الولايتين فى وقتٍ واحدٍ تقريباً بغير اتفاق بينهما . وعند ما استيقظ هوفر فى الساعة السادسة ، ليتأهب للنهوض بآخر ما عليه من أعباءِ الرآسة — وهو مرافقه خلفهِ إلى منصّة التنصيب — قيل لهُ ، وهذا آخر يومٍ من أيامهِ فى الرآسة ، إن النظام المالى فى الولاية المتحدة ، قد خبت فيهِ الحياة فقال : « هذا منتهى الحيلة . وليست ثمة ما نستطيعهُ بعدُ »

وكذلك نزل الستار ليرتفع بعد ساعات أمام الكابيتول عن مشهدٍ آخر

كانت خطبة روزفلت فى حفلة تنصيبهِ رئيساً يوم ٤ مارس ١٩٣٣ خطبة زعيم دمقراطىٍّ فعَّال . ولم تكد تنقضى ساعة واحدةٌ على ألقائها حتى تحوَّل زعيم الحزب الدمقراطى زعيماً للأمة الأميركية . وليس ثمة ريب فى أن الخمود الذى نزل على الحياة الاقتصادية الأميركية فى فجر ذلك اليوم ، حمل الناس على الأشرئباب إلى كلّ قولٍ أو تلميح من الرئيس الجديد ينطوى على معنى الغوث والنجاة . وليس ثمة ريب كذلك فى أن روزفلت ، أفصح عن ضمير الناس عند ما قال « الأمة تطلب عملاً وستأخذ عملاً » وأن الأمة تبيَّنت فى نَبرات صوتهِ ثقة كانت تعوزها .

ولكن وراء هذه الثقة حقيقةً ، إن لم تكن مستترة فإنها لم تعلن . ذلك بأنَّ خطبة روزفلت هـذهِ ، كانت صدًى لخطبة أُخرى سبق لهُ إلقاؤها . أما الخطبة الأولى فلم تلق على سمع أحدٍ ، أو على سمع واحد أو اثنين من المقرَّبين . وأما الخطبة

الثانية فيقدَّر عدد الذى سمعوها بخمسة وعشرين مليوناً من الأميركيين . ولكنَّ المعنى كان واحداً فى الخطبتين ، مع أن الأولى كانت عبارة واحدة فاضت من القلب على اللسان ، والثانية أعدت بعناية واستغرقت نصف ساعة أو تزيد من الإلقاء .

قال روزفلت يوم ٤ مارس ١٩٣٣ : « واسمحوا لى بأن أعلن يقينى بأن الشىء الوحيد الذى نخافهُ إنما هو الخوف . . . وإننى لأتقلد بغير تردُّد قيادة هذا الجيش العظيم من شعبنا ، المستعدّ لهجوم منظّمٍ على مشكلاتنا المشتركة » .

كانت العبارات البليغة تتوالى بين شفتيهِ وعليها سمة الإيمان ولكن قولتهُ أمام زوجهِ عند ما أقعده المرض (سأقهر هذا الشىء) لم تكن دون هذه العبارات بلاغةً وإيماناً. شرِّحْ خطبة التنصيب الأولى ، فلا تجدها تختلف عن قولهِ سأقهر هذا الشىء إلاّ فى تحويل الضمير من المتكلم المفرد إلى الجمع .

سمع الناس فأعجبوا وآمنوا .

أى استقبال هو هذا الاستقبال التى أعدّتهُ المقادير للرئيس الجديد !

البنوك مقفلة الأبواب ، والحياة الاقتصادية مشلولة الأعضاء ، والناس فى غمار موجة من الذهول والخوف ! ها هى ذى المرّة الثانية ، التى بلغ فيها روزفلت مكاناً من الحياة ، كان يحقُّ لهُ فيهِ أن يتطلّع منهُ إلى مباهجها . فقد بلغ القمة الآن ، بعد سنوات من الشقاء والنضال والضنى . وكان قد أَعَدَّ عدَّتهُ ليطبق بعد دخولهِ البيت الأبيض ، خططاً تفضى — إذا أُجيد تطبيقها — إلى تجديد الحياة السياسية والاقتصادية فى البلاد ، وإلى تعزيز قدرة الأمة على مواجهة الشدائد والمشكلات مدى أجيال متعاقبة ، وبعث إيمانها بنفسها ومنشآتها بعثاً جديداً . فإذا أنصفهُ الدهر فقد تضعهُ هذهِ الوجوهُ من الإصلاح بين عظام الرؤساء . ومع ذلك فها هو ذا فى يوم تنصيبه ، يشهد النظام الذى يريد إصلاحهُ ، منهاراً معفَّراً بالتراب . ولما وقف ليلقى خطبتهُ وجد نفسهُ وارث نظام مالىٍّ متهدِّم ، ورئيس أمة مشلولة .

ولعلّهُ ، بدأ فى هذه الدقيقة نفسها ، يستردُّ جزاء ما بذلهُ أيام إصابتهِ وما عاناهُ من حسرة وضنًى . لأنهُ كان الرجل الوحيد ، بين المشتغلين بالشؤون العامة حينئذ ، الذى بلا الشلَل . وفى خلال المحن الصحية التى اجتازها ، ادّرعت نفسهُ قوةً جديدةً فلمّا صاح بقومهِ « كل ما نخافهُ هو الخوف » تكلم بلسان من علم وجرّب ، فتبينت الأمة المصغية فى كلماته نغم الصدق ورنة الحقيقة فآمنت بها ، و بنفسها .

والغالب الذى فى مرتبة اليقين ، أن ظفر روزفلت الأول على الأزمة كان ظفراً سيكولوجيًا . فتحليل القرارات الأولى التى اتخذها خلال الأيام القليلة بعد حفلة التنصيب وخطبته فيها ، لم تغيِّر الحال تغييراً يذكر . فقد أصدر أمراً باسم السلطة التنفيذية بإيصاد أبواب البنوك ، ولكنها كانت جميعها موصدة بغير أمر . وأصدر دعوة إلى مجلسى الكونغرس بعقد دورة استثنائية ، ولكن مجرّد اجتماع الشيوخ والنوّاب لم يكن من أثرهِ تبديل الحال وتبديد القتام المخيِّم . وما كاد يعود إلى البيت الأبيض من حفلة التنصيب حتى أرسل إلى مجلس الشيوخ كشفاً بأسماء مَنْ اقترح تعيينهم فى مناصب الوزراء . ومن حق مجلس الشيوخ فى الدستور الموافقة على مقترحات الرئيس التى من هذا القبيل أو رفضها . فوافق عليها فى هذه الحالة بغير مناقشة . ولكنَّ الموافقة لم تكن شيئاً إذًا فإن المجلس يوافق على الغالب على هذه المقترحات ولا يعارضها إلاّ فى الأقلّ الأندر .

وعلى ذلك بدا لجميع الناس أن تغييراً كبيراً قد طرأ على الحالة العامة . وما كاد روزفلت ينتهى من إلقاء خطبته ، حتى كانت الأمة جميعاً صفا واحداً من ورائه ، وكانت مقتنعة بأن أحداثاً كباراً تتهيأ فى غيب المستقبل القريب . وقد أُلقيت فى وشنطن قبل سنة ١٩٢٣ خطبٌ كثيرة تجارى بلاغتُها بلاغةَ هذه الخطبة أو تفوقها . ولكنَّ واحدة منها لم تحدث التأثير الكهربىَّ فى نفوس الشعب الذى أحدثته هذه الخطبة . إن سرًّا خفيًّا فى ألفاظها أو نبرات صوت الخطيب ، أقنع الأمة بأن هذا

الرجل يستطيع أن يستشرف الأنقاض التى من حواليه ، وهى أنقاض آمال أكثر منها أنقاضٌ مادية ، بغير أن يجزَع . فلم يقف أحدٌ هنيهةً لتحليل ما حدث ، ولا ألقى الجمهور بالَهُ ، إلى العهود التى قطعها الرئيس الجديد ، ولكنَّ الأمة استكشفت فى هذه الخطبة ، أنَّ فى هذه الأمة الجزعة ، وقف الرئيسُ غيرَ جازع ولا هيَّاب . فلما استكشف الشعب ذلك ، أصبح بين يدى الرئيس الجديد كالصلصال اللّين فى أيدى الخزّاف .

وليس هـذا بالشىء المستغرب ولا الجديد فى تاريخ الاجتماع البشرى . فالرجل « غيرُ الهيَّاب ولا الوجل » ملكٌ فى جماعة أصابها الذعر . فينقاد الناس إليه سمعاً وطاعةً ، ولكنَّ الذى يحتاج إلى تفسير ، ليس تأثير شجاعتهِ فى الشعب ، بل مَردُّ شجاعتهِ . نعم إن روزڤلت كان دائماً متصفاً بالشجاعة الجسدية . ففى أثناء الحرب العالمية الأولى اجتاز فى مدمرة محيطاً تعيث فيه الغواصات ، وزار ميادين القتال بغير جزع أو وجل . وقبيل تنصيبه جاز امتحاناً أقسى لشجاعته ، عند ما أطلق المغتال المهووس رصاصَهُ عليه ، فأخطأهُ وأصاب خمسةً من حاشيته وقتل أحدهم ، ولكنَّ روزڤلت احتفظ برباطة جأشهِ خلال الحادث . ويقول « مولى » — أحد المقربين إليهِ فى ذلك العهد — إنهُ لم يبدُ عليه ردُّ فعلٍ ما بعدَه . إلاّ أن الحالة التى واجهها يوم تنصيبه كانت تقتضى شجاعةً من لون آخر ، وهو لون قلما يفطر المرء عليـه . فقد تكون الشجاعة التى تقى المرء الارتباك والاضطراب والهلع عند ما يرى مسدّس المغتال مسدّداً إليه ، فعلاً غريزيًّا . ولكن الشجاعة التى لا بدّ منها للاحتفاظ بالاتزان ورباطة الجأش عند ما يرى جميع خططهِ وآماله متداعيةً إلى الانهيار والحبوط ، ليست غريزية . إنها شجاعة مكتسبة ، ولا تكتسب عادةً فى حياةٍ مفروش طريقها بالورد . إنك لا تتعلّم هذه الشجاعة فى المدارس ، ولا تأخذها من الكتب ، ولا تلمح وجهها فى قضايا تكسبها فى المحاكم ، أو فى انتخاب تنضوى فيه كثرة الناخبين تحت

لوائك . قد تكتسبها إذا خضت حرباً و بليت بشدائدها ورفع لك الموت النقابَ عن وجهه لمحةً ما ، ولكنَّ روزڤلت لم يخض الحرب العالمية الأولى ، عند ما كان وكيلاً للبحرية ، على هذا المنوال . والغالب ، أنَّ المرء لايتعلم أن « الشيء الذى يجب أن نخافَهُ إنما هو الخوف نفسه » إلاّ إذا انهدم إيمانهُ بقدرته التى كان يُدِلُّ بها ، وحدَّقَ فى قرارة هُوَّة القنوط بعد أن كان على قمة الأمل أو محلقاً فوقها . عندئذ تتقطَّر هذه التجاريب فى نفسه قطرةً قطرةً ، وعندئذ يعلم أن «الشيء الذى يجب أن نخافَهُ إنما هو الخوف نفسه » . ومتى خرج المرء بهذهِ العبرة من تجاريب الحياة ، فإنه لن ينساها . وكذلك نجده فى أحرج المواقف التى تحنى ظهر غيره وتبثّ الجزع فى نفوسهم ، رابط الجأش ، بادى الثقة ، قادراً أن يقول فى خطبة عامَّة كما قال لزوجه : « إننى سأقهر هذا الشيء »

وقد نكون من الذين يأخذون الألفاظ بمعناها الحرفى ، فنقول أن روزڤلت كذب فى الحالين ، لأنه لم « يقهر هذا الشيء ». فلا هو قهر « شلل الأطفال » الذى أصابه ، ولا « الشلل الاقتصادى » الذى واجهه يوم تنصيبه . فروزڤلت لا يزال مضطرًّا إلى الاستعانة بعصاً إلى الآن . والنظام الاقتصادى الأميركى ، ظلَّ حتى نشوب الحرب ، أقرب إلى المقعد منه إلى السليم تام السلامة . ولكن روزڤلت مشى . والنظام الاقتصادى الاميركى ، نهض بعد ما سقط ، ومشى ولو كانت مشيته متعثرة . وفى الحالين ، لم يكن أحد يؤمن بأن روزڤلت يستطيع أن يمشى ، ولا أن النظام الاقتصادى الأميركى يستطيع أن ينهض . ومما لا يداخله الريب ، أنّ لا مشى الرجل ولا نهوض النظام ، كان مستطاعاً بغير عزم صلب ، وشجاعة هى أندر ألوان الشجاعة وأعظمها .

ومن الانصاف للحقيقة ولأعوان روزڤلت فى تلك الأيام السود ، أن نقرر هنا أن جانباً كبيراً من الفضل فى أعمال حكومة روزڤلت خلال « المائة اليوم » التالية ،

ولا سيما فى الأيام العشرة الأولى منها يرجع إلى طائفة من الرجال ، كان بعضهم من الذين يمقتون روزڤلت . فأوجدن ملز وزير مالية هوڤر ومساعده آرثر بلانتين ضاهيا وودن وزير مالية روزڤلت وأعوانهُ فى الكفاح لإنقاذ ما يمكن انقاذهُ فى نظام المصارف الأميركى. فوودن بدأ عملهُ فى « الخزينة » قبل انتهاء رآسة هوڤر ، وملز لبث فيها بعد ما تقلد روزڤلت زمام الرآسة . و إذا كان النضال الحزبى ، بين الجمهوريين والدمقراطيين ، يبلغ أحياناً دركاً سحيقاً ، فإن الجمهورية الاميركية لم تجز الأزمات التى عصفت بها ، ولم توطِّد مقامها إلاّ لأن الجمهوريين والدمقراطيين على السواء ، تعاونوا جميعاً فى الأزمات ، فنسوا أنهم جمهوريون أو دمقراطيون ، من اتباع روزڤلت (أو غيره) أو من خصومه ، وتذكروا شيئاً واحداً وهو أنهم أميركيون ، وأن كل شىء ما عدا ذلك يأتى فى المقام الثانى ما زالت الأزمة قائمةً .

قال روزڤلت فى خطبة التنصيب ، « ان الأمة تطلب العمل ، وتطلبه الآن » وما كاد يعود الى البيت الأبيض حتى بعث إلى مجلس الشيوخ بأسماء الذين اختارهم أعضاء فى وزارته ، وحث المجلس على الموافقة عليهم بغير الرجوع الى لجنة أولاً ، وهو العرف المتبع . وما أقبلت الساعة السادسة مساء حتى كان كل وزير قد أقسم يمين الولاء للدستور . وعند منتصف الليل عُقد اجتماع الوزارة الأول وفى اليوم التالى استدعى الرئيس زعماء المجلسين النيابيين (الكونغرس) وطلب اليهم أن يُعدّوا المعدات لعقد دورة استثنائية حالاً . واتفقوا جميعاً على أن تبدأ الدورة فى اليوم التاسع من شهر مارس . واستدعى كبار رجال المال والأعمال بالتلفون فى جميع أنحاء البلاد للاجتماع بوزير المالية « وودن » .

وجُهت الدعوة إلى الكونغرس فى ٥ مارس لعقد دورته فى اليوم التاسع من مارس . و إذن فلا يزال أمام الرئيس ومستشاريه أربعة أيام لا غير لاعداد مشروعات القوانين وعرضها عليه . ولكن « أزمة البنوك » لا تنتظر أربعة أيام ، والفوضى

سائدة . ولذلك أطلق روزڤلت قنبلتهُ الأولى ، فى صباح الاثنين الموافق للسادس من مارس . ذلك بأن الكونغرس كان قد أقر خلال الحرب العالمية الأولى قانوناً خاصًا بالاتجار مع العدو . ولكن هذا القانون لم يُلْغَ . فاستند إليه روزڤلت ، فى إصدار أمر بحكم السلطان الذى يبيحه هذا القانون للسلطة التنفيذية ، معلناً إجازة عامة للبنوك أمدها أربعة أيام وحظر سحب الذهب والفضة أو نقلهما ، وجعل عقوبة المخالفة غرامة قدرها عشرة آلاف ريال أو سجناً أمده عشر سنوات ، وأباح لوزير المالية أن يستثنى منه ما يقتضى الاستثناء بقرار وزارى .

ما كان أحدٌ يحلم أن روزڤلت يعمد إلى مثل هذا العمل السريع الحاسم ، فاغتبط الشعب بحزم الرئيس ، وذهل أعضاء الكونغرس ، فأقرُّوا مشروعات القوانين المعروضة عليهم ، بغير أن يدركوا مغزى معظمها ، و بغير معارضة فى كثير من الأحيان . وكان فى وشنطن جماعة منظَّمة تمثِّل « المحار بين القدماء » وهى جماعة يخشاها أعضاء الكونغرس لما لها من نفوذ فى شتَّى الولايات ، فلم يجرؤوا قبلاً على مخالفة رغباتها . ومع ذلك لما طلب الرئيس حذف خمسمائة مليون ريال من الميزانية ، على أن يكون معظم الحذف من المال المرصَد للمحار بين القدماء ، وافق الكونغرس بغير أن يلقى بالهُ إلى هذه الجماعة . وعندما عرض مشروعُ « قانون طوارئ البنوك » أقرَّهُ الكونغرس فى ساعتين . و بعد يومين جلس الرئيس فى البيت الأبيض وأذاع حديثهُ الأول فى السلسلة التى اشتهرت عندنا خلال هذه الحرب بعنوان « حديث الموقدة » . و إذا الرئيس الفعَّال قد انقلبَ معلماً يشرح ما تعقَّد من شؤون المال فى أوجز عبارة وأوضحها ، وصديقاً يخاطب أصدقاءه من القلب إلى القلب . فايمانهُ بأن الدمقراطية لا تسلم مما توصم بهِ إلاّ بإرشاد الرأى العام ، تجلّى فى هذا الحديث ، فزكّتهُ النتائج . قال : « اسمحوا لى أولاً أن أشرح لكم الحقيقة البسيطة وهى أنكم عندما تودعون مالكم فى بنكٍ ما ، فالبنك لا يضع المال فى حرز حريز ، ولكنهُ يستعمل مالكم فى

أنواع شتَّى من الاعتماد المالى — فى الأسهم والسندات وما أشبه . أى أن البنك يستعمل ما لكم فى ما يحفظ عجلات الصناعة والتجارة دائرة . . . وكلُّ ما فى البلاد من نقدٍ لا يعدلُ إلاَّ جزءًا يسيراً من مجموع الودائع التى فى البنوك . . . فما حدث فى الأيام الأخيرة من فبراير والأيام الأولى من مارس ؟ نشأ عن تزعزع ثقة الجمهور أن هرع الفريق الأكبر من شعبنا إلى البنوك ليحوِّل ودائعهُ ذهباً ، فلم يكن فى وسع أسلم البنوك وأوطدها مقاماً أن يلبى الطلب كلَّهُ . ولم يكن مستطاعاً على التوِّ ، أن يبيع البنك ما يملكهُ من سندات سليمةٍ بأسعار خفضها الذعر إلى دون قيمتها الحقيقية . فلما أقبل بعد ظهر الثالث من مارس لم يكد يوجد فى البلاد بنك مفتح الأبواب للعمل . . . »

ومضى الصوت الفخم ، والرنة اللطيفة ، والحجة المعقولة المفهومة ، مضى الرئيس يفسِّر (لأصدقائى) ما حدث ، فاصغوا إليه ، وفى إصغائهم إليه ، زالت بقية الذعر من نفوسهم . ذلك بأنهم أدركوا أن لا باعث هناك على الذعر . « فالبنوك السليمة ليست الآن أسوأ حالاً بمقدار ريال واحد مما كانت عندما أوصدت أبوابها . وستفتح البنوك أبوابها . ولكنّ بعضها لن يفتح أبوابهُ . والحكومة لن تسمح إلاّ للبنوك السليمة بأن تفتح أبوابها » .

وكذلك مهَّد روزفلت لأكبر تعديل فى حياة الولايات المتحدة المالية . فإفلاس البنوك الأميركية ، بعد إخضاع « سلامتها » للقانون ، يكاد يكون متعذراً الآن . وقد تمكن روزفلت من إحداث هذا التعديل ، لأنهُ صارح الشعب بالحقيقة و بيَّن لهم ما فعلهُ وما ينوى أن يفعلهُ وختم حديث الموقدة الأول بقولٍ يصحّ أن يوصف بأنهُ « عقد شركة بين الحكومة والشعب » عند ما قال : « إنها مشكلتكم بقدر ما هى مشكلتى ولن نخفق إذا سرنا معاً يداً بيد » .

— ٤ —

فى تاريخ الولايات المتحدة الحديث فترة تعرف بفترة « الأيام المائة » وهى تمتدُّ من اليوم التاسع من شهر مارس ١٩٣٣ عندما دعى مجلسا الكونغرس الجديد لعقد اجتماع استثنائى ، إلى ١٦ يونيو عند ما أرفضَّ المجلسان . وهى فترة تذكِّر « بالأيام المائة » التى انقضت بين فرار نبوليون من جزير البا أو معركة واترلو فى سنة ١٨١٥. ولكنَّ الذكرى مقتصرة على الاسم . لأن الفترة النبوليونية كانت فترة جزعٍ فى أوربا المتحالفة على نبوليون ، من فرار الفاتح العظيم والقائد العبقرىِ وتأثير ذلك فى مصيرها . وأما الفترة الروزفلتية فكانت فترة إقبالٍ على سنِّ القوانين التى أشار بها روزفلت على مجلسى الكونغرس فى رسائله المتوالية إليهما ، لمعالجة الأزمة الاقتصادية والبؤس الناشىء عنها ؛ وهذه القوانين هى التى تعَدُّ الأساس التشريعى لنظام « التوزيع الجديد » .

اجتمع الكونجرس فى يوم ٩ مارس ووافق على قانون البنوك .

وفى يوم ١٠ مارس طلب روزفلت خفض الميزانية مقدار ٢٥ فى المائة .

ثم جاء يوما ١١ و١٢ مارس (وكانا يومى سبتٍ وأحدٍ) فلم يوجِّه الرئيس خلالهما طلباً ما إلى الكونغرس .

وفى يوم ١٣ مارس طلب إلغاء قانون ڤولستد (قانون تحديد مقدار الكحول فى البيرة) .

وفى يوم ١٦ مارس طلب سن قانون « التنظيم الزراعى »

وفى يوم ٢١ مارس طلب سن قانون « فيلق الحفظ الأهلى » .

وفى يوم ٢٩ « طلب سن قانون « الأوراق المالية » .

وفى يوم ٣ ابريل طلب سن قانون « غوث المزارعين »

وفى يوم ١٠ ابريل طلب سن قانون « إدارة وادى تنيسى »

وفى يوم ١٣ ابريل طلب سن قانون « قروض ملاَّك البيوت » .

وفى يوم ٢٠ ابريل أصدر قرار الخروج عن قاعدة الذهب .

وفى يوم ٤ مايو طلب سن قانون « إعادة تنظيم سكك الحديد » .

وفى يوم ١٧ مايو طلب سن قانون « الانعاش الصناعى الأهلى » وطلب من الكونغرس إرصاد ٣٣٠٠ مليون ريال للغوث عن طريق الأشغال العامة .

هذه القوانين هى قواعد نظام « التوزيع الجديد »[١] وقدعرضت مشروعاتها على الكونغرس خلال سبعين يوماً ، ومنها مشروعات أقرت حالما عرضت على الشارعين. وتمَّ إقرارها جميعاً فى أثناء ثلاثين يوماً أخرى وفى يوم ١٦ يونيو فضت دورة الانعقاد الخاص بعد انقضاء مائة يومٍ تماماً على بدئها .

وقد شهدت السنوات التى تلتْ وجوهاً من التوسع فى هذه الأعمال ، ونواحى من التعديل فى تفصيلاتها ، ولم يلغ منها إلاَّ مشروع واحد وهو مشروع الإنعاش الأهلى » . وسيجىء ذكرهُ (فى الفقرة الخامسة من هذا الفصل) . فما مغزى هذه القوانين من حيث هى أجزاء من نظام « التوزيع الجديد » وما مكانة كلٍّ منها فيهِ ؟

كان لهذا التشريع الاجتماعى والاقتصادى الموسوم بنظام « التوزيع الجديد » غرضان : أما الأول فالخروج بالبلاد من أشد ضائقة نزلت بها أو بأى بلدٍ صناعىٍّ آخر فى العصر الحديث — أى الإنعاش Recovery . وأما الغرض الثانى فإدخال وجوهٍ معيَّنةٍ من الإصلاح Reform على قواعد الحياة الاقتصادية الاميركية .

وقد كان برنامج « التوزيع الجديد » يشمل سلسلة من الأعمال والقوانين غرضُها

---

(١) NEW DEAL استعمل روزفلت هذين اللفظين أولا : فى الخطبة التى قبل بها الترشيح للرآسة عن الحزب الدمقراطى في ١٩٣٢ وقد بين فيما بعد أن الغرض المنطوى فى هذا الاستعمال هو أن الحكومة ستشرف على اقتراح أساليب « التوزيع » وتنفيذها

تحقيق الإنعاش ، والإصلاح . ولكنّ المغزى الأول والأهم المستخرج من هذه القرارات والتشريعات ، إنما هو ما يظهر فيها من تبدُّل أصيل فى موقف الناس والحكام جميعاً من قواعد الحياة الاقتصادية .

ومما لا ريب فيه أنّ إصدار أحكام عامة على موقف الرأى العام فى بلد ما من المسائل الاقتصادية ، أمر كثير المزالق وعلى أعظم جانب من المشقة إن لم يكن متعذراً على الإطلاق ؛ لأنّ الموقف يختلف باختلاف الطبقات والمناطق والأعمال والأفراد . ولكن الصفة الغالبة على الرأى السائد فى أميركا فى مستهل العقد الثالث من هذا القرن ، كانت صفة « التفاؤل الذى لا مسوِّغ لهُ » مقترنة بصفة « الإيمان بمزايا النزعة الفردية والمنافسة الحرة فى الحياة الاقتصادية » . فالانتاج والثروة كانا يزدادان إزدياداً مطرداً سنةً بعد سنةٍ . وكان الناس يتوقعون أن يمضى هذا الازدياد فلا يقف عند حد . وكانت أسعارُ السندات والأسهم فى السوق المالية ترتفع سنة بعد سنة ، وكان الناس يظنون أن لا حدود لارتفاعها .

وكان فى البلاد تعطلٌ من العمل ولكنه كان على نطاق ضيق فلم يُعدَّ مشكلة قوميةً . ومضى رجال الأقتصاد يتناقشون فى هل من المحتمل أو الممكن أن يصاب القوم بضائقة أخرى ؟ وكانت العامة (رجل الشارع) تعتقد أن أزمةً اقتصادية أخرى غير محتملة بل مستحيلة . وكان بعض رجال الاحصاء يعلمون أن الدخل موزع توزيعاً غير متساو . ولكن جميع الطبقات كان ماضية فى زيادة دخلها زيادة ظاهرة فلم تعبأ بقسط الزيادة الذى يصيبه كل منها ، ولم يكن هناك ما يشير إلى احتمال قيام نزاع بين الطبقات . وعزز من هذا الرأى أن اتساع نطاق المضاربة فى البورصة ثبت الوهم بأن الأمة الأميركية صائرة إلى أمة من الرأسماليين جميعاً .

طبعاً إن هذا الوصف لا ينطبق بحذافيره على الأمة بأسرها فالمتعطلون عن العمل وسكان المناطق المصابة ، لم يشاركوا سائر القوم فى التفاؤل العام .

فى مستهل العقد الثالث من القرن العشرين كان عدد المتعطلين عن العمل نحو مليونين . وكانت صناعات النسيج وتعدين الفحم مصابة بضائقة . وكان الزراع يشكون هبوط أسعار المحصولات الأساسية . وأفلست بنوك كثيرة فى الولايات الغربية المتوسطة ، قبل نزول الضائقة العامة فى سنة ١٩٢٩ . وكان كثيرون من الفلاحين ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية ، يعيشون فى فاقة وعوز . ومع ذلك يصح القول بأن السواد من الأميركيين كانوا يعتقدون فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٩ أن البلاد لا تعانى مشكلات اقتصادية أساسية تقتضى العلاج .

وأصيبت البلاد بالأزمة فى النصف الثانى من سنة ١٩٢٩ فلما أقبلت سنة الانتخاب (١٩٣٢) للرآسة ، كانت الأزمة قد أخذت بالخناق ، وفى أواخرها كانت الشدائد قد قضت على البقية الباقية من التفاؤل الرخيص (وكثيراً شجعته حكومة هوفر بقولها : إن الإقبال وراء الباب) إذ هبطت قيمة السندات والأسهم المتداولة فى البورصة من ٨٧ ألف مليون ريال فى سنة ١٩٢٩ الى ١٩ مليون ريال فى سنة ١٩٣٢ أى أن الهبوط كان الى ما دون الربع . وهبط كذلك الانتاج ٣٢ فى المائة ودخل العمال ٤٠ فى المائة وزاد عدد المتعطلين من العمال الى ١٥ مليوناً . أما ما حدث فى الأيام السابقة ليوم تنصيب روزفلت (٤ مارس ١٩٣٣) فقد مر ذكرهُ .

وأدرك كثيرون من المفكرين ، أن فى النظام الاقتصادى الأميركى ، ضعفاً أصيلاً ، فأفضى هذا الأدراك إلى محاولة تبين العلة وفهم الضعف . وقد تباين الرأى ، ورأى روزفلت نفسه لم يكن متماسكاً على طول الخط . ولكنَّ جماعة « التوزيع الجديد » التى كانت حولهُ ، وإليها مردُّ معظم الأفكار الأصيلة فى التشريعات الجديدة ، كانت ترى أن الشرور الكبرى ترجع إلى شرَّين : أما الأول — فتركز السلطان الإقتصادى فى أيدى فئة قليلة . وأما الثانى — فتناقص

الفرص المتاحة لتثمير الجهد والمال . وهذه الجماعة ، إذا قيست بالمتطرفين فى البلدان الأوربية لم تعدّ جماعة متطرفين ، لأنها كانت موقنةً بأن فى الوسع إستئصال هذه الشرور بغير أن يطرأ تعديل كبيرٌ متطرف على النظام الإقتصادى القائم . ولكنها رأت ببصيرتها كذلك احتمال نشوب نزاع بين الطبقات ، إذا لم تستأصلْ هذه الشرور .

فإلى الشرّ الأول — أى تركيز السلطان الإقتصادى فى أيدى فئة قليلة من الناس — مردُّ المشروعات والقوانين التى يقصد منها الإصلاح فى المقام الأول . وإلى الشر الثانى — أى تناقص الفرص المتاحة لتثمير الجهد والمال — مردُّ المشروعات والقوانين التى يقصد بها الإنعاش فى المقام الأول

كان لتركيز السلطان الاقتصادى فى أيدى فئة قليلة من الناس ، مظاهر شتى . منها إرتفاع نسبة المأجورين من الناس بالقياس إلى نسبة المستقلين ، ومنها سوء توزيع الدخل وسوء توزيع الثروة . ففى سنة ١٩٢٩ أصاب ثلاثة أعشار واحد فى المائة من السكان ٧٨ فى المائة مما وُزِّعَ من ربح الأسهم والسندات . ومنها نموُّ الشركات الكبيرة التى لاتطاق مزاحمتها . ففى سنة ١٩٣٠ كان واحد فى المائة فى الشركات يملك نصف ثروة الشركات جميعاً ويدلُّ الإحصاء على أن معدّل نموّ مائتين من هذه الشركات الكبيرة ، بلغ فى سنة ١٩٢٠ مبلغاً لو مضى فى سبيله مطرداً ، لاستطاعت هذه الشركات أنْ تملك نصف ثروة الأمة كلها فى سنة ١٩٥٠ . وكانت السيطرة على الشركات الصناعية الكبيرة مثل الصلب والسيارات ، والمواد الكيمائية والنفط والسكر واللحم والطاقة المتحركة ، لفريق صغير من الناس ، وكان فى وسعهم أن يتحكموا فى الإنتاج والمنافسة كما يشاءون . يدل على ذلك أن أسعار المحصولات الزراعية هبطت بين ١٩٢٩ — ١٩٣٢ مبلغ ٦٣ فى المائة بينما أثمان الأدوات الزراعية لم تهبط إلاّ ٦ فى المائة وأثمان السيارات ١٦ فى المائة . وكانت هذه الشركات الكبيرة

متشابكة ، فالممول الواحد قد يكون عضواً فى مجالس شركات كثيرة : وهذا حصر السلطان الإقتصادى والمالى فى أيدٍ قليلة . وإذا اعترض أحدٌ على ذلك بأنَّ أسهم شركة كبيرة مثل شركة « بل للتلفون » كانت موزعةً توزيعاً واسع النطاق حتى بلغ عدد حملة اسهمها ٦٣٠ ألفاً ، وأن هذا التوزيع منافٍ لما يقال عن تركز السلطان فى أيدى فئة قليلة ، كان الردُّ على ذلك بأن هذا التوزع ، الدمقراطىَّ فى مظهره ، جعل من المتعذر تأليف جماعةٍ ما من حملة الأسهم تستطيع أنْ تعارض مايقرره إعطاء مجلس الإدارة . فالسلطة الفعالة كانت فى أيدى هؤلاء الأعضاء وهم فئة قليلة

أما الشر الآخر الذى رُدت الأزمة إليه فهو « تناقص الفرص المتاحة لتشمير الجهد والمال » وأسبابهُ كثيرة ، منها استعمار معظم الأرض الصالحة للاستعمار فى الولايات المتحدة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هـــذا القرن ، واضطراب أحوال أوربا ، وهبوط معدَّل زيادة السكان . فالأول لم يتح مجالاً جديداً للجهد والمال ، والثانى صرف الناس عن تثمير مالهم فى أوربا ، والثالث خفض عدد المطلوب بوجهٍ عام من دور السكن وغيرها من المنشآت التى تقتضيها الزيادة المطردة فى عدد السكان . وقد رُدَّ الإقبال الذى عمَّ البلاد فى السنوات الأولى التى تلت نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اتساع نطاق صناعة السيارات وما يتصل بها وإلى ضرورة تشييد دورٍ لتعويض ما كان يجب تشييده منها ولكنه لم يشيَّد خلال الحرب ، ثم إلى ما أتيح تثميره من المال فى أوربا ولا سيَّما بعـد الاتفاق على تنفيذ مشروع دوز الخاص بالتعويضات الألمانية . فلما زالت هذه العوامل الخاصة الطارئة ، كان لا مفرَّ من ضيق مجال العمل فى طائفة كبيرة من الصناعات وميادين العمل ، فضعفت القدرةُ على الشراء ، فتلاها خفض الإنتاج والتعطُّل .

« فالتوزيع الجديد » لم يكن برنامجاً محكمَ الأجزاء . ولكنه كان سلسلة من الأعمال التشريعية ، اقترح بعضها وأُقِرّ ، استجابة لإلحاح فئات شتَّى من الشعب . وبعض

هذه الأعمال كان يناقض البعض الآخر . ولكنَّ السمة العامة الغالبة على هذه الأعمال كانت الرغبة فى إزالة هذين الشرين : أما تركيز السلطان الاقتصادى فى أيدى فئة قليلة من الناس ، فعولج بسلسلة من القوانين غرضها حماية الفلاح والعامل وتعزيز يدهما فى معاملة أصحاب الأعمال . وأما تناقص الفرص المتاحة لتثمير الجهد والمال فعولج بسلسلة أخرى غرضها توفير هذه الفرص توفيراً مباشراً أو غير مباشر ، وزيادة المستهلك من المصنوعات والمحصولات حتى يبلغ الإنتاج مبلغاً عالياً معقولاً ويقل التعطُّل عن العمل .

والحكم العامُّ على هذه القوانين بعد تطبيقها سبع سنوات أو ثمانى سنوات ، هو أن القسمَ الأول منها أصاب قسطاً معتدلاً من النجاح . فقد أصلح النظام الاقتصادى فى الولايات المتحدة إصلاحاً لابأس به ، وإن كان فى مجموعهِ لا يعدو ما تمَّ من إصلاحٍ من هذا القبيل فى طائفة من بلدان أوربا قبل ذلك .

أما القسم الثانى فكان قسطهُ من النجاح أقل . ففى سنة ١٩٣٩ — أى بعد انقضاء عشر سنوات على بدء الأزمة فى سنة ١٩٢٩ — كان عدد العمال المتعطلين عن العمل لا يزال فى حدود عشرة ملايين ، ومستوى الإنتاج بالقياس إلى القدرة على الإنتاج ، فى الحدود التى كانت قائمة عند ما تقلد روزفلت الرآسة فى سنة ١٩٣٣ أو أعلى قليلاً .

ولست فى حاجة إلى دراسة القوانين التى غرضها الإصلاح وفقاً لإقرارها الزمنى . فقد تقدَّم معنا هذا الترتيب فى الجدول الذى يجده القارىء فى صفحة ١٣٩ — ١٤٠ على أن القوانين التى غرضها الإصلاح كانت أربعة أقسامٍ بوجهٍ عام . أما الأول فقوانين « السلامة الاجتماعية » وهى التى غرضها حماية المحرومين ، من مِحَن التعطل عن العمل والمرض والشيخوخة . وأما الثانى فالقوانين التى غرضها تعزيز اتحادات العمال وقدرتها على المساومة المشتركة فى علاقتها بأصحاب المال . وأما الثالث فالقوانين

التى غرضها عون الفلاح . وأما الرابع فالقوانين التى غرضها إزالة شرورٍ معيَّنة نشأت عن تركيز السلطان الاقتصادى والمالى فى أيدى فئة قليلة من الناس .

أما التشريعات الخاصة بالسلامة الاجتماعية فقد جمعت بين التأمين على الشيخوخة، وتأمين معيشة العامل فى حالة التعطل عن العمل والتأمين على صحة الحوامل والأطفال وما شابه ذلك . وفى وضعها استرشد رجال « التوزيع الجديد » بما خبرته الأمة البريطانية وحكومتها فى هذا الميدان . وقد نصَّت هذه القوانين على توفير المال لهذه « الخدمات الاجتماعية » من الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات الثمانى والأربعين وأصحاب العمل وأجور العمال أحياناً ، على تفاوت بين قانون وقانون . ومعدَّل ما يصيب العامل المتعطل عن العمل بحسب هذه المجموعة من القوانين يبلغ جنيهين فى الأسبوع مدى ستة عشر أسبوعاً على الأكثر . ولكن هناك اختلاف ، زيادة أو نقصاً ، عن هذا المعدل باختلاف الولايات .

أما التشريع الخاص بتعزيز اتحاد العمال ، فيشمل تحديد ساعات العمل فى الأسبوع ، وتعيين مستوى أدنى للأجور ، والاعتراف بحق النقابات أن تفاوض أصحاب العمل باسم الأعضاء . وقد كان التشريع الأول الذى أقرَّ لتحقيق هذا الإصلاح يعرف بمشروع الإنعاش القومى (N.R.A.) وكان أساسه الاختيار أو الحكم الذاتى فى الصناعة ، أى أتيحت الفرصة للاتفاق بين أصحاب العمل فى كل صناعة رئيسية على قواعد معيَّنة تحدد حدوداً عليا ودنيا لساعات العمل والأجور وما أشبه ، وقد اختلفت هذه الاتفاقات اختلافاً كبيراً . ولكنها فى المجموع لم تؤت الغرض المقصود بها . وكانت فى منزلة تجربة اجتماعية فأخفقت التجربة ، مع أن خفض ساعات العمل أفضى إلى زيادة يسيرة فى عدد العمال ، أى أفضى إلى نقص يسير فى عدد العمال المتعطِّلين عن العمل . ثم تلاهُ انكفاء وارتفاع فى الأسعار فخسر العمال جُلَّ ما كسبوه . وحكمت المحكمة العليا بأن هذا التشريع مناقض

للدستور فألغى . وسنعود إلى هذه الناحية عند الكلام على النزاع بين الرئيس روزفلت والمحكمة العليا على تشريعات « التوزيع الجديد » فى الفقرة التالية من هذا الفصل .

وقد حلّ محلّ تشريع « الإنعاش القومى » قانون ڤاغنر (١٩٣٥) ثم عدِّل بقانون « الأجور والساعات » (١٩٣٨) . فالأول يقتضى من أصحاب صناعةٍ ما أن يعترفوا بالاتحاد الذى يمثل كثرة العمال أو الموظفين و يتفاوضوا معه . وحظر على أصحاب العمل أن ينشئوا اتحادات خاصة بشركاتهم أو التدخل تدخلاً ما فى اختيار موظفى الاتحاد الذين ينتخبهم الأعضاء . وانشىء مجلس لتنفيذ القانون . والثانى قضى بانشاء هيئات لتحديد أدنى حد للأجور وأعلى حد لساعات العمل ومنع تشغيل الأطفال . وكان الغرض الذى يتوخاه هذا القانون ، أجراً عاماً يكون على الأقل ٤٠ سنتاً أو عشرة قروش — بحسب سعر النقد الأميركى الآن — فى الساعة ، على أن يكون أقصى ساعات العمل فى الأسبوع فى الأحوال السوية أربعين ساعة ، وإذا اشتغل العامل علاوة على العدد المعين من الساعات فى الأسبوع استوفى ٦٠ سنتاً على كل ساعة إضافية .

وقد كانت نقابات العمال واتحاداتها فى الولايات المتحدة على جانب كبير من الضعف ، ولكن تحوُّل الموقف العام الذى نشأ عن الأزمة ، وقانون ڤاغنر ، أفضيا إلى تعزيز حركة اتحادات العمال فى تلك البلاد .

أما التشريعات التى غرضها عون الفلاح فكانت متعددة واسعة الحيلة فى معالجة المسائل القائمة ، وكان بعضها أحياناً يناقض بعضاً . أما الغرض الأول فكان رفع أسعار المحصولات الزراعية ، لأن هبوطها كان أعظم جداً من هبوط أسعار المصنوعات . فرجال « التوزيع الجديد » كانوا يرغبون فى استعادة النسبة بين أسعار المحصولات الزراعية والمصنوعات ، التى كانت قائمة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . ومع أنهم

لم يصيبوا نجاحاً تامًّا فى تحقيق هذا الغرض إلاَّ أنهم قربوا تقريباً يذكر بين قيمة الطائفتين من المنتجات . ففى سنة ١٩٣٢ مثلاً كان كيس من الذرة لا يكفى إلاَّ لشراء نصف الملابس التى كان يكفى لشرائها فى سنة ١٩١٣ . فالغرض كان تقليل هذا الفرق .

وأنشئت « الإدارة الزراعية » وكان من المهامِّ الملقاة إليها أن تتيح « مزايا » للفلاحين الذين يرضون خفض المساحة التى يزرعونها . فثبت أن هذا لا يكفى ، أو أنه غير فعال أحياناً ، واضطرت هذه الإدارة — فى بعض الأحوال — أن تقيد المساحة المزروعة ومقدار المحصول، لأن بعضهم قبل خفض المساحة، رغبةً فى «المزايا» ، ثم مال الى تطبيق مبادىء الزراعة الكثيفة intensive فلم يقلَّ مقدار المحصولات وفقاً لقلة المساحة . وعمدت هذه الإدارة أحياناً الى الإجبار والعقوبات فى معاملة الفلاحين الذين يتجاوزون حصصهم من المحصولات . وكانت القوانين المطبقة تختلف باختلاف المحصولات . ومع أن الحكومة اعتمدت اعتماداً كبيراً على نقص المحصول رغبةفى رفع الأسعار ، فإنها لم تهمل كذلك الاهتمام بزيادة المستهلك. فكانت الحكومة تبتاع مقادير وافرة من المحصولات لتوزعها على المحتاجين أو لتخزنها. ومن الأساليب التى استعملت أنَّ أسعار بعض المحصولات ربطت بما يقترض عليها . فسعر بالة القطن لا يهبط دون ما تقرضه الحكومة للفلاح عليها .

ومما يناقض هذه النزعة العامة إلى رفع الأسعار بخفض مقدار المحصول ، أن وزارة الزراعة سعت سعياً حثيثاً إلى تحسين أساليب الزراعة ، فعينت هيئات خاصة لبحث الوسائل اللازمة لمنع تآكل الأرض بفعل المطر والرياح ، ومقاومة الجفاف ، والحدِّ من تنكس التربة وضعف خصبها ، ونقل الفلاحين من أراضٍ لا تصلح بطبيعتها للفلاحة الناجحة ، وإقطاعهم مكان أراضيهم هذه ، أراضى أصلح . ومما يلحق بهذا إنشاء السدود الكبيرة فى وادى نهر تنيسى وتوليد الطاقة الكهربية منها

وتوزيعها على الفلاحين بأرخص سعر مستطاع . نعم إن هذا المشروع كان القصد منهُ أن يكون مقياساً ونموذجاً تحتذيه شركات توليد الطاقة الكهربية فى طول البلاد وعرضها . ولكنَّ انشاءهُ ساعد على استصلاح منطقة متأخرة من الناحية الزراعية

وليس فى وسع أحدٍ القول إن جميع هذه المشروعات حلت مشكلة الفلاح حلاً دائماً ولكنها حتماً حسنت حالته .

والغالب أن التناقض بين نزعة التقييد فى الانتاج الزراعى ونزعة البحث عن الوسائل التى تفضى الى زيادة الانتاج ، مردّه إلى أن الحكومة كانت تسعى فى وقت واحد إلى الانعاش والاصلاح . فالنزعة الأولى تعالج حالة قائمة تحتاج الى علاج عاجل ، وهى رفع أسعار المحصولات الزراعية وزيادة دخل الفلاح ، والثانية تمهد لتحسين حالة الفلاح والإنتاج الزراعى فى المستقبل .

بقى فى هذه الطائفة من أعمال الإصلاح ما تمَّ على أيدى حكومة روزفلت من أعمال غرضها إزالة شرور معيَّنة ناشـــئة عن تركز السلطان المالى فى أيد قليلة . فأنشئت لجنة تشرف على إصدار السندات والاتجار بالسندات القديمة ، والغرض منها منع الغش أو التحايل فى إصدار سندات تفضى إلى خسارة الجمهور الذي يصدِّق جميع الدعاوى والمزايا الطويلة العريضة التى يسندها إليها مختصون بهذا النوع من الدعوة . وأنشئت إدارة وادى تنيسى لتبيع الطاقة الكهربية المولدة هناك بأرخص سعر مستطاع ، ولتكون نموذجاً تحتذيه الشركات الخاصة، فلا تستغل الجمهور استغلالاً غير معقول . وفُرضت قيودٌ خاصة على تنظيم الشركات المندمجة الكبيرة ، وعلى البنوك التى يسمح لها بمزاولة الأعمال المالية والتجارية ، لكى تكون الودائع فيها فى مأمن من الضياع . ولكن نظام البنوك فى الولايات المتحدة لا يزال — فى رأى فريق من الاقتصاديين — فى حاجة إلى إصلاح حاسم أساسى . وكثيرون من

أرباب « التوزيع الجديد » يعتقدون أن الرئيس روزفلت فوّت الفرصة الملائمة لإجراء هذا الإصلاح الأساسى فى سنة ١٩٣٣

إذن هـــذه هى المشروعات والقوانين التى غرضها إصلاح النظام الاقتصادى الأميركى . وهو الغرض الأول من نظام « التوزيع الجديد » .

أما الغرض الثانى ، وهو الإنعاش ، فقد عولج من ناحية زيادة قدرة الأمة على الشراء . ومن الأساليب التى اتبعت فى تحقيقه ، فتح البنوك وضمان ما يفتح منها بمنع غير السليم منها عن مزاولة العمل ، وتوسيع نطاق الاعتماد المالى عن طريق بنوك « الفدرال ريزرف » ، وخفض الفائدة ، وتسهيل عقد القروض على أرباب الصناعات عن طريق هيئة خاصة تشرف على إتاحة قروض من هذا القبيل من مال الحكومة . ثم هناك الوسائل المختلفة التى مرّ ذكرها ، وهى التى توسلت بها الحكومة لزيادة دخل العامل والفلاّح ، وزيادة الصادر عن غير طريق واحد ، وكان أحد هذه الطرق إخراج « الدولار » عن قاعدة الذهب ، لخفض أسعار المصنوعات والمحصولات الأميركية بالقياس إلى النقد الأجنبى ، وإقبال وزير الخارجية هَلْ على المفاوضة لعقد معاهدات ثنائية غرضها خفض الحواجز الجمركية بين البلدين المتعاقدين ، أى الولايات المتحدة والطرف الآخر ، وإنفاق مبالغ كبيرة على إعانة المحتاجين وعلى تنفيذ مشروع ضخم من الأشغال العامة ، منها المبانى والطرق والسدود والخزانات وما أشبه .

وقد فتحت البنوك وخفضت بنوك « الفدرال ريزرف » معدل الفائدة ، ولـكن ذلك لم يجذب إليها المشتغلين بالصناعة والتجارة للاقتراض منها ، ولم تفض الوسائل التى توسلت بها الحكومة واعتمدت عليها فى تشجيع إنشاء مبانى السكن إلى نتيجة يصحُّ الاكتفاء بهـا ، وظلّت صناعة بناء المساكن فى مقدمة الصناعات المصابة

بالعسر ، ورفعت أجور العمل وأسعار المحصولات الزراعية . فلم يتحقق كلُّ ما أراده دعاة « التوزيع الجديد » من زيادة قدرة الشعب على الشراء . وازداد الصادر من الولايات المتحدة ، ولكنه لم يكن له أثر بين فى غلبة الضائقة فى الولايات المتحدة نفسها ، لأن تجارة الصادر الأميركية لا تزيد حتى فى أحسن الأحوال عن ١٠ فى المائة من مجموع التجارة الأميركية ، وما أصابتهُ البلاد من « الانتعاش » كان مردُّ جانب كبير منهُ إلى ما أنفقتهُ الحكومات من مبالغ طائلة على إعانة المحتاجين ، ومشروع الأشغال العامة ، وقد جمع هذا المال بالاقتراض .

لم تكن الحكومة الاتحادية الأميركية قد أخذت على عاتقها قبل ذلك تبعة إعانة المحتاجين فى أنحاء البلاد ، لأن هذه التبعة كانت قبل عهد روزفلت و « التوزيع الجديد » واقعة على الأكثر على حكومات الولايات والمجالس البلدية ، تتولاّها بغير نظام عام . وقد نقلت هذه التبعة فى عهد « التوزيع الجديد » أو نقل معظمها إلى الحكومة الاتحادية فتولتها ، وليس ثمة ريب في أن المال الذى أنفق على مشروع الأشغال العامة قد عزز النشاط التجارى فى البلاد ، ولكنه لم يفض إلى تحقيق « الإنعاش » المطلوب على الوجه المقصود . لأنه لم يحمل الناس على إنفاق مالهم على الإنشاء المثمر كمبانى السكن والمصانع والآلات ، بل أنفق معظمهم المال فى شراء عروض المستهلكين كالطعام والملابس والأثاث .

هذا بعض ما يقال فى الناحية الاقتصادية المجردة من مشروعات « التوزيع الجديد » . فقد أقبلت الولايات المتحدة الأميركية على هذه المشروعات وهى متخلفة عن البلدان الأوربية فى التشريع الاجتماعى ، فمكنتها التشريعات الجديدة من أن تلحق بتلك البلدان . ومعظم وجوه الإصلاح التى تمّت خلال هذا العهد ، ستبقى لا ريب فى ذلك ، قائمة فى القالب الذى أفرغت فيه أولاً أو بعد تعديل يسير يطرأ عليه . ولكن

هذه التشريعات لم تبنِ جمعية اقتصادية جديدة[١] . فالاقتصاد الأميركى فى سنة ١٩٤٠ كان لا يختلف اختلافاً أساسيًا كبيراً عن الاقتصاد الأميركى فى سنة ١٩٣٠ من حيث القواعد الأصلية . نعم إن «بورصة» نيويورك مقيَّدة بعض التقييد ، وقوة الشركات الكبيرة محدودة بعض الحدِّ ، ولكن الشركات الكبرى — وهى تعدُّ مائتين — لا تزال قوية ، وخمس عشرة منها لا تزال خاضعة لسيطرة ثلاث أسر هى أسر دوپون وملون وركفلر . أما العامل والفلاح فقد زادت سلطتهما بعض الزيادة وضمنت سلامة معيشتهما ، وقد أفضى تقلد الحكومة لتبعة الإعانة إلى الحيلولة دون شرور كثيرة كانت اجتاحت البلاد لولا ذلك .

ولعلَّ أهم آثار الأزمة وتشريعات «التوزيع الجديد» لم تتجلَّ فى الحياة الاقتصادية ، بل فى موقف الناس من المسائل الاقتصادية والاجتماعية . أى أن الأزمة وتشريعات « التوزيع الجديد » ، أفضت إلى تحوُّل فكرى . ففى الولايات المتحدة الآن فريق كبير من الناس يؤمن بأنه يتعيَّن على الحكومة الاتحادية أن تتدخَّل فى الشؤون الاقتصادية لعون التجار والفلاَّحين والعمال ، ولتحمى مُثَمِّر ماله فى السندات ومودعه فى البنوك ، ولتمنع الفاقة ، ولتتيح عملاً للمعطَّل عن العمل . ولا ريب فى أن أحد الحزبين الكبيرين — الحزب الدمقراطى — أصبح مرتبطاً بسياسة اجتماعية اقتصادية تقوم على هذه المبادىء . وأما الحزب الكبير الآخر — الجمهورى — فلا يكاد يجرؤ على نقض قواعدها والتنكر لها . فالفرق بعيد بين هذا و بين القول السائد

(١) إن روزفلت نفسه لم يكن ينوى ولا يميل بطبيعته ونشأته إلى إقامة اقتصاد اشتراكى فى أميركا . ومن يطالع خطبته الخطيرة التى ألقاها قبل انتخابه الأول فى نادى « كومونولث سان فرنسيسكو » يتبين أن هدفه الاحتفاظ بالاقتصاد الرأسمالى بعد إدخال وجوه معينة من التعديل عليه تجعله أسلم بنياناً وأقرب إلى العدل الاجتماعى وأضمن لوئام الطبقات وأحفظ على الأسلوب الدمقراطى فى الحكم .

فى مستهل العقد الثالث « بالفردية » المطلقة من ضابط الحكومة وابتعاد الحكومة عن ميدان الأعمال .

والواقع الذى لا يداخله الريب ، أن الجيل الأخير من الأمة الاميركية كان يواجهُ مشكلتين أساسيتين من مشكلات الحياة الاجتماعية والسياسية ، على ما بين روزڤلت نفسه فى المقدمة العامة التى وضعها للمجلدات المحتوية على أوراقه وخطبه الرسمية . أما المشكلة الأولى فهى الاحتفاظ بتلك المثل السياسية فى الحكم التى تواضع الكتّاب على وصفها بالأسلوب الدمقراطى . وهذه المشكلة ليست طارئة على الشعب الأميركى ، بل هى قديمة قدم الجمهورية نفسها ، وان كانت الدمقراطية كما تفهم اليوم تختلف اختلافاً غير يسير عن الدمقراطية كما كان الآباء الأولون الأميركيون يفهمونها وكما أودعوها فى نصوص الدستور . وهذا التطور فى فهم مثل الحياة الدمقراطية ، وأسلوب الحكم الدمقراطى اقتضى ، حيناً بعد حين ، حركات سياسية واسعة النطاق لتبديل الأوضاع والمحافظة على روح الأسلوب الدمقراطى فى عالم متغير . ففى مسألة الاقتراع نجد هذا الحق مباحاً الآن لأفراد الجنسين الذين أدركوا الحادية والعشرين أو عَدَوها (إلا فى مناطق قليلة) . مع أنه لم يكن فى عهد وشنطن يشمل إلا الرجال من أصحاب الأملاك على أن تكون أملاكهم كبيرة . ومع ذلك فإن زمام السلطان الفعلى فى الحكومة انتقل فى أثناء إشاعة حق الاقتراع ، الى أيدى فئات خاصة من الناس . نعم فئات خاصة لا طبقات ! أى أن نطاق السلطان ضاق وتحيز بينما نطاق الاقتراع اتسع . أى أن السلطان الفعلى بدأ يتركز فى أيدى عدد يسير جدًّا من الشعب . والحركات السياسية فى التاريخ الاميركى التى غرضها الاحتجاج على هذا التركز ليست نادرة ، ولكن بحثها يستغرق فصولاً طوالاً . وحسبنا الاشارة فى القرن العشرين إلى ما بذله ثيودور روزڤلت وودرو ولسن لتطهير الأداة الحكومية من الفساد ، وكبح جماح أصحاب المصالح المالية ، الذين لم ينحصر سلطانهم فى الميدان الاقتصادى

بل تعداه الى الميدان السياسى . وكان من رأى فرنكان روزڤلت ، أن فترة الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ فرصة سانحة للشروع فى اتجاه سياسى جديد غرضه العودة بالحكم فى الولايات المتحدة الى السيطرة الدمقراطية والابتعاد به عن الروح التى كانت تسوده فى الفترة التى تلت نهاية الحرب العالمية الكبرى ، عند ما كان القول للجماعات الخاصة فى المقام الأول .

أما المشكلة الثانية فليست عريقة عراقة المشكلة الأولى . ذلك بأن صورة « العدل الاجتماعى » من بنات أفكار العصر الحديث ، لأن الحاجة لم تقتضها فى العهد الذى أنشئت فيه الجمهورية ، والعهد الذى تلاهُ عند ما توسع الأميركيون فى استعمار نصف قارة كبيرة وتعميرها من ساحل المحيط الأطلسى الى ساحل المحيط الهادى .

وليس ينكر أن الرأى والسعى اتجها فى العهد السابق لمستهل هذا القرن إلى تحسين حال العامل والمعدّن والعناية بالصحة العامة وحالة السجون عن طريق حكومة الولاية أو الهيئات المحلية . وليس ينكر كذلك أن سعياً بذل هنا وهناك لتنظيم العمال فى هيئات تتكلم باسمهم وتحمى مصالحهم ، وأن طوائف مختارة من رجال العلم والاجتماع بدأت تعنى عناية كبيرة بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية . وكانت أوربا نفسها قد سبقت إلى الاهتمام بمبادىء العدل الاجتماعى وقطعت فيه شوطاً لا بأس به ، فسنت قوانين شتى لضمان سلامة الشيوخ وغيرهم قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . ولما أسفرت تلك الحرب عن انهيار غير واحدة من الحكومات الأوتوقراطية ، اشتدت المطالبة بإصلاح من هذا القبيل ، ولم تكن المطالبة خالية من العنف أحياناً . وكانت الولايات المتحدة تتوفز لإصلاح من هذا القبيل فى عهد ولسن قبل دخول الحرب العالمية الأولى ، فلما دخلت الحرب انقطع الجهد ، ولما انتهت ضاعت الرغبة فى الإصلاح ، فى غمرة الإقبال واليسر التى تلتها ورغبة العودة إلى الحال كما كانت قبلها .

وقد كان روزڤلت ، أسوةً بغيره من جماعة الأحرار ، يدرك ضرورة الإصلاح ،

ولكنهُ لم يدرك مدى الحاجة وعمقها . فجاءت الضائقة فى سنة ١٩٢٩ كاشفة عن حقيقتهما . ومن حسن الحظ أنهُ تولَّى منصب الحاكم فى ولاية نيويورك فى أول يناير سنة ١٩٣٠ ، فأتيحت له الفرصة الملائمة لأن يلمس بأصبعهِ إخفاقَ الجماعات الخاصة التى كانت مسيطرة على الحكومة الاتحادية ، فى حلّ المشكلة الاقتصادية ، أو فى العناية بالعدد الكبير المتزايد بين الناس الذى كان فى حاجة إليها . فألوان العلاج التى اقترحتها هذه الجماعات كانت غير وافية بالغرض ، ولم تمسَّ أصول المشكلة وكان فى طليعة أخطائهم معارضتهم لكل إصلاح اجتماعى تقتضيهِ الحالة .

« فالتوزيع الجديد » فى ناحيتيهِ ، ناحية (الإصلاح) وناحية (الإنعاش) كان محاولة من قبل روزڤلت ومعاونيهِ لحلِّ هاتين المشكلتين — أى العودة بالحكومة إلى السيطرة الدمقراطية ، والسعى إلى تحقيق العدل الاجتماعى .

ويعترف روزڤلت فى مقدمة مجلداتهِ بأن من يسعى إلى استكشاف وجوه التناقض فى كل ماتمَّ لن يخيب . فهناك تناقض مردُّهُ إلى البحث عن أساليب لحل مشكلات عاجلةٍ وأخرى بعيدة الأمد (كالمساعى المبذولة فى سبيل الفلاح انظر صفحة ١٤٨ — ٤٩). وتناقض مردّه إلى قلة العلم ببعض المسائل المطروحة للبحث والحلّ . وتناقض مردّهُ إلى ضرورة التجريب . ومع ذلك فليس ثمة ريب ، فى أنه برَغم هذا التناقض ، وبرغم الإخفاق أو قلة النجاح الذى لازم كثيراً من المشروعات والقوانين ، نتبيّن التيَّار العام والهدفَ البعيد . و « التوزيع الجديد » لا يجب أن يحكم لهُ أو عليهِ الآن . فتأثيرهُ ماضٍ بعد ما يخرج روزڤلت من البيت الأبيض ، بل بعد ما يخرج روزڤلت من هذه الحياة إلى لقاء ربّهِ . وليس ثمة ريب ، فى أن كثيرين من الأميركيين ، عارضوا « التوزيع الجديد » مبدأً وعملاً ، مدفوعين على الأكثر بدافع مصلحة خاصة ، ولكنّ الكثرة الكبيرة من الشعب الأميركى ، وافقت عليهِ فى انتخاب الرآسة سنة ١٩٣٦ ثم فى انتخاب الرآسة فى سنة ١٩٤٠ . ففى سنة ١٩٣٦

أعيد انتخاب روزفلت للرآسة باتفاق ٥٢٣ صوتاً على ثمانية أصوات فى مجمع انتخاب الرئيس ، وباتفاق ستٍّ وأربعين ولاية على ولايتين . وكانت أكثريتهُ الشعبية أحد عشر مليوناً أو تزيد . وفى سنة ١٩٤٠ خرج الشعب الأميركىّ على قداسة التقليد بعدم انتخاب رجل ما ثلاثاً للرآسة ، وانتخب روزفلت ، فكان أول أميركىٍّ جلسَ فى مقعد الرآسة أكثر من ثمانى سنوات . نعم إن تعكُّر الجوِّ الدولى ، وتعقد المشكلات الناشئة عن الحرب ، وسداد الخطة التى جرى عليها روزفلت أيّدتهُ فى هذا الانتخاب . ولكنَّ منافسَهُ ولكى فى سنة ١٩٤٠ لم يكن مخالفاً لهُ فى القواعد الرئيسية الخاصة بالسياسة الخارجية والحربية . والغالب أن تأييد الشعب لسياسة « التوزيع الجديد » مع ما فيها من أخطاء فى التطبيق ، هو الذى رجّح كفة روزفلت حينئذٍ .

ولعلَّ العبارة التالية المنقولة من خطبة رآستهِ الثانية (٢٠ يناير ١٩٣٧) أبلغ ما يساق للدلالة على نزعتهِ الانسانية الصادقة . قال بعد ما وصف التحسن فى حالة الأمة خلال رآستهِ الأولى : — أنقف الآن مستدبرين الطريق الذى أمامنا ؟ . . . . إننى أرى ثلث هذه الأمة سىء المأوى ، سىء الملبس ، سىء الغذاء . وإذا رسمت هذه الصورة القاتمة فلست أرسمها بريشة القنوط . إننى أرسمها بريشة الرجاء ، لأن الأمة التى ترى وتدرك ما فيها من جور ، تنوى صدقاً أن تمحوهُ . إننا عازمون على جعل كل أميركى موضوع عناية البلاد ، ولن نعد جماعة ما خاضعة للقانون داخل حدودنا ، جماعة متطفلة علينا . إن مقياس ارتقائنا ليس قدرتنا على الإضافة إلى وفر الذين يملكون وفراً ، بل أن نتيح الكفاية للذين لا يملكون الكفاية » .

هذا هو المعنى الذى تبلور فى ما بعد فى قوله : « التحرر من العوز » .

— ٥ —

بعد ما جدّد انتخاب روزفلت للرآسة فى سنة ١٩٣٦ ، ارتكب خطأين سياسيين ، تردد صداهما فى طول البلاد وعرضها ، ولكنهما لم يؤثرا تأثيراً يذكر فى مشروعات « التوزيع الجديد » وقضيا قضاء أخيراً على الزعم بأن روزفلت حاكم بأمره (دكتاتور) .

بين مشروعات « التوزيع الجديد » مشروع كان يعرف بعد إقراره بقانون « الإنعاش القومى » (National Recovery Act والحروف التى ترمز إليه NRA). ومردُّهُ الأول إلى مشروع قدمه إلى مجلس الشيوخ أحد أعضائه — حينئذ — « هوجو بلاك » . ومداره جعل ساعات العمل فى جميع الأعمال التجارية بين الولايات Inter-State ثلاثين ساعة فى الأسبوع . وإذا كان المجلس لم يقرّهُ فان المبدأ الأصيل فيه ، وهو « زيادة عدد العمال العاملين بنقص ساعات العمل » أصبح فى حكم المقرر . وعندئذ عمدت « فرانسيس پركنز » وزيرة العمل ، إلى إضافة مبدأ ثان إليه وهو « تعيين حدٍّ أدنى للأجور » . ثم أضيفت إليهما مبادىء أخرى ، منها « الاستقلال الذاتى فى الصناعة والتجارة » على أن تدبر الهيئات المختلفة شؤونها وفقاً لدساتير يتفق عليها بين أصحاب العمل ، ويكون هذا التدبير تحت إشراف الحكومة . وقد قرر هذا المبدأ تفادياً لسن تشريع جامد ، قد لا يستطاع تطبيقه أو تتعذر ملاءمته لشتى الأحوال التجارية والصناعية فى البلاد . ومن هذه المبادىء زيادة «قدرة الأمة على الشراء برفع الأجور » .

جميع هذه المبادئ ضمنت قانون « الإنعاش الأهلى » . وعيّن الجنرال هيو جنصن للإشراف على تنفيذه ، ونصّ فيه على أن يعهد إلى كل صناعة فى وضع دستور للعمل تجرى عليه وتعيّن فيه الحدود العليا لساعات العمل ، والدنيا للأجور ، وقواعد المنافسة

الشريفة القائمة على الإنصاف على أن توافق الحكومة على كلّ هذا . ولما كان وضع هذه الدساتير من حق أصحاب العمل ، فقد طلبت وزارة العمل أن يُمنح العمّال حق تنظيم الهيئات الخاصة بهم لكى تمثّلهم ، وكذلك وضع فى صلب هذا القانون الفقرة الموسومة (7a) ونصّها : « للعمّال حق التنظيم والمساومة المشتركة عن طريق ممثلين يختارونهم وأن يكونوا أحراراً من تدخل أصحاب العمل أو وكلائهم وضغطهم و إرغامهم » . وأنشئت مجالس استشارية لتمثيل العمال والمستهلكين . ووقع القانون فى ١٦ يونيو ١٩٣٣

هذا القانون لقى اعتراضاً فيما بعد من ناحيته الدستورية فى أثناء التطبيق ، وهل هو يتفق ونصوص الدستور الأميركى أو يخالفها . والهيئة العليا المختصة فى الفصل فى مسألة من هذا القبيل ، فى الولايات المتحدة ، هى المحكمة العليا. فالسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى دستور الولايات المتحدة ، مفصولة إحداها عن الأخرى، وتقوم كلٌّ منها رقيبة على الأخرى . فإذا أقرّ الكونغرس قانوناً ما ، ووافق عليه الرئيس ، وعارضهُ أىٌّ من الناس ، كان فى وسعه أن يرفع قضيةً ، وللمحكمة العليا حقُّ الفصل النهائىِّ فى هل القانون مخالف للدستور أو لا . وكذلك أتيح للمحكمة العليا فى ٢٧ مايو من سنة ١٩٣٥ أن تصدر حكماً إجماعيًّا بأن « قانون الإنعاش القومى » مخالف للدستور . فأصاب هذا الحكم مشروعات « التوزيع الجديد » من أساسها .

فسخط روزفلت على هذا الحكم ، ولكن سنة ١٩٣٦ كانت سنة انتخاب للرآسة، فقضت الضرورات السياسية بأن يمتنع عن اقتراح تعديل دستورى يمكنه من الاحتفاظ بمزايا تشريعات « التوزيع الجديد » ، لأن كلّ اقتراح من هذا القبيل قد يفسره خصومه الجمهوريون بأنه سعى إلى إخضاع الأعمال الصناعية والتجارية لسيطرة الحكومة الاتحادية ، أى أن يسموه بالشيوعية .

و بينما كان الحزبان يتأهبان لعقد المؤتمرين اللذين يُختار فيهما المرشحون للرآسة

والوكالة ، ارتكبت المحكمة العليا خطأً ، ساعد روزفلت فى ما يلى . ذلك بأن هذه المحكمة كانت قد قررّت إلغاء القانون الذى سنهُ الكونغرس خاصًّا بتحديد الأجور وساعات العمل . ثم قررت — وهذا خطؤها — إلغاء قانون خاصٍّ بتعيين حد أدنى لأجور النساء ، وكان هذا القانون قد سن فى ولاية نيويورك . فذهل الناس . لأن المحكمة حكمت ، بأنه ليس فى الدولة كلها سلطة ما مختصة بالتشريع فى ما يخص ساعات العمل وحدود الأجور ، لا فى حكومات الولايات كلٍّ منها على حدة ، ولا فى الحكومة الاتحادية . حتى زعماء الحزب الجمهورى المقاومين للتوزيع الجديد لم يستطيعوا أن يبلعوا قراراً من هذا القبيل . وكذلك قررّوا فى بيان سياستهم الذى أعدهُ مؤتمرهم أنهم ينوون « حماية النساء والأطفال فى ما يخص تحديد حدٍّ أدنى لساعات العمل وحد أدنى للأجور وأحوال العمال » ثم أضافوا « ونحن نعتقد أن هذا مستطاع فى نطاق الدستور كما هو الآن ». وبعد ما رُشِّح الحاكم « لاندون » للرآسة عن الحزب الجمهورى أنبأ مؤتمرهُ أنهُ سيطلب تعديل الدستور إذا اقتضى الأمر ذلك للبر بهذا العهد . فأضعف هذا الحادث من تأييد الجمهوريين للمحكمة ضد الرئيس ، وعززت المحكمة بعملها هذا موقف روزفلت .

فلما أعيد انتخاب روزفلت (١٩٣٦) بأكبر أكثريةٍ عرفت فى تاريخ الرآسة الأميركية ، ارتكب خطأين سياسيين . أما الأول فمحاولتهُ التغلب على المحكمة العليا ، باصدار قانونٍ خاصّ بتعديل عدد أعضائها (١٩٣٧) ، والثانى بمحاولتهِ تطهير الحزب الدمقراطىّ من بعض « شيوخهِ » الذين لم يؤيدوهُ فى نزاعهِ مع المحكمة العليا . فأخفق فى الحالين .

وكان مدار القانون الخاص بأعضاء المحكمة العليا ، أن يسمح للرئيس ، بتعيين قاض فى المحكمة ، إلى جانب كل قاض بلغ السبعين ولم يعتزل العمل ، على ألاَّ يزيدَ عدد أعضائها (وهم تسعة) فى حال ما على خمسة عشر عضواً .

واقتراح تغيير عدد أعضاء المحكمة العليا ليس جديداً فى تاريخ الولايات المتحدة السياسى . فقد غُيِّر عددُهم خمس مرات قبلاً . ولو كان الباعث على سعيه هذا سياسيًّا محضاً لما كان مناقضاً للتقليد الأميركى ، وإن كان هذا التقليد لا ينزل فى طبقة التقاليد السياسية المحترمة عند الأميركيين . ولكنهُ لم يتوسّل بالسياسة فى مقترحهِ بل بالعجز الذى غالباً ما يلازم الشيخوخة . فالمتوسط من الناس قلّما يستطيع أن يبذل نشاطاً كبيراً جسديًّا أو عقليًّا ، بعد ما يجوز السنة السبعين من العمر . وهذا حكم لا ينقضهُ أن ڤولتير وغلادستون وبرناردشو وفارس نمر شذُّوا عليهِ . ولكنّ وراء هذا التوسل كانت الحقيقة القائمة أن هذه المحكمة التى قوامها تسعة قضاة معظمهم من الشيوخ ، كانت واقفة سدًّا منيعاً دون تنفيذ برنامج « التوزيع الجديد » . وكان روزڤلت يرى ، مخلصاً فى رأيهِ ، أن المحكمة لم تحكم حين حكمت على « دستورية القوانين » بل على « حكمة » هذه القوانين. أما الأول فمن حقِّها . وأما الثانى فليس كذلك . وكانت طائفة كبيرةٌ من أحكامها تصدر باتفاق خمسة من القضاة على أربعة . ولذلك رأى أنْ لا بدَّ من الاحتجاج على هذا العمل ، فأفرغ احتجاجَهُ فى قالب تشريع يتيح لهُ تعيين أعضاء جُدَد فى المحكمة العليا ، يرجِّحون كفة النزعة الحرَّة فى تفسير نصوص الدستور على كفة النزعة المحافظة أو الرجعية .

ويرجع هذا الاقتراح الجديد ، إلى وثيقة كانت محفوظة فى وزارة العدل وضعها فى سنة ١٩١٣ النائب العمومى مكرينولدز (وهو نفس مكرينولدز الذى غدا — وهو عضو فى المحكمة العليا — أعند خصوم التوزيع الجديد) ولباب هذا الاقتراح تعيين قاضٍ فى المحاكم الفدرالية من غير الشيوخ جنب كلِّ قاضٍ شيخ بلغ السبعين ولم يعتزل منصبَهُ .

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه روزڤلت فى هذا الصدد فى المقترح الذى اقترحه ، بل فى ظهورهِ مؤيداً لهُ . ففى رآستهِ الأولى كان روزڤلت قد استعدى كثيرين

Digitized by Google



الرئيس روزفلت يخطب

إلى يمينه وكيل الرآسة « ولاس » وإلى يساره وزير الزراعة « وكرد »
وأمامه أجهزة الاذاعة

LIBRARY

عليه . لأن تشريعات « التوزيع الجديد » ، هاجمت الطبقات المميزة بالغنى والجاه من الشعب الأميركى. والمميزون فى كل أمة أصحاب مال ونفوذ ولو كانوا أقلية . وكل من يملك المال والنفوذ يستطيع أن يرفع الصوت عالياً من كلّ ناحية أو أن يستأجر مَنْ يصيح . و إذن فكل صاحب مال أو نفوذ أو دخل كبير ، مسته تشريعات «التوزيع الجديد» كان يتوق إلى فرصة تتيح له أن يطعن صاحبها . ولكنه لايستطيع أن يظهر أنه مندفع بحبِّ الانتقام وحسب ، فعليه أن ينتظر إلى أن تواتيه فرصة يبدو فيها أنه داع فى سبيل قضية مقدسة ، فيلفُّ بستارها بواعثه الخاصة . فلما قام النزاع حول المحكمة العليا ، أتاح روزڤلت لخصومه الفرصة التى طالما تاقوا إليها . وهذا خطؤه . فاغتنموها ورفعوا الصوت عالياً ، هم وأتباعهم ، بأن كلّ همِّ الرئيس أن يحشد أتباعَه فى المحكمة ، فتغدو تأتمر بأمره ، وتوافق على كلِّ ما يريد . أين استقلال القضاء ! ليس ثمة ريب فى أن هذا التصوير للمسألة كان تصويراً خاطئاً . وكثير من تفاصيل المشروع المقترح لإصلاح القضاء كان فى محله وجديراً بالموافقة عليه فى رأى العقلاء والمنصفين من الأميركيين . ولكنَّ الفرصة أتيحت للذين يريدون أن يصوروهُ هـذا التصوير الخاطىء . فلم ينثنوا وهم يعلمون أن أقوالهم تضرب على أوتار حساسة فى نفوس الشعب ، فأفضت إلى سقوط منزلة الرئيس قليلاً ولكنها لم تكن كافية لمنع الدمقراطيين من الفوز فى الانتخاباب النيابية (١٩٣٨) ولا للحيلولة دون انتخاب روزڤلت ثالثة (١٩٤٠) .

ومهما يكن من أمر فقد امتنع الكونغرس عن الموافقة على القانون ، وكان بين معارضيه غير واحد من أقطاب الحزب الدمقراطى نفسه . وهذا أفضى بالرئيس إلى ارتكاب خطئه السياسى الثانى . فسنة ١٩٣٨ كانت سنة انتخابات نيابية فى الولايات المتحدة (جميع أعضاء مجلس النواب وثلث أعضاء مجلس الشيوخ) . فوجّه روزڤلت إلى الشعب نداء ناشدهم فيه أن يهزموا فى الانتخاب المقبل أعضاء مجلس الشيوخ

الذين عارضوا مشروعاته . ففعل هنا ما فعله قبلاً فى مسألة المحكمة العليا ، أى حرك كوامن الشعور الأميركى ، فى مسائل أحاطها الزمن بلون من القدسيَّة فى نفوس الأميركيين . ذلك بأن فى الولايات المتحدة تنكراً شديداً لتدخل البيت الأبيض فى انتخابات الولايات ، وقد جرَّبه ولسن فى سنة ١٩١٨ عند ما ناشد الأمة الإقبال على انتخاب مرشحى الحزب الدمقراطى ، فدارت عليه الدائرة ، وواجه مجلسيْ كونغرس أكثريتهما من الجمهوريين ، فعجز عن الفوز بإبرام المعاهدة التى عاد بها من مؤتمر الصلح فى أوربا . وميل الرئيس إلى التدخُّل ميل طبيعى . ولا سيما إذا كان رئيساً يوليه الشعب ثقتهَ وحبهُ . وكثيراً ما تأتيه الوفود من ولاية ما ، فيصورون له الحالة تصويراً خاصًّا ، ويؤكدون له أن كلمة منه تحرف الميزان . وكثيراً ما يصدق التصوير ويحدث الانحراف المطلوب ، ولكن مقام الرئيس العظيم ، يتيح للرجل الذى يحمل الرئيس عليه ، عطفَ العامة من الناس ، لاعتقاد هذه العامّة أن النضال بينهما غير متعادل . فيهرعون إلى تأييد الضعيف . وكذلك حصل فى الانتخابات النيابية فى سنة ١٩٣٨ . فقد كان الرئيس يرغب فى هزيمة طائفة معينة من أعضاء مجلس الشيوخ الدمقراطيين ، وقال ذلك فعمد خصومه حالاً إلى وصف هذا التصريح بأنه من نوع التطهير الذى يعمد إليه الطغاة . فانحاز جمهور الناخبين إلى هؤلاء الأعضاء وأعادوا انتخابهم .

كيف أخطأ روزفلت المحنك هذا الخطأ السياسى ؟ يقول بعضهم إنه عمد إلى هذا النداء رغبةً منه فى انتخاب أعضاء يكفل بانتخابهم تماسك الحزب . وهو تفسير معقول ، وهذه الرغبة فى أمة دمقراطية رغبةٌ سليمة ، وهذا هو تفسير الأصدقاء . ويقول بعض آخر إن الرئيس سخط فضلَّ الرشاد ، وهذا هو تفسير الخصوم . ولكنه لا يأتينا بجديد . فروزفلت ليس قديساً لا يغضب ولا يسخط . ومتى سخط فحكمه ليس بمنجى من الخطأ ، إذ من يكون معصوماً عن الخطأ عند ما يستشيط غضباً !

ولكن مهما يكن التفسير، فليس ثمة ريب فى أن إعجاب الشعب الأميركى بالرئيس روزفلت ، لا يخالف ولا يناقض استقلال ذلك الشعب فى أحكامهِ . فقد مضى على الرئيس عشر سنوات وهو أعلى الأميركيين مقاماً وأعظمهم نفوذاً ، وقد أيّدهُ الشعب تأييداً كبيراً فى ثلاث معارك انتخابية للرآسة . ومع ذلك فهذا الشعب لا يُسَلِّم تسليماً أعمى بأن ما يقوله روزفلت مقدّس ، ويستطيع عند ما يلزم ، أن يقول له « قف » .

فسِّر الحوادث كما تشاء . فقد كانت خيبته فى مناضلة المحكمة العليا ، وإخفاقه فى تطهير الحزب من بعض أعضائهِ ، تعنيفاً سياسيًّا للرئيس ، ولكن متى تمكّن الناخبون فى ألمانيا أو إيطاليا من تعنيف هتلر أو موسولينى على هذا الوجه ، فتعال وحدثنى عن دكتاتورية روزفلت ! إذ ما قيمة دكتاتور لا يستطيع أن يُقصى أو يقضى قضاء سياسيًّا طبيعيًّا ، على خصم سياسىٍّ لهُ !

* * *

هل فى وسع الكاتب أن يتبيَّن تأثير « التوزيع الجديد » فى هذه الحرب ؟ قد يكون العمل شاقًّا محفوفاً بالمزالق ، ولكن الموضوع جدير بالمحاولة .

إن نظرة عامّة إلى ما تقدم من أغراض « التوزيع الجديد » ، وما قيل على لسان روزفلت وهَلْ (وزير الخارجية) وسمنر ولز (وكيل الخارجية) عن أغراض الدول المتحدة فى الحرب ، ولا سيما ما طوى منها فى الوثيقة المعروفة بدستور المحيط الأطلسى ، وتصريح الحريات الأربع ، لضمينة باستشفاف الصلة الوثيقة ، بين قواعد السياسة الاجتماعية الداخلية فى الولايات المتحدة ، وبين الأهداف المتوخاة فى هذا النضال العالمىِّ المستحِرِّ . والصلة تتضح على وجهٍ خاص بعد المقابلة ، بين الأهداف التى أعلنها ولسن فى سنة ١٩١٨ ، والأهداف التى أعلنها روزفلت وتشرتشل ثم روزفلت وأعوانهُ فى ١٩٤١ و ١٩٤٢ .

كان ودرو ولسن أبلغ ناطق بلسان الحلفاء فى سنة ١٩١٨ وأفصح مُعربٍ عن أغراضهم . فقد كان يجيد القول علاوةً على كونه رئيس الدولة الكبيرة الوحيدة المعروفة عند شعوب الأرض بأنها لا تبغى التوسع الجغرافى . ثم إن زملاءهُ رؤساء الدول الحليفة ، ما كان فى وسعهم ، لشدة حاجتهم إلى عون الولايات المتحدة الأميركية ، أن يعترضوا على الأهداف التى أذاعها الرئيس الأميركى ، فاسترعت اهتمام الشعوب . وولسن لم يكن مصلحاً اجتماعيًّا قوميًّا كبيراً ، فى المقام الأول ، بل كان يهتمُّ بالإصلاح الاقتصادى من ناحيـة تأثيره فى تجارة الأمة الداخلية والخارجية .

وكذلك جاءت « الشروط الأربعة عشر » إعراباً عن عقيدة رجل يمت إلى أحرار القرن التاسع عشر بصلة وثيقة ، فقد كان دستوريًّا يؤمن بالحرية السياسية والدمقراطية السياسية . ولذلك كانت القواعد التى قامت عليها هذه الشروط : الدبلوماسية الصريحة ، وحرية البحار ، ونزع السلاح ، وتقرير المصير ، والاعتراف بالقومية فى أوربا والشرق الأدنى ، وإنشاء « جماعة من الأمم » تضمن النظام الدولى والسلام فى المستقبل . فبحسب ولسن كانت طريقة معالجة المشكلات الاقتصادية الداخلية والاصلاح الاجتماعى الداخلى فى أمة ما من شأنها الخاص دون الدول الأخرى .

ولكنَّ الرأى فى عمل الحكومة ووظيفتها فى المجتمع ، كان قد أخذ يتطوَّر حتى عندما كان ولسن يرسل كلماتهِ البليغة التى هزّت أوتار النفوس . ففى طائفة كبيرة من دول أوربا ، كانت الحكومات قد أنشأت تشارك مشاركة فعّالة فى مسائل الصحة وضمان السلامة الاجتماعية وإتاحة فرص العمل وما أشبه . وفى سنة ١٩٣٢ أصبح هذا الرأى فى وظيفة الحكومة «قاعدة» أساسية فى سياسة الحزب الدمقراطى . وليس يهمنا هنا البحث فى حكمة تشريعات « التوزيع الجديد » ، ولكن يهمنا أن نقول إن الشعب الأميركى سلم بالمبدأ العام ، وهو أنه يتعين على الحكومة أن تضمن للشعب شيئاً أكثر من الحرية السياسية .

فمنطق التماسك فى رأى روزفلت وخلقه ، وسير الحوادث العالمية ، اقتضيا بحكم الطبع ، أن يحثّ روزفلت العالم على قبول هذه الفلسفة الاجتماعية الاقتصادية الجديدة ، هدفاً من أهداف الحرب . ونصوص « دستور المحيط الأطلسى » لا تدع مجالا للريب فى صحة هذا الاستنتاج . فستة من النصوص تحذو حذو أقوال ولسن فى شروطه الأربعة عشر ولكن النصين الباقيين يحتويان على عهد مقطوع بالتعاون بين الدول « على رفع مستوى عيش العمال والتعديل الاقتصادى وضمان السلامة الاجتماعية » وعلى تحرير الناس « من الخوف والعوز » . إذن هذا هو « التوزيع الجديد » مفرغاً فى قالب دولى . وقد جرى تصريح روزفلت الخاص بالحريات الأربع (يناير ١٩٤١) على الطريق نفسه

ولا يجدينا فى هذا المقام ، أن نناقش مسألة ، قد تكون فى الصميم من النظام الدولى المرتجى ، وهى : هل يتفق الاستقلال القومى مع السعى الدولى لتحقيق حقوق الفرد فى معناها الجديد ، داخل كلّ دولة ؟ وحسبنا أن نقول إن أغراض هذه الحرب تشمل أغراض « التوزيع الجديد » ، وهذا ظفر كبير لبرنامج قومى ، لمّا تنقض عليه إلا تسع سنوات أو أكثر قليلاً .

LIBRARY

الفصل الخامس

الولايات المتحدة والعالم

١ — قواعد سياستها الخارجية

٢ — روزڤلت وسياسة الجار الطيب

٣ — قانونا « الحياد » و « والإقراض والتأجير »

٤ — الولايات المتحدة محاربة

٥ — روزڤلت وهتلر والعالمَ المرتجَى

إن حقائقَ الجغرافيـة والتاريخ والاقتصاد هى التى تملى على كل أمةٍ سياستها الخارجية . وليس فى وسع أمةٍ ما أن تتحرَّر ، فى وضع سياستها الخارجيـة ، من أحكام موقعها الجغرافى وتطوُّرها التاريخى وحالتها الاقتصادية . والولايات المتحدة الأميركية ، لا تستطيع ، ولو شاءت ، أن تشذ على هذا الحكم .

فالقوة المحرّكة الأولى فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، هى الرغبـة فى تحقيق السلامة القومية . وهذه الرغبة ، لا تختلف عن رغبـة الدول الأخرى . ولكنّ وضعها الجغرافى ، ونموّها الاقتصادى ، حملاها على الخروج على كثير من قواعد السياسة الخارجية ، التى جرت عليها دول أوربا بوجهٍ عام . فشواطئ القارة الأميركية الشمالية ، فى الشرق وفى الغرب ، بعيدة عن أقرب الدول إليها ألوفاً من الأميال ، وهذه المسافات الطويلة ، كانت فى عهد نشوء الدولة الأميركيـة ، حائلاً كبيراً دون خطر الغزو . فاستطاعت الأمة الأميركيـة أن تتوسَّع فى مناطق شاسعةٍ غنيةٍ من الساحل الشرقى إلى الساحل الغربى ، من خليج المكسيك إلى منطقة البحيرات الكبيرة ، من غير أن تلقى بالاً إلى خطر غازٍ أو تهديد فاتح . وبدلاً من أن تجنِّد أبناءها وتسلِّحهم ، ليكونوا أبداً متأهبين ، لردِّ خطرٍ محتمل أو قريب ، انطلقوا أحراراً فى غزو الأراضى البكر ، يحولونهـا حقولاً فساحاً ، وينشئون فيها مدناً بالمئات والألوف ، ويقيمون فيهـا مصانع تنتج للاستهلاك المحلِّى أولاً ، ثم للإصدار كذلك . ومضى قرن على الأمة الأميركية ، بعـد استقلالها ،

وهى لا تحسُّ حاجةً ما ، إلى إنشاء أسطول كبير ، بينما كانت الدول الأوربية مضطرةً إلى إرصاد مبالغ وافرة من المال للتسلُّح البرىِّ والبحرى .

ففى قرنٍ من الحياة القومية ، المتسمة بغزو الطبيعة ، واطراد الإقبال ، والبعد الجغرافىِّ عن النزاع الدولى ، والرضى عن الحكم السياسى الذى آثروهُ ، بعد الثورة والاستقلال ، لا يستغرب أن ينشأ فى الأمة الأميركية ميل إلى الابتعاد عن الأمم الأخرى ، بل والتعالى عليها . فالبعد ومشقة المواصلات يولدان الجهل ، والأميركيون كانوا إلى عهد قريب يجهلون عن العالمَ الذى خارج عالمهم أكثر مما يعلمون . والنظام الجمهورى الذى اختاروهُ ونعموا فى ظلِّهِ بالحرية وانفساح فرص الارتقاء المادى حملهم على النظر إلى سائر الأمم التى لم تجارهم فيهِ ، نظر الكبير إلى الصغير ، أو رفيع المقام إلى حقيرهِ . وانصرافهم أولاً إلى استغلال موارد بلادهم الغنية وردِّ حدودهم إلى الساحل الغربى ، شغلهم عن الاهتمام بكثير من وجوه النزاع الاقتصادى العالمى . وما ترامى إليهم عن دهاء الساسة فى أوربا بذر فى نفوسهم بذور النفور منهم وعدم الاطمئنان إليهم . وإذا استثنينا حرب الاستقلال والحرب الأهلية ، فجميع الحروب التى خاضها الأميركيون كانت خارج بلادهم . ومع أن هذه الحروب شغلتهم حيناً من الزمن ، إلاّ أن موقفهم منها كان على الأكثر موقف المتفرج . فقليل بين الأميركيين من يشعر كما يشعر روپرت بروك الشاعر الانكليزى ، بأن مقبرة فى فلاندر فيها جثث جنود انكليز هى زاوية من انكلترا . فالأميركيون لم ينشئوا فى فرنسا مدافن لجنودهم الذين سقطوا فيها فى الحرب العالمية الأولى ، بل حاولوا استرجاعها إلى بلادهم على الأكثر .

أى ان الولايات المتحدة استطاعت ، خلال جانبٍ كبيرٍ من تاريخها ، أن تنصرف عن مناورات « سياسة القوة » التى مُنيت بها بقاعٌ أخرى من الأرض . فليس لها جيران تخشاهم ، والقوة الوحيدة التى كانت تخشاها إلى مطلع العصر الحديث كانت

القوة البحرية ، ومع ذلك لم يكن فى أوربا وآسيا فى ذلك العهد ، أمة ما ، مهما تكن مطامعها ومطامحها ، تستطيع أن تستدبر أوربا لتمدّ يدها إلى ما وراء المحيطين الهادئ والأطلسى ، بغير أن تخشى الدول الأخرى فى آسيا وأوربا . فالولايات المتحدة جنَتْ بغير أن تعلم ، خيراً كبيراً — من ناحية السلامة والاطمئنان — من سياسة توازن القوى ، التى تركت أوربا منقسمة على نفسها ، وأتاحت للولايات المتحدة مجالاً لتكون قوة عالمية فى الطليعة ، لأنها أتاحت لها فرصة لتحوّل قوتها الكامنة إلى قوة حقيقية فعّالة .

فكان من الطبيعى أن يعدَّ الشعب الأميركى الاهتمام بالسياسة الخارجية مدة ما من النوافل . وتاريخ الولايات المتحدة الدبلوماسى إلى القرن العشرين لايشمل فى ماعدا فترات قصيرة ، قصص المناورات السياسية ، بل يشمل على الأكثر ما كانت الحكومة الاميركية تطلبهُ تعويضاً لأبنائها فى روسيا والصين وأرلندة وغيرها ، وكان السفير الأميركى ، أو الوزير المفوض فى معظم العواصم ، كأنهُ فتاة منتحية فى بهو الرقص ركناً تطل منه على الرقص — الدبلوماسى — بغير أن تشترك فيه

وساعد على هذا الموقف ، أن الشعب الأميركى ، شعب خليط . فالصلات النفسية والبيولوجية القوية ، بين فئات معينة من الشعب الأميركى ، والبلاد الأوربية التى نزحوا عنها ، كانت قوية فلم يكن من الحكمة أن تتخذ حكومة الولايات المتحدة موقفاً معيناً مع فئة من الدول ضد أخرى ، لئلاّ يفضى ذلك إلى نقل العداوات الأوربية القديمة ، إلى العناصر التى يتقوّم بها الشعب الأميركى فى العالم الجديد .

ومع ذلك فهذه الأحكام العامة لا تصدق بغير استثناء ، ففى أيام جورج وشنطون تتبع الأميركيون النضال بين بريطانيا وفرنسا بكل اهتمام . وفى أيام ماديسون ، لم يسلموا من أعاصير الحروب النبوليونية ، وفى أيام مونرو ، لم يقفوا وقفة

المتفرج وحسب من ثورات أميركا اللاتينية وحرب استقلال اليونان . ولعل أول دليل على منزلة الشؤون الخارجية عندهم ، أن الرجل الذى يلى الرئيس منزلة ومقاماً فى الحكومة الاميركية ، إنما هو وزير الدولة Secretary of State أى وزير الخارجية .

ثم جاءت سنة ١٩١٤ . فقبل تلك السنة كان فى وسع الأميركيين أن ينصرفوا عن الاهتمام بالسياسة الخارجية فترات طويلة . والواقع أن ولسن لم يورد فى خطبة تنصيبه الأولى (٤ مارس ١٩١٣) أشارة ما إلى السياسة الخارجية ، وفى رسالته إلى الكونغرس فى دسمبر فى تلك السنة ، أشار إشارة عابرة إلى مساعى وزير خارجيته بريان Bryan لعقد معاهدات غرضها أن يتعهد الفريقان المتعاقدان ألا يعمدا إلى الحرب ، مدى سنة كاملة بعد قيام نزاع بينهما ، فيتسع الأمد لبحث النزاع ، ولتهدئة الخواطر ، كما أشار إشارة عابرة أخرى إلى اغتصاب الحكم فى المكسيك .

ولكن الأميركيين بدأوا بعد نشوب الحرب فى سنة ١٩١٤ ، يتنبهون إلى شؤون العالم وأنشأوا لذلك هيئات ومجالس لدراسة المسائل الخارجية ووضع كتب وتقارير فيها ، مثل « مجلس العلاقات الخارجية » الذى يصدر مجلة « الشؤون الخارجية » Foreign Affairs وهى مجلة ربعية . وهذا مثل واحد من عشرات . ويضاف إلى ذلك اهتمام صحفهم الكبيرة بالشؤون العالمية ، ونبوغ فريق من المراسلين الذين جعلوا همهم إطلاع القراء الأميركيين على سير الحياة فى شتى بلدان العالم . وكذلك تحطمت رويداً رويداً طائفة كبيرة من الحوائل التى كانت تفصل شعب الولايات المتحدة عن العالم .

وليس الغرض من هذه الفقرة الأولى ، فى هذا الفصل إلاَّ أن تكون توطئة لبحث سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى عهد الرئيسن فرنكلن دلانو روزفلت . فالمجال

لا يتسع لتتبع التطور التاريخى لهذه السياسة وتأثرها بشتى العوامل الحربية والاقتصادية والسياسية والثقافية . ومع ذلك فلا مفرّ ، رغبة فى الوضوح ، من الإشارة إلى الصفات الخاصة الدائمة — بقدر ما لآراء الناس من دوام — التى تتصف بها السياسة الخارجية الأميركية ، أو نظرة الشعب الاميركى وشعوره حيال مسائل السياسة الخارجية .

١ — إن القاعدة الأساسية الأولى فى السياسة الأميركية الخارجية ، هى ميل الحكومة والشعب إلى تأييد النظم الدمقراطية فى الحكم والحكومات الشعبية فى جميع أنحاء الأرض . فالجمهورية الأميركية ولدت فى أحضان الثورة على تحكم انكلترا والملك جورج الثالث . فغرس ذلك فى كيانها السياسى والاجتماعى ، الشعور بأن لها رسالة قومية تؤديها ، وأن لباب هذه الرسالة هو بذل ما فى الوسع لتعزيز الحكومات الشعبية فى جميع الأمم ، فلم تفوت فرصة أتيحت لها ، بغير أن تندد بالحكومات القائمة على التحكم . فالرغبة فى الحرية التى حملت الرعيل الأول من آباء أميركا الحديثة على الرحيل من بريطانيا وهولندا إلى العالم الجديد ، ثم الشعور الذى دفع برجال « المستعمرات » إلى تحدى الملك جورج الثالث فى سنة ١٧٧٦ ، هو هو الشعور الذى دفع ولسن إلى انتضاء السيف ضد القيصر والعسكريين الألمان فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) ثم دفع فرنكلن روزفلت خلال هذه الحرب إلى الحملة على قوى الطغيان . فاقتناع الولايات المتحدة بأنها يجب أن تكون مثالاً للحرية والدمقراطية ، أساس تلك الخطبة الرائعة التى خطبها لنكن فى ساحة جتسبرج وقال فيها إذا أخفقت هذه الأمة التى « ولدت فى مهد الحرية ووقفت على مبدأ التساوى بين الناس » ضاعت ، لأنها لاتستطيع أن تحيا « نصفها عبدٌ ونصفها حرٌّ » وعندئذ تصاب أسس الحرية والدمقراطية فى الأرض بصدمة قوية قد تزعزعها . ولذلك كانت الحكومة الاميركية ، سبّاقةً على العموم إلى الاعتراف بالحكومات الشعبية التى تلدها الثورات ، أو إلى تشجيع الشعوب المستبد بها إلى أن يحين وقت تحريرها .

وقد تقلب موقف الشعب الأميركى ، الذى يستند إلى هذه القاعدة ، خلال التاريخ الأميركى . ففى العهد الأول من تاريخ الجمهورية الأميركية ، كان الأقطاب الأميركيون مدركين ، أن الجمهورية تجربة . فلما أصابت التجربة نجاحاً ، ومالت نظمها إلى الاستقرار ، مالوا هم كذلك إلى عدها منارة تضىء ومثالاً يحتذَى للأساليب الدمقراطية. وإلى هذا أشار لنكن — فى الخطبة التى تقدم ذكرها — عندما قال « إن حكومة الشعب من الشعب للشعب » تمتحن أقصى إمتحان فإذا خرجت من الإمتحان سليمة أثبتت للعالم أنها مما يجدر الموت فى سبيله . أى أن الولايات المتحدة ، كانت تحاول أن تضرب المثل على قيمة النظم الدمقراطية ، بنجاح هذه النظم فى بلادها . وهو ما مال إليه ستالين ، بعد خلافه مع تروتسكى على أثر وفاة لنين . فستالين ذهب إلى أن نجاح الدولة الاشتراكية فى روسيا ، خير قدوة وأفعل دعوة إلى هذا اللون من نظم الحكم . بينما تروتسكى كان يميل إلى الدعوة إلى الثورة العالمية ، حتى قبلما يثبت أن هذا اللون من نظم الحكم آتى ثمرهُ فى بلد ما .

على أن ميل الولايات المتحدة إلى تأييد النظم الدمقراطية ، أفرغ فى قالب فعَّال مستند إلى استخدام القوة فى عهد ولسن عند ما جعل شعار أميركا فى الحرب العالمية الأولى « تأمين العالم للدمقراطية » . ودراسة التاريخ الأميركى والسياسة الخارجية الأميركية ، تسفر عن حكم يكاد يكون ثابتاً ، وهو الولايات المتحدة ، تميل دائماً إلى مناهضة الحكومات المستبدة قولاً وفعلاً ، فتعطف عطفاً قويًا على النزعات الدمقراطية ، ولا تنى عن المشاركة الفعَّالة ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، فى مكافحة الطغيان وتأييد الدمقراطية كما فعلت فى ١٩١٧ — ١٩١٨ وفى ١٩٣٩ — ١٩٤٠

ومن نواحى هذه القاعدة فى السياسة الخارجية الأميركية ، ناحية الإيمان بادارة العلاقات الدولية على أساس دمقراطى ، وهو إيمان يبلغ أحياناً حدود السذاجة والتنكر للفطنة . فالأميركيون يؤمنون بأن كُتَل الشعوب تستنكر الحرب ، وأن

الزعماء الذى لا يمثلون أممهم تمثيلاً صحيحاً هم الذين يقودونها إلى الصراع ، وهذا الإيمان لايقيم وزناً صحيحاً للبواعث التاريخية والسيكولوجية ، فى حياة الشعوب وطبائع الحكومات وهى التى يرجع إليها على الغالب نشوب الحروب . ويتصل به استنكار أساليب السياسة الخفية ، والمعاهدات السرّية ، وهو الذى حمل ولسن على جعل الشرط الأول من شروطه الأربعة عشر إلغاء « الدبلوماسية السرّية » . وليس ثمة ريب فى أن « للدبلوماسية السرية » مساوىء كثيرة ، ولكنّ ولسن نفسه أدرك ، بعيد إعلان شروطه ، أن المضىّ فى شرطه الأول إلى نهايته المنطقية ، يجعل المفاوضات الدولية متعذرة .

٢ — أما القاعدة الثانية فى السياسة الأميركية الخارجية فهى اجتناب الاشتباك بغير مسوِّغ أو حاجة ، مع الدول الأخرى ولا سيما الأوربية . وهو ما يطلق عليه عادة وصف « العزلة » . وقد كانت هذه القاعدة طبيعيةً فى العهد الأول من حياة الجمهورية الأميركية إذ كانت جمهورية ناشئة ضعيفة تخشى الاندفاع فى دردور المطامع القومية وما يلازمها من نزاع . والأميركيون يميلون إلى القول بأن وشنطن رئيسهم الأول أشار بهذه السياسة فى خطبة الوداع عندما أرخى مقاليد رآسته الثانية . وقد قال وشنطن فى هـذه الخطبة ما مؤداه : إن لأوربا مصالح رئيسية لا صلة لها بنا أو صلتها بنا بعيدة . فهى (أى أوربا) أبداً مشتبكة فى وجوه من الخلاف والنزاع أسبابها بعيدة عنا . فليس من الحكمة أن نورط أنفسنا فى معترك سياساتها وصداقاتها وعداواتها بانشاء روابط مصطنعة مع واحدة وأكثر منها . وهذا المعنى نفسه أفرغه نولكن السفير السويدى فى لندن عند ما قال لجون ادمز السفير الأميركى « من المسلم به عندى يا سيدى أن الفطنة ستحملكم على مشاهدتنا نذبح بعضنا بعضاً بترفع فلسفى ! » . ولكن وشنطن لم يقل شيئاً عن الامتناع عن « محالفات شابكة » Entangling Alliances وهى العبارة التى يوردها الأميركيون بوجه عام لتسويغ امتناعهم عن

الاشتراك فى عصبة الأمم فى العهد الحديث . وقد وردت فى خطبة للرئيس ولسن كذلك . والواقع أن هذه العبارة وردت أولاً فى خطاب للرئيس جفرسن . أما وشنطن نفسه فلم يحجم عن الإشارة بعقد « محالفات عابرة لأغراض استثنائية » . ومهما يكن من أمر فان جميع الرؤساء وأقطاب السياسة فى العهد الأول من حياة الجمهورية الأميركية كانوا مجمعين على ضرورة العزلة . و بعضهم ذهب فى تفسير ذلك إلى أبعد حدود الاعتساف . فمبدأ العزلة — على قول أحد المؤرخين — لم يكن فى الهواء ، ولكنه كان الهواء الذى يتنفسه المشتغلون بالسياسة الأميركية . وجون أدمز الذى تولى السفارة الأميركية فى فرنسا وهولندا وانكلترا ثم كان وكيلاً للرآسة فرئيساً أشار بامتناع الولايات المتحدة عن عقد معاهدات تحالف مع دولة أور بية ما و بالإحجام عن كل تعاقد إلا أن يكون تعاقداً تجاريًا ، وأن تنفصل على قدر الطاقة ومدى المستطاع عن كل أور با وسياستها وحرو بها . ويقول مؤلفو كتاب « علاقات أميركا الخارجية » إن الدستور الأميركى أقرّ مبدأ انتخاب الرئيس بوساطة « مجمع انتخاب » خاص لأن واضعى الدستور كانوا يخشون أن يعهدوا فى انتخابه إلى الكونغرس لئلاّ يكون الكونغرس مجالاً لدس الدول الأجنبية بنية اختيار رجل يعطف على سياستها ومصلحتها .

ويقولون كذلك إن قاعدة إبرام المعاهدات فى مجلسى الشيوخ بأكثرية الثلثين — وهى من العوائق التى تعترض العلاقات الخارجية الأميركية — مردُّها كذلك إلى الرغبة فى الحيلولة دون إفساد مجلس الشيوخ عن طريق الدس الأجنبىّ . ثم إنّ الرجل الذى يتولى الشؤون الخارجية فى الهيئة التنفيذية دعى للغرض نفسه « وزير الدولة » لكى لا يؤخذ وصفه « وزير الخارجية » دليلاً على الخروج على مبدإ العزلة .

ولعلّ السياسىّ الأميركىّ الكبير الوحيد بين أقطاب ذلك العهد ، الذى لم يلزم سياسة العزلة دائماً هو بنيامين فرانكلن ، ولكنه كان يعلم أنه الشذوذ الذى يؤيد

القاعدة العامة . إلا أن الاتجاه بدأ يتغير رويداً رويداً بعيد منتصف القرن الماضى . ففى سنة ١٨٦٢ كتب سيورد (وزير خارجية لنكن) إلى الوزير الأميركى فى كوستكاريكا كتاباً ذهب فيه إلى أن وشنطن لم يقترح ما اقترحه قاعدة لسياسة ثابتة دائمة وانه على الضدّ من ذلك كان يريدها سياسة للجمهورية إلى أن يشتدّ ساعدها وتتوطد وحدتها وقوتها . وفى سنة ١٨٧٥ اقترح الوزير « فش » على الدول الأوربية الاشتراك مع الولايات المتحدة فى التدخل لتوطيد السلام فى كوبا الثائرة على أسبانيا. وقد فعل هذا برغم أن سلفهُ « أفريت » أبى (١٨٥٢) أن يشترك مع بريطانيا وفرنسا فى ضمان كوبا لأسبانيا وذلك (لنفورنا من المحالفات السياسية مع الدول الأوربية) على حد قوله . وفى سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ أوفدت الحكومة الأميركية وفداً إلى مؤتمر برلين لبحث موضوع حوض الكونغو فى أفريقية . وتأيدّ هذا الإتجاه عند ما اشتركت الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا فى إنشاء حماية مشتركة على جزائر صاموى فى المحيط الهادى . ثم فى سنة ١٩٠٦ اشتركت الحكومة الأميركية — فى رآسة ثيودور روزفلت — فى مؤتمر الجزيرة . ومن الطف ما يروى فى هذا الصدد أن عضو الشيوخ هنرى كابوت لودج — وهو أعندُ خصوم ولسن فى مسألة عصبة الأمم — وقف فى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٠٦ ودافع عن عمل الحكومة فى اشتراكها فى مؤتمر الجزيرة ، فقال إنه إذا كان وشنطن قد أشار بامتناعنا عن عقد محالفات قد تفضى إلى زجّنا فى حروب أوربية لا شأن لنا بها ، فإنه كان أعقل وأحصف من أن يشير بالامتناع عن الاشتراك فى اتفاقات مع دولة ما أو مجموعة ما من دول أوربا ، إذا كانت فائدتها عظيمة لنا وللعالم أجمع .

ولم يقتصر هذا الاتجاه على صلة الولايات المتحدة بأوربا بل شمل صلتها بشؤون الشرق الأقصى ، ففى سنة ١٨٦٤ اشتركت مع بريطانيا وفرنسا وهولندا فى تعنيف اليابان فى حادثة معينة لها تاريخها ، وفرضت غرامة ، وقد ردت الولايات المتحدة

الغرامة باختيارها . فى سنة ١٨٨٣ . وخرجت الولايات المتحدة خروجا نهائيًا على قاعدة العزلة فى ما يتعلق بشؤون الشرق الأقصى بعد احتلال الفيلبين فى أواخر القرن الماضى ، ثم اشتركت مع الدول الأوربية فى التدخل فى ثورة البوكسر بالصين سنة ١٩٠١ وفى سنة ١٩٠٥ توسط ثيودور روزفلت ساعياً بالصلح بين اليابان وروسيا . ولا يخفى أن سياسة « الباب المفتوح » من وضع وزير الخارجية الأميركية هاى فى سنة ١٨٩٩ وأن معاهدة الدول التسع (١٩٢٢) أفرغت فى قالب دولى رسمى قواعد السياسة الأميركية فى الشرق الأقصى وقد وضعت فى مؤتمر وشنطن[1] . أما الحرب العالمية الأولى ، فقد خاضت الولايات المتحدة غمارها ، خارجةً خروجاً ظاهراً على العزلة ، وإن كان الارتداد إلى قوقعتها قد أعقب هـذا الخروج فى سنة ١٩١٩ عند ما أبى مجلس الشيوخ أن يبرم المعاهدة التى عاد بها ولسن . وأيد الشعب ذلك الارتداد فى انتخابات الرآسة المتوالية فى ١٩٢٠ و ١٩٢٤ و ١٩٢٨ فكانت هذه الفترة والجانب الأول من عهد فرنكلن روزفلت سنين غلب فيها روح العزلة السياسية حيال أوربا على روح الاشتراك فى مسائل العالم ، وإلى هـذا قصدت عند ما أوردت فى آخر الفصل الثانى عبارة « الارتداد من جنيف » .

٣ — أما القاعدة الثالثة فى السياسة الخارجية الأميركية فهى « قاعدة مونرو » وما يتصل بها من فكرة « الجامعة الأميركية » Pau-Americanism

وقد وضعت قاعدة مونرو وأذيعت فى رسالة الرئيس مونرو إلى الكونغرس فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٢٣ عند ما كان الخطر الأوربى الرجعى يحف بأميركا اللاتينية . وهذه القاعدة قررت مبدأين : أولهما أن القارتين الأميركيتين لا يجب أن تعدًّا مجالاً لاستعمار أمة أوربية بعد ذلك العهد . وثانيهما أن كلّ تدخل فى الجمهوريات الأميركية

---

(١) مبادىء هذه المعاهدة قطع العهد باحترام وحدة الصين الجغرافية وسلامتها والتسليم بمبداء « الباب المفتوح » فى العلاقات الاقتصادية معها

اللاتينية الجديدة للسيطرة عليها أو الاستبداد بها تعدُّهُ الولايات المتحدة عملاً غير ودى نحوها . ومن الواضح أن صيغة القاعدة قابلة للتأويل تأويلاً واسعاً . فإذا حاولت ألمانيا أو ايطاليا أو اليابان مثلاً ، إنشاء صلة بجماعات الألمان أو الطليان أو اليابانيين المقيمين فى هذه الجمهوريات على وجه يجعلهم فى نظر هذه الدول مستعمرين ، لقى العمل مقاومة شديدة من الولايات المتحدة . ومن هذا القبيل سعى إحدى هذه الدول لإنشاء « طابور خامس » فى هذه الجمهوريات بالضغط الاقتصادى أو الدعاية السياسية . فالعمل فى الحالين تنظر إليه الولايات المتحدة كما تنظر إلى انزال جيش غاز فى العالم الجديد .

وعامة الأميركيين تنظر إلى هذه القاعدة نظراً غامضاً ، ومن المرجح أن قليلاً منهم أطلع على نصوص القاعدة نفسها و إنما يعدّونها إنذاراً بالابتعاد عن العالم الجديد، وسوراً يحمى الولايات المتحدة و يصون سلامتها ، و يأبون كل ما يوهنها . ومن القصص التى تروى فى هـذا الصدد قول أحدهم « إننى لا أعلم على وجه التدقيق ما معنى القاعدة ولكننى أضحى بحياتى مرتاحاً فى الدفاع عنها » .

وليس ثمة ريب فى أن هذه القاعدة كانت فى الصيغة التى أفرغت فيها أولاً والزمن الذى أذيعت فيه ، غاية فى الحكمة والفائدة . فقد جنت منها الجمهوريات الأميركية اللاتينية فائدة عظيمة لأنها أطلقتها من خطر التيارات السياسية الأوربية . وجنت منها الولايات المتحدة فائدة عظيمة كذلك لأنها حمت جناحها الجنوبى . ولـكن مما يؤسف له أن فريقاً من الروساء الاميركيين توسع فى تفسيرها تفسيراً لا يتفق وروحها واستعمل هذا التفسير ستاراً لأعمال لامسوِّغ لها . وعند مابلغت الجمهوريات الأميركية اللاتينية الكبيرة نضجها القومى والسياسى استنكرت معنى الحماية المفروضة عليها من قبل الولايات المتحدة . وكان رأيها أن الدفاع عن نصف القارة الغربى لا يجب أن يكون من شأن العم سام وحده ، بل من شأن الجمهوريات جميعاً بالاشتراك .

فالرئيس كليفلند مثلاً ذهب إلى أنه إذا قام نزاعٌ بين دولة أوربية ، لها ممتلكات فى العالم الجديد ، و بين جمهورية أميركية لاتينية ، على حدودٍ ، وتعذَّر عليهما تسوية النزاع بالحسنى ، فللولايات المتحدة الحق فى أن تتدخل وتعيّن الحدود . والرئيس ثيودور روزفلت ذهب كذلك إلى أنه إذا اضطرب الحكم فى جمهورية ما من هذه الجمهوريات ، اضطراباً يستفزّ دولةً أوربية إلى التدخل لصون رعاياها فى تلك الجمهورية فللولايات المتحدة ، التى لا ترضى التدخل الأوربى ، أن تتدخل هى ، وتنهض بعبء صون الأمن . وقد استعمل هـذا التفسير غير مرة ستاراً لتدخُّل لم يكن له دائماً مسوِّغٌ حقيق .

وفى وسعنا الآن أن نقول ، إن هذا الخروج على روح قاعدة مونرو ، قد زال ورُدَّتْ القاعدة إلى نصابها الحقيق ، وأن الرئيس فرنكلن روزفلت ، قد عاد بالقاعدة إلى الوضع المعقول المقبول فى سَنَةِ خطة « الجار الطيِّب » وسيجىء الكلام عليها فى الفقرة التالية من الفصل وفيهِ يندمج الكلامُ على نزعة الجامعة الأميركية .

٤ — أما القاعدة الرابعة والأخيرة من قواعد السياسة الخارجية الأميركية فهى قاعدة « حرية مخر البحار فى الحرب والسلم » وهى المشهورة بلفظى « حرية البحار » وقد جعلها ولسن الشرط الثانى فى شروطهِ الأربعة عشر . وإذا استثنينا فترتين قصيرتين فى تاريخ الولايات المتحدة ، فقد جرت حكومتها طوال تاريخها على التمسك بهذه القاعدة والدفاع عنها .

والسبب بسيط . فالولايات المتحدة دولة تجارية بحرية ، لها أسطول تجارى كبير ، وتجارتها الخارجية ، عنصر ذو شأن فى كيانها الاقتصادى ، وقد كانت مرّة بعد مرّة الدولة المحايدة الكبيرة ، فى عالمَ مزَّقت الحرب أوصالَهُ . فكان من الطبيعى أن تؤيد حق الدول المحايدة — أى حقَّها — فى أن تذهب سفنها إلى كل مكان على سطح الأرض بغير أن تفرض عليها قيودٌ غيرُ معقولة ، من قِبَلُ الدول المحاربة .

وقد خرجت الولايات المتحدة على هذه القاعدة عند ما أقرّ الكونغرس الأميركى قوانين الحياد الأميركى فى ما بين سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٧ غير عابئ بتحذير روزڤلت . وسيجئ الكلام عليهِ بالتفصيل فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل . وحسبنا هنا أن نشير إلى ما قاله وزير الحربية ستمسون فى هذا الخروج على قاعدة حرية البحار فى خطبة أذاعها فى شهر مايو من سنة ١٩٤١ ، قال : إن تشريع الحياد (وهو غير الحياد بحسب القانون الدولى) كان انتهاكاً لأقدس وأهم تقليدٍ فى سياستنا الخارجية ، أى حرية البحار . ووصفهُ نوكس وزير البحرية بأنه « خطأ كبير » . وكلا ستمسون ونوكس من أقطاب الحزب الجمهورى . وقد قبلا دعوة روزڤلت الدمقراطى إلى الاشتراك فى حكومتهِ تحقيقاً للوحدة القومية . وستمسون ، كان قبل هذا ، وزيراً للحربية فى عهد تافت ووزيراً للخارجية فى عهد هوڤر ، فقولهُ حجة فى موضوع « حرية البحار » والسياسة الخارجية الأميركية .

وفى الخطبة التى خطبها روزڤلت فى اليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر ١٩٤١ قال فى هذا الصدد : « إن أميركا حاربت جيلاً بعد جيل دفاعاً عن السياسة العامة المعروفة بحرية البحار . وهذه السياسة غاية فى البساطة ، ولكنها أساسية . ومعناها أنهُ لا يحق لأمة ما أن تحوّل المحيطات الواسعة على مسافات شاسعة من مناطق القتال البرى الفعال ، خطراً على تجارة الأمم الأخرى . وقد كانت هذه السياسة سياستنا ، خلال تاريخنا . وما فتئت تطبق منذ العهد الأول للجمهورية وهى لا تشمل المحيط الأطلسى وحسب ولكنها تشمل المحيط الهادى كذلك وجميع المحيطات الأخرى . فحرب الغواصات المطلقة من كل قيد فى سنة ١٩٤١ تحد واعتداء على هذا السياسة الاميركية التاريخية . . . . [و بعد ما أشار إلى حوادث الاعتداء على السفن الأميركية الحربية والتجارية قال] : وهذه الحالة ليست جديدة . فالرئيس الثانى للولايات المتحدة جون أدمز أصدر الأمر إلى الأسطول الأميركى بأن يطهر

مياه بحر الأنتيل ومياه أميركا الجنوبية من سفن القرصان وسفن الدول الأوربية التى كانت تعتدى على التجارة الأميركية . والرئيس الثالث للولايات المتحدة ، توماس جفرسن ، أصدر أمره إلى الأسطول الأميركى ، بأن يضع حدًّا لاعتداء قرصان أفريقية الشمالية على السفن الاميركية وغيرها . فالواجب على ، يمليه التاريخ ، وهو واضح ولا مفرّ منه[1] » .

ولقاعدة حرية البحار ناحيـة أخرى أصبحت فى منزلة قاعدة لسياسة أميركا الخارجية وهى قاعدة «الباب المفتوح» . وسياسة « الباب المفتوح » اقترحتها الحكومة البريطانية أولاً ، ولكن هاى وزير الخارجية الأميركية فى أواخر القرن الماضى ، تبنى الفكرة وحث الدول على الأخذ بها (مذكرة ٦ سبتمبر ١٨٩٩)

ومعناها العملى العـام هو انه يحق للأميركيين أن يبيعوا بضاعتهم وأن ينشئوا صناعات فى كل بلد على قدم المساواة مع الأجانب الآخرين . والمبدأ ينطبق على كل دولة ولا يقتصر على الصين ، وإن كان قد اشتهر مقروناً باسم الصين . فكل تمييز ضد الأميركيين فى الأرجنتين أو سويسرا ، يؤثر الألمانَ مثلا ويخصهم بمزايا تجارية وصناعية معينة ، يثير سخط الأميركيين ويعدونه مخالفة لهذه القاعدة . وقد أودع هذا المبدأ —فى ما يخص الصين— فى حماية الدول التسع التى وقعت «معاهدة الدول التسع » فى سنة ١٩٢٢ . ولكن الباب أوصد والدول التسع لم تتمكن من منع إيصاده حتى الآن غير أن الأميركيين يعدون هذا الإخفاق أمراً عابراً لا غير . والولايات المتحدة قد قررت بالاشتراك مع الحكومة البريطانية أن تلغى جميع الامتيازات التى لها فى الصين ، فسياسة الباب المفتوح فى المستقبل ستقوم على أساس من التعاقد الحر .

---

(١) إن موضوع النزاع على « حرية البحار » ، وحقوق الدول المحايدة والدول المحاربة ، بحسب القانون الدولى ، موضوع واسع متشعب فى تطوره التاريخى ودقائقه القانونية وليس هنا مجال بحثه بحثاً وافياً .

— ٢ —

فى خطبة التنصيب الأولى التى ألقاها روزفلت فى ٤ مارس سنة ١٩٣٣ ، أشار إلى علاقة الولايات المتحدة بالدول الأجنبية عامة و بجمهوريات أميركا المتوسطة وأميركا الجنوبية على وجهٍ خاص بالقول التالى : « وفى ميدان السياسة العالمية ، أقف هذه الأمة على سياسة « الجار الطيب » — الجار الذى يحترم نفسه احتراماً صادقاً و باحترامه نفسه يحترم حقوق الآخرين — الجار الذى يحترم الواجب عليه وكذلك قدْس اتفاقاته فى عالم من الجيران وفى صلته بهم » .

وفى المقدمة التى كتبها للمجلد الثامن من مجموعة أوراقه الرسمية وخطبه العامة (سنة ١٩٣٩) أجمل روزفلت ما أقدمت عليه حكومته ، تحقيقاً لهذه السياسة فقال إن الولايات المتحدة ارتبطت ، فى نصف الكرة الغربى بمبدأ الجار الطيب وطبقته تطبيقاً دقيقاً متماسكا وفقاً لإملاء ضميرها ، فاشتركت فى اتفاقات الجامعة الأميركية التى تنطوى على مبادىء عدم الاعتداء ، وتخلت مختارة عن « تعديل بلات » الذى كان يبيح لها التدخل فى شؤون جمهورية كوبا الداخلية ، وسحبت فصائل فرقة البحارة الأميركية ، بعد انقضاء سنين على نزولهم فى جمهورية هايتى ، وعقدت معاهدة جديدة مع جمهورية بناما قائمة على أركان ترضى الفريقين المتعاقدين ، وكان لها نصيب فى جميع مؤتمرات الجامعة الأميركية والاتفاقات العديدة التى أسفرت عنها ، وعقدت اتفاقات تجارية كثيرة ، لتبادل المصلحة التجارية مع البلدان الأميركية الأخرى ، وساهمت فى فض نزاعات حدود مختلفة بين أمم أميركية ، تلبية لما وجه إليها من نداء ، فأسفرت هذه الأعمال جميعاً ، وأخرى من قبيلها ، عن اتجاه كل عضو من أعضاء أسرة الدول الأميركية ، إلى الولايات المتحدة ، اتجاهه إلى جاره الطيب . ثم قال : إن غرضنا أن يكون من شأن هذه السياسة إقامة التماسك بين

دول نصف الكرة الغربى على أساس سلمى وطيد ، ونحن ماضون فى سبيل تحقيق هذا الغرض . وكان رجاؤنا معقوداً ، على أن يكون التعاون بين إحدى وعشرين جمهورية متفاوتة المساحة والموارد ، مثلاً له تأثيره فى سائر أمم العالم . ومما يؤسف له أن هذا الرجاء قد خاب[١]

هذا النهج الذى نهجه روزفلت فى سياسة أميركا الخارجية تجاه جمهوريات العالم الجديد ، صحح موقف الولايات المتحدة ، الناشىء عن قاعدة مونرو وتفسيرها تفسيراً معتسفاً فى بعض الأحيان ، وعزّز فكرة الجامعة الأميركية .

فقد مرّ معنا أن بعض الرؤساء الاميركيين مثل كليفلند وثيودور روزفلت خرجوا على مدلول قاعدة مونرو كما أريدت أن تكون عند وضعها و إعلانها ، وتوسلوا بها الى التدخل فى شؤون الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، تدخلاً حمل على امتعاض هذه الجمهوريات ولا سيما الكبيرة منها ، وعلى عدّهم الولايات المتحدة ، دولة تحاول أن تنتحل الوصاية على نصف الكرة الغربى كله . وهذا فى نظرها لا يتفق وسيادتها القومية . (انظر صفحة ١٧٧ — ٧٩ من هذا الكتاب) . فالرأى العام فى الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، استفزته وأثارته وحركت الريبة فيه حوادث من قبيل تشجيع ثيودور روزفلت للثورة فى جمهورية بناما (١٩٠٣) لكى يتوسّل بها الى عقد الاتفاق الخاص بانشاء ترعة بناما ، والتدخل الأميركى فى جمهوريات بحر الانتيل لوضع النظام فى نصابه ، وتعقب الجنرال برشنغ الاميركى فى عهد الرئيس ولسن (١٩١٦) « لپانشو ڤيّا » المكسيكى بعد اغارته على مدينة أميركية ، وكاحتلال مدينة ڤيراكروز المكسيكية (فى سنة ١٩١٤) لضغط الدكتاتور المكسيكى « هوارثا » الذى انتزع الحكم فى المكسيك باساليب لم ترق الرئيس ولسن . وعزّز هذه الريبة ما أُطلق عليهِ وصف « سياسة الدولار » وهى تشمل على

(١) ليست هذه العبارات ترجمة حرفية لقول روزفلت ولكنها تؤدى المعانى المقصودة تأدية دقيقة

العموم الفترة الممتدَّة بين (١٩٠٨ — ١٩١٣) أى مدة رآسة تافت . والمقصود « بسياسة الدولار » تدخل وزارة الخارجية الأميركية فى شؤون البلدان الأميركية اللاتينية لفتح الطريق أمام المال الأميركى لاستغلاله وتثميره فى تلك البلدان . والتغلغل المالى على هذا الوجه أفضى الى طلب مزايا خاصَّة ، وكان الطلب كثيراً ما يؤيَّد بالتهديد بالقوّة . وكذلك الاشتداد فى اقتضاء الدين من بعض الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، كالمعاهدات التى عقدت مع نيكاراجوى وهندوراس ، لتوفية دينهما بإشراف ماليين أميركيين . ولكن الرأى العام فى الولايات المتحدة ، كان شديد الاستنكار لهذه الأساليب ، ومجلس الشيوخ أبى إبرام المعاهدتين اللتين عقدتا مع نيكاراجوى وهندوراس لتوفية الدين . وعند ما تقلَّد ولسن الرآسة خلفاً لتافت أنكر « سياسة الدولار » ، ولكنهُ مع ذلك أبقى على بعض رمقها ، فى ما يتعلّق بنيكاراجوى . جميع هذه الحوادث على رغم ما يقال فى مسوّغاتها — وبعض هذه المسوّغات كان حقيقيًّا — تركت أثراً غير مستحسن فى نفوس الشعوب الأميركية اللاتينية وساستها ، فكانوا ينظرون بوجهٍ عام ، نظرة ازدراء واستنكار الى سياسة الولايات المتحدة حيال جاراتها اللاتينية .

فلما وصل فرنكلن روزڤلت إلى البيت الأبيض فى سنة ١٩٣٣ كان الطريق قد مُهِّد قليلاً لتصحيح هذا الموقف وإزالة ذلك الأثر . فحكومة الرئيس كولدج (١٩٢٣ — ١٩٢٩) كانت اتفقت مع المكسيك وحكومة هوڤر (١٩٢٩ — ١٩٣٣) كانت سوَّت بعض المسائل السياسية القائمة . وكذلك أتيح لروزڤلت أن يستهل عهداً جديداً فى تاريخ هذه العلاقات ، أحسن غاية الإحسان فى إطلاق وصف « الجار الطيب » عليهِ .

فقاعدة مونرو ، أصبحت بفضل هذا النهج الجديد ، قاعدة لسياسة جمهوريات القارتين الأميركيتين ، لا لسياسة الولايات المتحدة وحدها . وكل ما حدث فى

هاتين القارتين خلال رآسة فرنكلن روزڤلت ، مما كان قبلاً يفضى إلى تدخل الولايات المتحدة فيه بحكم قاعدة مونرو ، عالجهُ الرئيس روزڤلت ووزيرهُ هَلْ على أساس أميركى مشترك . وقد حدث هذا غيرَ مرَّة ، فزال كثير من الريب الذى كان يساور جمهوريات أميركا اللاتينية حيال أغراض الولايات المتحدة ونيَّاتها ، فمهَّد هذا التحوُّل ، إلى اطّراد نمو فكرة الجامعة الاميركية .

إن حركة الجامعة الأميركية Pan-American غرضها توثيق أواصر الصداقة بين الجمهوريات الأميركية ، لتعزيز الصلات التجارية والثقافية ، والمشاركة فى ضمان السلامة وتوطيد السلام . وقد وكان نموُّ هذه الحركة إلى ما قبل عهد روزڤلت بطيئاً ، لأسباب كثيرة تمتُّ إلى التاريخ ، أكثر مما تمتُّ إلى الرغبة القائمة . فالأواصر الثقافية والأدبية والاقتصادية التى كانت تربط الجمهوريات الأميركية اللاتينية بأوربا كانت أوثق من الصلات التى كانت تربطها بالولايات المتحدة . ثم إن تدخل الولايات المتحدة فى بعض العهود فى شؤون طائفة من هذه الجمهوريات حرك فيها الريب والخوف . حتى الآن ، بعد انقضاء عشرسنوات على رآسة روزڤلت وسياسة الجار الطيب ، لا يزال فى موقف هذه الجمهوريات بقية باقية من آثار السياسة السابقة . ويضاف إلى هذا أن المثل العليا السياسية ، فى الولايات المتحدة من ناحية وفى هذه الجمهوريات من ناحية أخرى ، متباينة على رغم التشابه فى النظم الجمهورية ، ولذلك كان يشقُّ على الممثلين المجتمعين فى مؤتمرات الجامعة الأميركية التفاهم على أساس فَهْمٍ واحد للمثل والنظم السياسية . وأخيراً هناك الاختلاف الأصيل فى طبائع الشعوب . فأميركيو الولايات المتحدة يرون فى جيرانهم فى الجمهوريات الأميركية اللاتينية شعوباً تميل إلى التراخى والمحافظة والطباع الحادَّة غير المستقرَّة ، بينما الشيليون والأرجنتينيون يرون فى الأميركيين الشماليين ، شعباً ماديًّا دنيويًّا

عقد مؤتمر الجامعة الأميركية الأول فى وشنطن سنة ١٨٨٩ وقد دعا إلى عقدهِ

« بلاين » وزير الخارجية الأميركية ، وكان أملهُ معقوداً على إنشاء إتحادٍ جمركى أميركى ، يفضى إلى زيادة التبادل التجارى بين الأمم الأميركية ، وإلى نقص إتجارها مع أوربا . واقترح كذلك مشروعاً للتحكيم فى جميع أنواع النزاع بين الأعضاء . فرفض المقترحان لشدة التحاسد بين الدول ، والريبة فى نيات الولايات المتحدة . وعجز رجال المؤتمرين الثانى والثالث عن التقدم خطوة واحدة فى مشروع التحكيم ، لخلاف بين فريقين : فعلى رأس الفريق الأول كانت الأرجنتين ، وكان رأيهُ التحكيم الإجبارى . وعلى رأس الفريق الآخر الولايات المتحدة والبرازيل وكان رأيهُ إلى التحكيم الاختيارى أميل . ولم يعالج المؤتمر الثالث سوى مسائل ثانوية . وعقد المؤتمر الخامس فى سنة ١٩٢٣ وكانت الطائفة الكبرى من الجمهوريات الأميركية اللاتينية أعضاء فى عصبة الأمم بينما الولايات المتحدة لم تكن عضواً فيها . وكانت وشنطن قد تدخلت فى شؤون طائفة من جمهوريات الأنتيل ، فريبة الجمهوريات الأميركية اللاتينية كانت شديدة فى سياسة الولايات المتحدة . ولما عرض ممثل جمهورية أوروغواى — الدكتور بروم Brum — تحويل قاعدة مونرو قاعدةً تشمل سياسة القارتين الأميركيتين ، أبى ممثلو الولايات المتحدة الموافقة على الاقتراح . والواقع أن نتائج هذا المؤتمر كانت بالقياس إلى ما تمَّ فى ذلك العهد فى أوربا — لوكارنو وما أشبه — تبعث على الأسى العظيم .

ومع ذلك لم يكن أحدٌ ينكر أن فى فكرة الجامعة الأميركية فائدة وحياة ، إذا أحسن توجيه الفكرة ، ونجح الحكماء والخيّرون من رجال السياسة فى إزالة ما لازمها من مساو . فلما عقد مؤتمر الجامعة الأميركية السادس فى هاڤانا سنة ١٩٢٨ افتتحه الرئيس كولدج بنفسه فكان لذلك أثر مستحسن فى نفوس الأعضاء . وعند ما عقد المؤتمر التالى ، فى ١٩٣٣ فى مونتيفيديو ، أتاح لحكومة روزڤلت الجديدة فرصة لبسط ما تقصده بسياسة الجار الطيب . فلما اقترح القرار التالى : «لايحق لدولة ما أن تتدخل

فى الشؤون الداخلية أو الخارجية لدولة أخرى » أيّدَه الوزير هَلْ وأقر بالإجماع. وهذا ، بالقياس إلى ما تم من تدخل الولايات المتحدة قبلاً ، كان المرحلة الخطيرة الأولى فى النهج الجديد ومستهل عهد جديد فى سياسة الجمهوريات الأميركية . وفى سنة ١٩٣٦ قال روزفلت فى رسالته إلى الكونغرس : إن سياسة الجار الطيب حقيقه حية لازمة وفعالة ، ثم اقترح على أعضاء الجامعة الأميركية عقد مؤتمر خاص لحفظ السلام فعقد فى بونس ايرس عاصمة الأرجنتين ، وسافر بنفسه لحضور حفلة افتتاحه . وكان هَلْ رئيس الوفد الأميركى . ومع أن موقف الأرجنتين بدت عليه دلائل التنكر لزعامة الولايات المتحدة ، فقد تمت أعمال المؤتمر فى جوٍّ من الصداقة وحسن التفاهم و انتهت إلى نجاح لأن المؤتمر اتفق على مبداء «التشاور العام إذا مسَّ خطر الحرب العالمَ الجديد» سواء أمرَدُّ هذا الخطر كان إلى حرب فى أوربا أم إلى حرب بين جمهوريتين أميريكتين أو أكثر . وفى هذه الوثيقة نجد نواة التحول الذى اقترحه بروم قبلاً فى نقل قاعدة مونرو من أساس سياسةٍ خاصة بالولايات المتحدة إلى أساس سياسةٍ عامة تمثل جمهوريات العالم الجديد جميعاً . وعند ما اجتمع (مؤتمر ليما ١٩٣٨) كانت غيوم الحرب ملبدة فى جو أوربا وكان يهمُّ الوزير هل أن تنشأ جبهة متحدة فى العالم الجديد ضد المعتدين ، فعارضت الأرجنتين فى كل عمل حاسم من هذا القبيل ، ولكن المؤتمر انتهى بعد بحث شاق طويل إلى الاجماع على قرار مؤداه إعلان إيمان الجمهوريات الأميركية بالدمقراطية وتعهدها بالمشاورة والمشاركة بعض المشاركة فى العمل ضد كل خطر خارجى يهددها .

ومنذ ما نشبت الحرب عقد مؤتمر الجامعة الاميركية ثلاثة مؤتمرات . أما الأول فكان مؤتمر بناما (١٩٣٩) حيث اتفق ممثلوا الجمهوريات الأميركية على اصدار تصريح (تصريح بناما) أيدوا فيه حق هذه الجمهوريات فى أن تبقى مياهها المستعملة للمواصلات البحرية الأميركية « حرة من كل عمل اعتداء تعمله دولة محاربة غير أميركية »

وعينوا لذلك منطقة سموها باسم « منطقة الأمان » وجعلوا حدودها ثلاثمائة ميل من الساحل الأميركى على أن تمتد من نقطة مقابلة لحدود كندا الأميركية إلى رأس هورن وهو طرف قارة أميركا الجنوبية . ولما نشبت معركة لاپلاتا بين البارجة الألمانية « جراف سپي » وبين الطرادات البريطانية داخل منطقة الأمان أمام ساحل أوروغواى احتجت الجمهوريات الأميركية فى لندن و برلين على ذلك .

أما المؤتمر الثانى فعقد فى هاڤانا (يوليو ١٩٤٠) بعد سقوط فرنسا وأسفر عن «قرار هاڤانا » وهو خطوة واسعة إلى إحلال قاعدة أميركية عامة محلّ قاعدة مونرو ، وفى معناها الأصلى ، وكان الغرض من هذا القرار صون الممتلكات البريطانية والفرنسية والهولندية فى العالم الجديد من استيلاء النازى عليها أو على أحدها . وأساس القرار أنه إذا هدّد خطر ما إحدى هذه الأراضى فعندئذ تبسط الجمهوريات الأميركية ظلها عليها بالاشتراك أو الانتداب وتدير شؤونها إلى أن تعاد إلى أصحابها أو تنظم دولاً مستقلة . ووافق هذا المؤتمر على مبداء آخر لبابه أن محاولة كل دولة غير أميركية أو غير أوربية الاعتداء على سلامة أحد هذه الممتلكات ، أو على استقلال دولة أميركية ، يُعَدُّ اعتداء ضد جمهوريات العالم الجديد جميعاً . وكذلك أصبحت قاعدة مونرو ، أخيراً ، قاعدة دُوَلية ، تشمل إحدى وعشرين جمهورية أميركية .

فلما اعتدت اليابان على الولايات المتحدة الأميركية فى ٧ دسمبر ١٩٤١ دعى مؤتمر الجامعة الأميركية للاجتماع فى ريوده جانيرو لاتخاذ القرارات اللازمة لتنفيذ القرار السابق الذكر . فعقد فى ١٥ — ٢٨ يناير ١٩٤٢ وحضره وزراء خارجية الجمهوريات الأميركية أو من يمثّلهم وكان سمنر ولز وكيل الخارجية الأميركية ، ممثلاً لحكومة الولايات المتحدة . ولكن قبل التئامه — كانت تسع جمهوريات أميركية — علاوة على الولايات المتحدة فى حالة حرب نتيجة لاعتداء اليابان .

وقد وصف سمنر ولز نتيجة هذا المؤتمر بقوله « إن غرض الاجتماع كان تقرير

وسائل الدفاع المشترك ضدّ أعداء الدمقراطية ؛ والجمهوريات الأميركية أجمعت على تأييد المبدأ الدمقراطى وأعلنت رسميًّا قرارها المشترك بتوصية حكومات هـذه الجمهوريات بقطع العلاقات السياسية بين الأمم الحرّة فى نصف الكرة الغربى و بين دول اليابان وألمانيا و إيطاليا ، رادّة بذلك ردًّا لايحتمل التأويل على اعتداء اليابان» . فهذا التوكيد وهذا الإجماع ، ينزلان من التاريخ منزلة العمل السياسى الخطير الأول الذى اتخذته الجمهوريات الأميركية بالاشـتراك . نعم إن الأرجنتين لم تقطع علاقتها السياسية بدول المحور . ولكنّ ما حدث كافٍ لإقامة الدليل ، على حكمة النهج الجديد الذى نهجه روزڤلت — نهج الجار الطيب — وتطبيقه تطبيقاً قائماً على صدق النية وفهم المصلحة العامة بأوسع معانيها .

والكلمة التالية ترجمة فقرات من خطبة لروزڤلت أجمل فيها الروح المسيطرة على المرحلة الجديدة من التعاون بين دول القارتين الأميركيتين وهى من خطبة له فى ١٥ إبريل ١٩٤٠ قال :

إن السلام يشمل الآن نصف الكرة الغربى ، لأن أمتنا حرّرت نفسها من الخوف ، وليس فى وسع أمة أن تحيا فى سلام حقيق إذا هى كانت تعيش فى ظلّ الإرهاب والغزو . والعالم الجديد قد حرّر نفسه من أعظم أسباب الحرب وأبسطها ، بالاستناد إلى أسلوب بسيط هو ، الاتفاق على أن تحترم كلُّ أمة سلامة الأمم الأخرى واستقلالها . إن ضبط النفس والتسليم بحقوق متساوية لجميع جيراننا ، دليـلٌ على حسن النية ، وقد منحانا السلام الذى تمتعنا به وهو سلام سنحافظ عليه ما دمنا نستند إلى هذه القاعدة الأدبية العليا ونصونها .

فالسلام يشملنا لأننا اتفقنا كجيران على أن يُعنى كلٌّ منا بشؤونه . وقد نزلنا جميعاً ، عن كل حقٍّ فى التدخل فى الشؤون الداخلية الخاصة بكل منا ، معترفين بأن الأمم الحرّة المستقلة ، يجب أن توجه مصائرها وأن تحدّد معالم طرقها فى الحياة .

إن السلام شملنا لأننا عزمنا على تسوية كل نزاع ينشأ بيننا بالمفاوضة الودِّية وفقاً لقواعد العدل والنصفة بدلاً من تسويته بالقوة . وقد أنشأنا أداة فعَّالة لهذا الغرض . وأقمنا الدليل على رغبتنا فى الاعتماد على هذه الأداة .

إن السلام يشملنا لأننا اعترفنا بصحة مبدإ مؤدَّاهُ أن العلاقات الاقتصادية الدولية المتبادلة النفع ، تتيح بكل منا المواد والفرص اللازمة لرفع مستوى الحياة فى شعوبنا جميعاً . ونحن نسعى بكل وسيلة عملية ممكنة إلى تحقيق هذا المبدإ الحيوى .

فنحن فى نصف الكرة هذا ، لا حاجة بنا إلى البحث عن نظام دولى جديد . فقد وجدناهُ . ونحن لم نجدهُ عن طريق الصيحات الهستيرية ، أو تحريك الجيوش بالعنف . إننا لا نمحو الشعوب من وجه الكيان المستقل ولا نأسر الحكومات ولا نستأصل جذور الناس من البيوت التى بنوها . إننا لا نخترع مذاهب سخيفة عن « تفوق السلالة » . . . إن النظام الأميركى لم يبنَ على الخوف والإرهاب . ولكن طريقَه مهِّد بأيدى رجال خلصت نيَّاتهم فوضعنا الأساس لحياة مئات من الملايين وقد وحَّدنا بين حياة هؤلاء الناس بالولاء المشترك لنظام أدبى سام .

وهذا السلام القائم على التعاون لم يخلق بالتمنى ، وصونه يحتاج إلى أكثر من الأقوال . ففى هذه الجماعة من الأمم ، كل مَن يمس أحدنا يمسُّنا جميعاً ، ونحن لم نطلب من سائر العالم إلاَّ أن يماشينا فى طريق السلام . ولكننا لا نستطيع أن نبقى ذلك الطريق ممهَّداً إلاَّ إذا كنا متأهبين لمقابلة القوة بالقوة ، إذا جاءنا التحدِّى يوماً ما .

— ٣ —

بين حياد الولايات المتحدة الأميركية بحسب القواعد المرعية الجانب فى القانون الدولى ، وبين قانون حيادها فرقٌ .

عند ما تنشبُ حربٌ بين دولتين أو أكثر يفرض على الدول التى لا تشترك فيها ، الامتناع عن أعمالٍ لها صلة بالأعمال الحربية ، من شأنها أن تسدى خدمة ما إلى أحد الفريقين المتحاربين . فصلات الصداقة التى تربط الدول فى أثناء السلام تبقى قائمة بين المحايدة والمحاربة بعد نشوب الحرب . ولكن بقاءها قائمة يفرض على الدول المحايدة واجبات معيَّنة ويبيح لها حقوقاً معيَّنة ، يحدِّدها القانون الدولى . وفى نطاق هذه الواجبات والحقوق ، تعلنُ دولة ما عند نشوب حربٍ أنها دولة محايدة . ولكنَّ القواعد وتفاصيل العُرف التى تحكم هذه المسائل ، ليست جميعاً محددة تحديداً رياضيًّا ، فالخلاف عليها محتمَل . فالدولة المحايدة قد تكون دولة صناعية كبيرة ، ويحق لرعاياها بحسب القانون الدولى ، أن يمضوا فى صنع ما يشاؤون من المصنوعات وأن يبيعوها للدول المتحاربة . ولكن هذا الحق يحدُّ منهُ خضوعهُ لحقٍّ آخر ، تتمتع بهِ الدول المحاربة ، وهو حق الحصر البحرى ، وما يتبعه من زيارة السفن (Visit) وتفتيشها (Search) ومصادرة ما قد يكون من شحنها معدوداً من المواد الحربية الممنوعة (contraband) . وليس هناك إجماع بين الدول على تفاصيل هذه الحقوق ، وهل يجوز تطبيقها بغير استثناء ، و بغير نظرٍ إلى جنسية السفينة ، وجنسية الشحن ، وجنسية الثغر الذى أقلعت منه السفينة ، أو الثغر الذى تتجه إليه . ولكن من المتَّفق عليه ، ولا شذوذ له ، أن الحصر البحرىَّ يجب أن يكون فعَّالاً (effective) ليكون شرعيًّا ، أى أنه لا يجوز لدولة محاربةٍ ما ، أن تعلن حصر دولةٍ تحاربها إلاّ إذا

كانت تملك القوة البحرية التى تمكّنها من تنفيذ الحصر فى الحدود المتفق عليها . ومن هنا نتبيَّن أن « الحصر البحرىَّ » بالغوّاصات ليس شرعيًّا . لأن الغوّاصات عاجزة عن النهوض بالواجب على السفينة الحربية الحاصرة وفقاً للقواعد المرعية فى القانون الدولى .

وقد كانت الولايات المتحدة ، مدى مائة سنةٍ تقريباً — بين مستهل القرن التاسع عشر وسنة ١٩١٧ عند ما خاضت غمار الحرب العالمية الأولى — الدولة المحايدة الكبيرة ، ولذلك كانت دائماً تصرُّ على احترام حقوق المحايدين ، وتدفع عنها جهدها وان كان موقفها فى جميع هذه الأحوال لا يخلو من ملام .

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ نظرت جميع الدول المحايدة ، السكندينافية والجمهوريات الأميركية اللاتينية ، إلى الولايات المتحدة لتتقلد زمام الدفاع عن حقوق المحايدين ، فخاب ظنّهم من ناحية فى ما تطلّعوا إليه لأن تقاليد العزلة الأميركية ، حالت دون إقدام الحكومة الأميركية على عمل مشترك مع دول أخرى ، فى نصف الكرة الغربى أو القارات الأخرى . ولكن مع امتناعها عن الاشتراك فى إصدار بيان مشترك دفاعاً عن حقوق المحايدين وتماسكهم ، لم تنِ عن الدفاع عن هذه الحقوق قبلَ الحكومات المحاربة . وقد بلغ هذا الدفاع أحياناً وفى مستهل الحرب ، مبلغ الجفاء بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، لما نشأ خلاف على تفسير بعض حقوق المحايدين وحقوق المحاربين . فلما أطلقت ألمانيا القيصرية حرب الغواصات من كل قيد وشرط — وإطلاقها مخالف لأسس حقوق المحايدين مخالفة أصيلة فى المبدإ والتطبيق — كان ذلك أحد الأسباب التى حملت الولايات المتحدة على انتضاء السلاح . وليس هذا المقام مقام تفصيل جميع البواعث التى حملت الولايات المتحدة على خوض غمار تلك الحرب ، ولا مقام الحكم فى هل كان القرار صائباً أو خاطئاً ، ولكن لا ريب فى أن الشعب الأميركى سلم بأن

حرب الغواصات وضرورة الدفاع عن حرية البحار كانت سبباً لدخول الولايات المتحدة الحرب ومسوِّغا له .

فلما وضعت الحرب أوزارها ، حدث ردُّ فعل قوى فى نفوس الأميركيين نتيجة لخيبة آمالهم فى النتائج التى اسفر عنها مؤتمر الصلح . وقد يكون هذا الشعور فى محله، وقد لا يكون . ولكنه كان حقيقة واقعة . وهى التى أملت على الشعب الأميركي الرغبة فى العودة إلى سياسة العزلة . وكان الرأى فى دوائر الذين يذهبون هذا المذهب أن قوة الولايات المتحدة يجب أن تكون كافية لتقيها خطر الاشتراك فى حرب أُخرى ، ولا سيما فى حرب أوربية . ويقابل هذا الفريق من الناس ، فريق آخر ذهب إلى أن مبادىء « السلامة المشتركة » تجعل موقف « الحياد » التقليدى مناقضاً للنظام العالمى الجديد ، القائم على مبادئ « السلامة المشتركة » وقواعد دستور العصبة . بل تطرف بعضهم إلى القول بأن موقف « الحياد » مناف للخلق الدولى العالمى . وفى الحالين ، بنى الفريقان رأيهما ، على أن نشوب الحرب غير محتمل ، فأُهمل كذلك بحث موضوع الحياد ومقتضياته ، على ضوء التطور العالمى خلال الحرب العالمية الأولى وبعيدها .

ولكن وهم الفريقين ، بدأ يتهاوى بين أيديهم ، فى سنة ١٩٣١ عند ما غزت اليابان منشوريا . وتوالت حوادث ، كانت كل منها ضربة أصابت مبدأ « السلامة المشتركة » فى الصميم ، ومن هذه الحوادث وفى طليعتها قيام الحكم النازى فى ألمانيا، وإخفاق مؤتمر نزع السلاح فى سنة ١٩٣٣ وخروج ألمانيا منه فى شهر أكتوبر من تلك السنة ، وخروج المانيا من العصبة ، وبدور بوادر العودة الى السباق فى التسلح بين الأمم . فكان لا بد فى هذه الحالة ، من أن يعمد الأميركيون إلى بحث موضوع الحياد ، لأن خطر حرب كبيرة كان بادياً على الأفق ، ولأنهم كانوا عازمين على الامتناع عن خوضها .

وعزز من هذه الفروض ما كشفه بحث دقيق عن أعمال « تجار السلاح » فى الولايات المتحدة تولاه السناتور « ناى » . فرسخ فى الذهن الأميركى العام أن مناورات تجار السلاح ، وأرباب المال ، من الأميركيين ، هى السبب الذى زج بالولايات المتحدة الأميركية فى غمار الحرب العالمية الأولى. ولذلك عزم الأميركيون بتأثير كل هذا ، أن يحولوا بالتشريع ، دون التكرار . والى هذا مرجع « تشريع الحياد الأميركى » أو تشريعات الحياد الأميركى — لأن القانون الأول عدل غير مرة — وغرضه ليس ضمان حقوق الولايات المتحدة من حيث هى دولة محايدة ، فى حالة نشوب حرب ، ولكن غرضه الحيلولة دون انسياق الولايات المتحدة إلى خوضها ، بالنزول عن بعض هذه الحقوق من تلقاء نفسها . وكان الباعث المعجل على إقرار نصوص قانون الحياد الأميركى الأول فى أغسطس من سنة ١٩٣٥ نشـوء الأزمة الإيطالية الحبشية فى صيف سنة ١٩٣٥ وخريفها . وكان الرأى الأميركى الغالب المستند إلى ما كشفته لجنة ناى ، أنه إذا نزل الأميركيون عن حقوقهم — بحسب منطوق الحياد فى القانون الدولى — فى الاتجار مع الدول المتحاربة ، فعندئذ يمنع كل سبب من شأنه أن يزج أميركا فى الحرب ، لأنه يمنع كل باعث على خلاف بينها و بين الدول المتحاربة . ولذلك كانت النصوص الرئيسية فى هذا القانون ما يلى (أولا) حظر إصدار السلاح والذخيرة وأدوات الحرب من الولايات المتحدة أو ممتلكاتها إلى موانىء محاربة ، أو إلى موانىء محايدة بقصد نقلها منها إلى إحدى الدول المحاربة . وتنفيذ هذا النص يبدأ حالما يعلن الرئيس « قيام حالة حرب » . فإن إعلان « قيام حالة حرب » ترك للرئيس ، ولكن التنفيذ لا مفرّ منه بعد إعلانها (ولهذه النصوص الأصلية تفصيلات لا محل لها هنا) . ويلزم كذلك — بحسب هذا القانون — عن إعلان الرئيس « قيام حالة حرب » إمتناع السفن الاميركية ، عن نقل السـلاح والذخيرة وأدوات الحرب ، إلى المرافىء المحاربة أو المرافىء المحايدة بقصد نقلها بعد ذلك إلى دولة محاربة . وفى نص آخر من نصوص هذا القانون ، أن

الأميركيين الذين يسافرون بسفن دولة محاربة ، بعدما يعلن الرئيس « قيام حالة حرب » ، يتحملون تبعة عملهم . وجعل أمد هذا القانون إلى ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٦ . وقد عدل هذا القانون تعديلا يسيراً فى فبراير سنة ١٩٣٦ ، وشمل التعديل الأحوال التى يجوز للرئيس فيها ، أو يتعين عليه فيها إعلان « قيام حالة حرب » . وكذلك حظر عقد قروض أو فتح اعتمادات مالية للدول المتحاربة أو التعامل بسنداتها على أن ينفذ هذا الحظر عند ما يعلن الرئيس « قيام حالة حرب » . وأدخل تعديل آخر ، يستثنى من كلٍّ هذا كلّ جمهورية أميركية تحارب دولة غير أميركية ، إلا إذا كانت تلك الجمهورية تتعاون فى الحرب مع دولة غير أميركية أو أكثر .

وجعل أمد القانون المعدل إلى أول مايو سنة ١٩٣٧

خلال هذه الفترة اتسع نطاق البحث العام فى قانون الحياد الأميركى ، ونشبت الحرب الأهلية الاسبانية ، وظهر أن القانون لا يحوى نصًّا ما خاصًّا بما يجب فى حرب أهلية ، فلما انتهى أمد القانون السابق ، جدد بعد تعديل بعض نواحيه

ففى « قانون الحياد » الصادر فى مايو ١٩٣٧ أدخل مبدأ « ادفع وانقل » Cash and Carry على أن يشمل المواد والبضائع عدا الأسلحة والعتاد وأدوات الحرب . أى أن الدولة المحاربة ، أيًّا كانت ، يحق لها أن تشترى هذه المواد والبضائع (عدا الأسلحة والذخيرة وأدوات الحروب) على أن توفى ثمنها فوراً وأن تنقلها بسفن غير أميركية . وللرئيس تعيين هذه المواد ببيان يُعلن . وأضيف فى هذا القانون نصٌّ يدخل الحروب الأهلية فى عداد الحروب التى يطبق عليها قانون الحياد . وأضيف إليه كذلك نصٌّ يحظر تسليح السفن التجارية الأميركية ، فى حالة ما يعلن الرئيس قيام حالة حرب (دولية أو أهلية) . ونصٌّ آخر عدّل به النصُّ الخاص بسفر الأميركيين فى سفن دولٍ محاربة . ففى القانونين الأولين كان يحق للاميركيين هذا السفر ، على أن تكون تبعة عملهم واقعة عليهم فلا ينتظروا حماية ما من الحكومة

الأميركية إذا أصيبوا بمكروه ، ولـكن النصَّ الجديد فى قانون ١٩٣٧ حظر عليهم هذا السفر .

فواضحٌ من هذه الخلاصة الوجيزة ، أن غرض تشريع الحياد الأميركى ، كان إقصاء الولايات المتحدة عن كلِّ حادث من شأنهِ أن يفضى إلى انسياق الولايات المتحدة إلى خوض حربٍ لا تريدها ، وذلك بنزولها عن حقوق يبيحها القانون الدولى للدول المحايدة . فمنع اصدار الأسلحة وما كان من قبيلها ، و إصدار المواد والمصنوعات التى لا تعدُّ فى حكم الأسلحة ، فى سفن أميركية ، وحظر سفر الأميركيين فى سفن دول محاربة ، كل هذا كان فى نظر أنصار هذا التشريع ، مانعاً لحوادث دبلوماسية قد تكرهُ الحـكومة الأميركية على الدفاع عن حقوقها ، فى ما يخصُّ تجارة رعاياها أو حياتهم أو العلَمَ الأميركى ، وقد يفضى هذا الدفاع الى خوض الحرب ، كما حدث فى سنة ١٩١٧ بعد إغراق اللوزيتانيا وانطلاق حرب الغواصات . وحظر عقد القروض وفتح الاعتمادات المالية للدول المحاربة ، يحول دون انسياق أصحاب المال المقرَض والاعتمادات ، فى تيار الدعوة الى تأييد الدول التى اقترضت منهم ، فيمنع هذا تهييجَ الشعور الأميركى و إثارته إلى تأييد فريق دون آخر من الدول .

هذه النظرة الى « الحياد » و « الحرب » وموقف الولايات المتحدة بينهما ، نظرة اكاديمية ، تتجاهل حقائق الحال ، ولا تقيم وزناً لمسألة المعتدى والمعتدَى عليهِ . ولا لقيمة الحياد فى عالم بدرت فيهِ بوادرُ الانتقاض على العهود . ولذلك ذهب فريق كبير من الكتاب الأميركيين ، إلى أن إقرار هذا القانون شجع الدول التى تبيِّت النية على الاعتداء ، لأنها وهى المتأهبة للحرب ، تعلم أن هذا القانون يمنع الولايات المتحدة من إمداد خصومها غير المتأهبة لها . ولذلك قال روزفلت وهو يوقع قانون الحياد بعد ما تجاهل الكونغرس رأيَهُ فى معارضتهِ : إن هذا القانون قد يكون أبعث على الحرب منهُ على منعها .

فلما نشبت الحرب فى أوربا فى سبتمبر ١٩٣٩ دعا روزڤلت الكونغرس إلى عقد اجتماعٍ استثنائى ، فى ٢١ سبتمبر للنظر فى تعديل قانون الحياد . كان روزڤلت قبل ذلك ، خلال الأشهر السابقة من السنة قد حث على تعديل النصّ الخاص « بحظر إصدار الأسلحة » . ولكنّ خصومهُ السياسيين وأنصار العزلة ، والسلام عن طريق الحياد ، أبوْا الاستجابة ، إلى حثّهِ المقرون بانذاره و إنذار الوزير هل ، بما كان يتهيأ للانفجار فى أوربا ، خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٣٩ . وفى ٢١ مارس اقترح السناتور پتمان — رئيس لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس الشيوخ — اقتراحاً رسميًّا بتعديل قانون الحياد ، بحيث يباح إصدار جميع الأسلحة وأنواع العتاد وأدوات الحرب ، إلى الدول المتحاربة على أساس « ادفع وانقل » . ولكن السناتور بوراه وأنصاره عارضوا الاقتراح وتأخَّر البتُّ فيهِ . وأقبلت أشهر الصيف — بعد احتلال تشيكوسلوڤاكيا فى مارس والبانيا فى ابريل — ونذر الحرب تزداد تجمعاً ، وأفق السلام تلبداً بغيوم الحرب . فبذل روزڤلت وهَلْ جهداً أخيراً لإقناع زعماء الكونغرس بتعديل القانون . وعقد اجتماع فى البيت الأبيض ، فأفضى فيهِ هَلْ إلى الحاضرين ، ما عند وزارة الخارجية الأميركية من أسبابٍ تحملها على الاعتقاد أن خطر الحرب فى أوربا أصبح قريباً . ولكن السناتور بوراه ردَّ على الوزير هل ، بأنهُ يملك كذلك مصادر للأخبار ، و إنها أصح وأصدق من المصادر التى تعتمد عليها وزارة الخارجية ! وكذلك اضطرَّ روزڤلت إلى التسليم باستحالة تعديل القانون حينئذ .

فلما دعا الكونغرس إلى اجتماع استثنائى ، بعد قيام الحرب فى أوربا ، ذهب بنفسه إلى اجتماعه الأول وتلا الرسالة الموجهة إلى مجلسيه للدلالة على ما يعلقه من شأن عظيم بهذا التعديل، و بنى رسالته على القواعد الأصيلة فى السياسة الخارجية الأميركيـة ، وهى حرية البحار واللوذ بالقانون الدولى ، قال « ويؤسفنى أن يكون الكونغرس قد أقرَّ هذا القانون (قانون الحياد الأميركى) ، وأنى وقعته »[1] .

(١) مع أنه عارض فيه أثناء مناقشته ولـكنه لم يستعمل حقه الدستورى فى نقضه .

وأقرّ التعديل ووقع الرئيس القانون المعدّل فى يوم ٤ نوفمبر ١٩٣٩ وأهمّ تغيير فيه ، إباحة اصدار الأسلحة وأنواع العتاد الى جميع الدول المتحاربة بغير استثناء على قاعدة « ادفع وانقل » . فغدا هذا التعديل عوناً مباشراً لبريطانيا وفرنسا ، لأنهما دون المانيا كانتا تملكان القدرة على توفية ما تشتريان من أموالهما فى الولايات المتحدة ، ولأنهما دون المانيا كانتا تملكان القدرة على النقل ، إذ كان زمام السيادة البحرية فى أيديهما .

كانت سنة ١٩٤٠ سنةً سوداء فى نظر أنصار الحلفاء وما يمثّلونهُ . وكانت كذلك سنة انتخاب الرآسة فى الولايات المتحدة الأميركية .

فالأشهر التى أعقبت اجتياح بولونيا ، كانت أشهر سكون . فمال فريق كبير من الأميركيين الى وصف الحرب بأنها « حرب هازلة » Phoney ولكن الضربات الألمانية المتلاحقة بين ابريل ويونيو ، صدمتهم صدمة عنيفة . فالبلدان المشهورة بحبّها السلام والتزامها الحياد الدقيق كالدنمارك والنرويج وهولندا اجتيحت وعنت لكابوس الفاتح . وانهارت المقاومة الفرنسية فى أكثر من شهر قليلاً ، وانكشفت بريطانيا لخطر الغزو . فبدأ الأميركيون يحسون فساد رأى الذين يريدون السلام بالاعتماد على الحياد ورأوا شبح الخطر يدنو من شواطىء العالم الجديد . فأدركوا أن روزفلت صدقهم النصح ، فأقبل كثيرون من أقطابهم على التفكير فى وجوب انتخابه ثالثة للرآسة وهو ما لم يقع خلال تاريخهم .

ويروَى أن السناتور نورِسْ — وهو شيخٌ محنك وقد عارض إعلان الحرب فى سنة ١٩١٧ — ذهب إلى البيت الأبيض وقابل الرئيس ، وقال له إنه يجب عليك أن تقبل الترشيح للرآسة ثالثةً ، فقال الرئيس للسناتور الشيخ : « أيها العمّ چورچ إن أربع سنوات أخرى هنا تقتلنى » . فقام الشيخ من مقعده وأخذ قبّعته وخرج وهو يقول : « ولو ! » .

فى خلال تلك السنة اشتدَّ العطف الأميركى على بريطانيا الباسلة ، وتحجَّر الرأى على وجوب بَذْل العون لها إلى أقصى حدٍّ مستطاعٍ دون الحرب . فلما اجتمع مؤتمر الحزبين لترشيح مرشحيهما للرآسة والوكالة ، خرج الحزب الجمهورىُّ على كل تقليدٍ سابق ، ورشَّح ونْدل وِلْكى للرآسة ، وهو ليس من أقطاب ساسة الحزب وليس له هيئات منظمة تؤيده ، وإنما نال تأييد الكتلة من ممثلى الحزب ، فعنا الساسة لهذا التأييد . وخرج الحزب الدمقراطىُّ كذلك على قاعدةٍ كانت تقليداً يحوطه الاحترام والجلال ، وهو تقليد الامتناع عن انتخاب رئيس ما لرآسة ثالثة ، فرشَّح روزفلت ، ودارت معركة الانتخاب بينما كانت معركة بريطانيا على أشدِّها . وكان المرشحان الكبيران متفقين — بغير تبادل الرأى بينهما — على القاعدة الأساسية فى موقف الولايات المتحدة من الحرب ، وهو بَذْلُ العون لبريطانيا إلى أقصى حدود البذل دون الحرب . ومَرَدُّ هذا الاتفاق إلى أن انهيار بريطانيا يضع الولايات المتحدة وسائر جمهوريات العالم الجديد أمام خطرٍ عظيم يهدِّد كيانها وطريقتها فى الحياة .

وبينما كانت معركة الانتخاب دائرة ، أُعلن الاتفاق الخطير الذى عُقِدَ بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وهو الاتفاق الذى أساسهُ إعطاء بريطانيا خمسين مدمِّرة أميركية ، مقابل إعطاء الولايات المتحدة حقوقاً فى إنشاء قواعد بحرية وجوية ، فى طائفة من الجزائر البريطانية فى غربى المحيط الأطلسى وبحر الأنتيل . وكان المبدأ الذى عُقِد الاتفاق على أساسه مبدأ الدفاع عن الولايات المتحدة . فتحويل خمسين مدمرة أميركية إلى بريطانيا يعزِّز قدرتها على الدفاع . وانشاء قواعد أميركية فى الممتلكات البريطانية فى العالم الجديد يعزِّز قدرة الولايات المتحدة على الدفاع . وتعزيز قدرة بريطانيا على الدفاع يطيل الأمد المتاح أمام الولايات المتحدة للتأهُّب . والأمر الذى يستوقف النظر فى هذا التبادل أنه تمَّ من الجانب الأميركى ، بقرارٍ من الرئيس بغير استشارة الكونغرس . ولذلك حصر ناقدو الرئيس مجال النقد فى هذه

المسألة القانونية ، مع أنهم فى نقدهم كشفوا عن عَنَتٍ أكثر مما كشفوا عن حكمةٍ وحسن إدراك ، إذ لا ريب فى أن الشعب الأميركى كان موافقاً على هذا التبادل . ولكنْ لو عُرض على الكونغرس لكان هناك تأخيرٌ فى اقراره ينطوى على خطرٍ على الأقل . وقيل فى نقده انه عملٌ غير محايد . وهذا صحيحٌ من ناحية تقاليد الحياد الأميركية . ولكن جميع الذين يواجهون الحقائق ولا يزورُّون عنها كانوا يعلمون أن الحياد بمعناه القديم قد زال . وعَدُّ هذا العمل عملاً حربيًّا أو لا كان فى هذه الحالة يرجع إلى برلين أكثر مما يرجع إلى وشنطن . ومن المحتَّم أن الحكومة الألمانية كانت عازمةً على تجاهل العمل الأميركى ، مادام ذلك يوافق مصلحتها وحاجتَها ، ولو كانت ألمانيا النازية ترى مصلحة فى الاعتداء على الولايات المتحدة ، لَمَا انتظرت عملاً من هذا القبيل لتتوسل به إلى ما تريد . وقد أفصح الرئيس روزڤلت عن هذا المعنى فى غير خطبةٍ واحدة من خطبه ، والشعب الأميركى أيده .

وأقبل يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وهو يوم انتخاب الرئيس ، أو يوم انتخاب ناخبى الرئيس — إذا أُخذ بحرف النصوص الدستورية — فأسفر الانتخاب عن فوز روزڤلت باتفاق ٤٤٩ صوتاً على ٨٢ صوتاً فى مجمع الانتخاب ، وبأكثرية شعبية قدرها خمسة ملايين . ففرنكلن دلانو روزڤلت هو الرئيس الأميركىّ الأول الذى انتخب رئيساً ثلاث مرات . وكان عدد الولايات التى انحازت إليه ٣٨ ولاية من ٤٨ ولاية ، وكان عدد الأصوات الشعبية فى جانب روزڤلت ٤٦٦ ، ٢٤٣ ر ٢٧ وفى جانب ولكى ٧٥٥ ر ٣٠٤ ر ٢٢ .

ولما كان المرشحان الكبيران ، روزڤلت ووِلْكى ، متفقين اتفاقاً تامًّا على قواعد السياسة الخارجية التى يجب أن تجرى عليها الدولة الأميركية حيال أخطار الحرب ، وهى التأهُّب للدفاع ، وتأييد بريطانيا بكل عون مستطاعٍ دون الحرب ، والامتناع عن ممالاة الطغاة . فالنتيجة التى أسفر عنها الانتخاب تشير إلى أن الشعب الأميركى

فضَّل إبقاء رُبَّانٍ مدرَّبٍ مجرَّبٍ ممسكاً بدفَّة سفينة الدولة، على التمسُّك بعُرفٍ جَرت به التقاليد ولا يمنعه الدستور، وهو الامتناع عن انتخاب رجلٍ واحد ثلاثاً للرآسة.

ثم إن السياسة التى اتفق عليها روزڤلت وولْكى بغير تفاهم خاص بينهما عليها، كانت مرتبطة باسم روزڤلت أكثر من ارتباطها باسم وِلْكى. ومما لاريب فيه أن دُعاة الطغاة فى أوربا بذلوا غاية الجهد لهزيمة روزڤلت فى الانتخاب وتأليب الشعب الأميركى عليه مع علمهم أن وِلْكى يرى رأيه، وقد فعلوا ذلك ليقينهم أن خذلان روزڤلت يمكن استغلاله استغلالاً قويًّا، فترة ما على الأقل، فيُصَوِّرُ هزيمةً سياسية وأدبية لبريطانيا وحلفائها

ويجب أن يضاف إلى ما تقدَّم أن تجديد انتخاب روزڤلت جاء عملاً موفَّقاً، لأن الفترة بين الانتخاب وتنصيب الرئيس الجديد، أى بين ٥ نوفمبر و٢٠ يناير التالى، تقتضى فى مثل هذه الأيام العصيبة تصريف أمورٍ خطيرة مستعجلة، ورئيسٌ يعلم أنه خُذِل فى الانتخاب وحزبه معه، قد يتعذر عليه البتُّ فى مسائل كثيرة. وقد حدث هذا بعد انتخاب روزڤلت سنة ١٩٣٢ وقبل تنصيبه فى مارس ١٩٣٣ إذ عجز هوڤر عن النهوض الى مستوى سلطة الرئيس العظيمة. فدبيب التراخى يدبُّ فى أعمال الحكومة فى هذه الفترة

وأخيراً إن أساس النظام الدستورى الأميركى هو التعاون بين الرئيس (السلطة التنفيذية) وبين الكونغرس (السلطة التشريعية). والرئيس لا يُعْزَل الاَّ بعد اتّهامٍ ومحاكمة. فإذا كان الرئيس من حزب وأكثر الكونغرس أو أحد مجلسيه من حزب آخر، كان التعاون متعذراً أو شاقًّا المشقة كلها على الأقل. ولو فاز وِلْكى لكانت أكثرية مجلس النواب من الجمهوريين (حزب وِلْكى) على الأرجح، ولكن مهما يحدث فالأكثرية فى مجلس الشيوخ كانت باقية حتماً للدمقراطيين لأن

ثلث أعضاء المجلس انتخب حينئذ (١٩٤٠) ، ولو كانت أكثرية هذا الثلث الساحقة من الجمهوريين لظلت أكثرية المجلس نفسهِ من الدمقراطيين . فتجديد انتخاب روزڤلت من أى النواحى أتيته كان ، على حد ما قاله لى يومئذ الوزير الأميركى المفوض فى مصر ، برت فش : — « خيراً لأميركا — وللعالم أجمع » .

بين تجديد انتخابه فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وحفلة تنصيبه الثالث فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ واجَهَ روزڤلت وحَلَّ أعقد معضلة اقتصادية حربية واجهتها بريطانيا والأمم الدمقراطية فى هذه الحرب . ذلك بأن بريطانيا كانت قد أوشكت أن تستنفد كل ما لها من مالٍ فى الولايات المتحدة ، أو كلّ ما تستطيع تحويله إلى دولاراتٍ لشراء السلاح والعتاد من الولايات المتحدة ، وتَوْفية ثمنها نقداً وفقاً للقانون القائم .

ولكنّ الحرب لا تزال فى بدئها ، والحاجة مُلِحّة إلى مقادير عظيمة من السلاح والعتاد لتضمها إلى ما تخرجه مصانعها . وقانون جنصن الأميركى يمنع عَقْدَ القروض فى الولايات المتحدة لدولة لم توفّ كل ما عليها من ديون الحرب الماضية ، وقانون الحياد الأميركى يحتم توفية الثمن نقداً وفَوْراً . فإذا لم تُكْشَف طريقة تمكن بريطانيا من أخذ ما تحتاج إليه من السلاح والعتاد ، فقد تعجز عن مواصلة الحرب ، وإذا انهارت بريطانيا انكشف العالم الجديد — أى الولايات المتحدة نفسها — للخطر ، لأن هتلر يملك حينئذ موارد أوربا المادية والصناعية ، ومن المرجَّح أنه يشترك حينئذ مع اليابان فى ضغط أميركا من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب ، لأن قارة أميركا الجنوبية تصبح عندئذ ميداناً مباحاً له بغير قتال . فالولايات المتحدة يهمها أن تشترى وقتاً للتأهب ، وليس ثمة غير بريطانيا تستطيع أن تبيعها هذا الوقت . فعَوْنُ بريطانيا أيًّا كانت طريقته ، مصلحة دفاعية أميركية عُلْيا .

فكيف يكون العون ؟

عند ما اجتمع روزڤلت بالصحفيين فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٠ كان الرأى الغالب بينهم

أن خير أسلوب لتحقيق هذا العون هو الغاء قانون جنصن والسماح لبريطانيا بأن تعقد فى السوق الأميركية قروضاً بفائدة يسيرة ، فتنفقها فى شراء ما تحتاج اليه من منتجات أميركا الحربية على نحو ما فعلت فى الحرب العالمية الأولى . ولو كان روزفلت رجلاً ضعيفاً قليل التبصر لاختار هذا الطريق السهل فى هذه الساعة القاتمة ، ولو اختاره لتراكمت على بريطانيا ديون تفضى بعد الحرب الى غير قليل من المنازعة والتنابذ على توفيتها وأساليب التوفية ، والى أزمة اقتصادية عالمية ، ولَوَهَنَتْ العروة التى يجب أن تربط بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وبها يناط معظم الأمل فى تحقيق السلام والتعمير بعد الحرب .

ولكن فرنكلن روزفلت الواقف حارساً على باب الزمان ، لم يكن ينوى أن يعيد الأخطاء التى ارتكبت فى الحرب العالمية الأولى . وكان حين واجه أولئك الصحفيين يُجيل فى ذهنه حَلاًّ فاق فى سعة أفقه ، ونبل غرضه ، وبُعْد مرماه ، كلَّ ما كان منتظَراً . ولكنه لم يَفُهْ إلاّ بتلميح عنه للصحفيين ، وذهب فى رحلة استجمام بحرية إلى بحر الانتيل ، أحكم خلالها المشروع الذى يفرغ فيه هذا الحلّ . وبُعَيْدَ عودته ، وجَّه إلى قومه من « جانب الموقدة » فى البيت الأبيض الخطبة المشهورة الآن بعنوان خطبة « ترسانة الدمقراطية » ٢٩ ديسمبر ١٩٤٠ ومما قاله فيها : « هذا حديثٌ عن الدفاع القومى . . . . إن حضارتنا لم تتعرّض مطلقاً منذ جيمزتون و بليموث روك (الإشارة إلى نزول النازحين الانكليز فى أميركا فى القرن السابع عشر وإنشائهم مستعمرة هنا) لمثل الخطر الذى تتعرّض له . . . . إن سادة ألمانيا النازيين أوضحوا أنهم لن يكتفوا بالسيطرة على الحياة والفكر فى بلادهم ، بل ينوون استعباد أوربا قاطبةً ثم الاستناد إلى مواردها للسيطرة على بقية العالم . . . . إن فريقاً من شعبنا يوهم نفسه بأن الحروب فى أوربا وآسيا ليست من شأننا . ولكن من المسائل الحيوية التى تهمُّنا بوجهٍ خاصٍّ أن يُصَدَّ مثيرو الحرب فى أوربا وآسيا ، عن السيطرة على

المحيطات المفضية إلى نصف القارة الغربى . . . . هل يعتقد أحدٌ صدقاً أنه يجوز أن نخشى الاعتداء ما دامت بريطانيا قائمة جارةً لنا . . . ؟ هل يعتقد أحدٌ صدقاً أننا نستطيع أن نطمئن إذا كانت دول المحور جاراتنا هناك ؟ واذا هَوَت بريطانيا فإن دول المحور تسيطر على قارات أوربا وآسيا وأفريقية وأستراليا وما يتبعها وعلى البحار كذلك ، فتصبح فى منزلة تمكّنها من أن تحشد موارها الحربية والبحرية ضدّ نصف الكرة هذا . وليس من الغلوّ فى شىء أن نقول إننا نغدو جميعاً فى القارتين وكأننا نعيش على فوّهة مدفع . . . إن أمامنا خطراً يجب أن نتأهب للقياه ، ولكننا نعلم أننا لا نستطيع أن ننجو من الخطر أو من الجزع الذى يبثّه فى النفس ، بتسلّلنا إلى الفراش وتغطيه رؤوسنا . . . . إننى إذ أفكّر فى مسائل اليوم والغد ، أصارح أُمَّتى بأن احتمال بقائنا خارج نطاق هذه الحرب يزداد إذا نحن بَذَلْنا تأْييدنا الآن للدول التى تدفع عن نفسها هجوم المحور ، غير مسلّمين بهزيمتها ، ولا مُذْعِنين فى لينٍ وذُلّ لظفر المحور ، منتظرين دورنا . . . ولا بدّ من أن نرسل اليها هذه الأسلحة فى مقادير وافية . . . فَلْيمتنعْ دُعاة الهزيمة عن القول بأن الوقت قد فات . فليس فى الوسع الإفراط فى التبكير . واليوم أَبْكَرُ من الغد . . . » الخ . . .

ولما اجتمع بالصحفيين بعد ذلك ضرب لهم مَثَلاً على ما يريد ، فقال : « إذا شبَّت النار فى دار جارك ، وخشيتَ أن تمتدّ إلى دارك ، فهل تساوم جارك ، المحتاج إلى خرطوم الماء ، على ثمنه وطريقة توفية الثمن ؟ » . ولكنّ تفصيل المشروع لم يُعْرَف حتى اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٩٤١ إذ وجّه إلى الكونغرس رسالةً قال فيها عن الحلفاء : « اقترب الوقت الذى سيعجزون فيه عن توفية الثمن (ثمن العتاد) نقداً . ونحن لا نستطيع أن نقول لهم ، ولن نقول لهم ، يجب أن تستسلموا ، لأنهم عاجزون الآن عن دفع ثمن أسلحةٍ نعلم أنهم فى حاجة إليها . وأنا لا أشير بأن نعقد لهم قرضاً بالدولار . بل أشير بأن نتيح لهم فرصة المُضِىّ فى الحصول

على موادّ الحرب فى الولايات المتحدة ، مُوفِّقين بين طلبهم و برنامجنا (برنامج الدفاع الأميركى) . . . وما نرسله خارج بلادنا سيوفى ثمنه فى أمَدٍ معقول بعد انتهاء القتال إمَّا موادّ مشابهة للموادّ التى أصدرت ، أو لنا أن نختار بضائع أخرى يستطيعون أن يصنعوها ونحتاج نحن إليها » .

هذه العبارة هى لباب مشروع الإقراض والتأجير ، و بها ذلَّل روزفلت بضربة واحدة من القلم ، أعظم عقبة تحول دون التعاون البريطانى الأميركى بعد الحرب ـ عقبة التنافس الاقتصادى .

إلاّ أن مغزى المقترح ، من حيث صلته بمواصلة الحرب ، حجب هذا المغزى الإنسانى البعيد ، حينئذٍ .

وقع المشروع الذى اختاره الرئيس لحلِّ هذه العقدة الحربية المالية أحسن وقع عند جمهور الشعب الأميركى ، فكتبت فيه الصحف كتابةَ متحمسٍ له ، لا مجرَّد كتابةِ موافقةٍ عليه . فقالت جريدة « كرستيان سَيَنْس مونيتور » — وهى جريدةٌ لها أعلى منزلة عند الطبقات العالية فى الولايات المتحدة الأميركية ولا سيَّما طبقة المشتغلين بالتعليم والتربية والصناعة والصحافة — ما يلى : « منذ أشهر أخذت الولايات المتحدة تدرك أنها لا تستطيع أن تعيش فى عالم دكتاتورى ، فأحسَّت بدافعٍ من فطرتها السليمة أنَّ عليها أن تقاوم . . . وعَزْمُها هذا يجد الآن إعراباً بليغاً فعَّالاً فى أقوال الرئيس ومشروعه ... إنه يمزِّق لفائف التفكير المشوَّش ، معترفاً بأن الأمر الحيوىَّ فى المسألة كلِّها إنما هو السرعة فى نقل الأسلحة إلى حيث تكون أفعل ما تكون »

وكتب ولتر ليبمان — وهو كاتبٌ قرأتُ مؤلفاته فتعلَّمت أن أحترم سداد رأْيه واستقلالَه ، ثم لما عرفته من سنوات فى القاهرة عزَّز الخُبْرُ الخَبَر ، ومقالته اليومية تُنشر فى صحيفة « هيرالد تربيون » النيويوركية ثم تنشرها مئات من الصحف فى طول البلاد وعرضها — فقال : إن الرئيس ينتقل بإذاعة مشروعه من الأقوال إلى

الأفعال . وهو مشروعٌ سليمٌ قائمٌ على مبدإ صريح ، وهو مبدأُ عَوْن بريطانيا كل العون المستطاع دون الحرب . وهو مشروع فعَّال لأنه يعزِّز الدفاع الأميركى بتعزيز خط الدفاع الأول عَبْرَ المحيط . وهو مشروع حكيم بعيدُ أُفُقِ النظر ، لأنه يضمن للولايات المتحدة أفعل وسائل الدفاع فى أثناء الحرب و بعدها ، ولأنه يرفع صنع الأسلحة وبيعها فوق مستوى الصفقات التجارية . . . إنه مشروع رئيس الولايات المتحدة الأميركية مدبِّر سياستها الخارجية والقائد العام لجميع قوّاتها المسلَّحة ! » .

وكان وِنْدل وِلْكى بعد خذلانه فى انتخاب الرآسة قد ذهب فى رحلة إلى بريطانيا ، فاستُدْعِىَ من رحلته هذه ليقدِّم شهادته فى هذا المشروع فى لجان الكونغرس المختصة ، فقال فى لجنة مجلس الشيوخ ، إنه ليس فى وسع أحدٍ أن يحكم فى هل تستطيع بريطانيا أن تنتصر فى هذه الحرب بغير عون الولايات المتحدة . ولكننا نعلم أنها إذا غُلِبَت على أمرها ، فالدول الدكتاتورية تبسط سيطرتها على العالم ، ولا تقتصر سيطرتها على أوربا ومعظم أفريقية بل تتعدّاها إلى المحيط الأطلسى . وفى هذه الحالة يرجَّح أن تشنَّ ألمانيا حملة اقتصادية وعسكرية على أميركا اللاتينية . واليابان على جزائر الهند الشرقية . فتصبح الولايات المتحدة وكندا مطوَّقتين ، تطوقهما دول دكتاتورية تستعمل أساليبها المعروفة فى التجارة والاقتصاد . متنكرة للولايات المتحدة ، غير محجمة عن القتال إذا دعا الأمر . هذا هو المعنى الذى يجب أن نعلِّقه بمشروع عون بريطانيا . ليس الغرض أن نعمل لأجل بريطانيا ، بل الغرض أن نعمل مع بريطانيا للدفاع عن نطاق الحرية .

وقال : إن سياسة العون الكامل لبريطانيا تتيح لأميركا أفضل فرصة — وفى رأْيى آخر فرصة — لحماية الحرية بغير أن تخوض أميركا الحرب . وليس هناك من يستطيع أن يضمن أن سياسة عون بريطانيا لا تفضى إلى اشتراك أميركا فى الحرب . ولكننى مقتنعٌ باننا إذا بَذَلنا لبريطانيا عوناً فعّالاً ، كان بذْلنا هذا أفضل ضامنٍ

لنا اجتنابَ الحرب ، إذا كان اجتنابها ممكناً على الإطلاق . إن هتلر سيحارب ويحارب أصدقاءنا وحلفاءنا في نصف كُرَتنا هذا متى شاء واستطاع . هذا هو سجله . ولكن عدوانه يبقى مقموعاً ما دامت بريطانيا ثابتة .

— وبعد مناقشة طويلة حرة ، وبحث حرٍّ مستفيض فى لجان الكونغرس ومجلسيه ، أُقر قانون « الإقراض والتأجير » ووقعه الرئيس روزفلت فى ١١ مارس ١٩٤١ فقطعت عند ذلك الولايات المتحدة « نهر الروبيكون » فى هذه الحرب كما فعل قيصر من قبل عند ما زحف على روما ، أو أشعلت النار فى السفن وراءها كما فعل طارق ابن زياد . فكانت هذه الخطوة ، كما قلت حينئذٍ فى إذاعة من القاهرة « خطوة حاسمة فى هذه الحرب ، وعندى أنها خطوة حاسمة كذلك فى مستقبل العلاقات البريطانية الأميركية وفى تنظيم العالم المرتجى بعد الحرب » .

فلماذا خطت الولايات المتحدة هذه الخطوة ؟ انك تجد الجواب مفصّلاً فى ما تقدم من صفحات هذا الفصل ، ولكن خذه مجملاً فى قول الصحفى مارك صليفن — وهو شيخ المكاتبين السياسيين فى العاصمة الأميركية — قال : اننا لا نخشى الاَّ من بعيد ، غزوةً ألمانية مباشرةً لأرضنا ، ولكن الخطر الصحيح الذى يواجهنا ، هو فى نظر أصحاب الفكر والرأى ، خطر القضاء على النظام الأميركى بغير غزوة مباشرة . أما كيف يتم هذا القضاء بغير غزو فخطوطه الرئيسية كما يلى : إذا تغلبت ألمانيا على بريطانيا ، أصبحت سيدة البحر وصاحبة حولٍ وسلطان على العالم ما عدانا (أميركا الشمالية) ، ثم تفرض ألمانيا نظامها « الكلى » على العالم بالسلاح أو بالتهديد بالسلاح أو بالضغط الاقتصادى . وتبدأ فى جميع البلدان بتحويل الصناعة والتجارة وإخضاعهما لحكمها وتدبيرها . وتنشىء من تجارة العالم وصناعته كتلة واحدة ، ألمانيا قلبها ، ومقرها فى برلين . فتقول لبلدٍ ما ، عليك أن تنتج قمحاً وتصدره الى حيث أبين لك ، وتقول لآخر عليك أن تنسج منسوجات ، ولثالث أن تتوفر على صناعة السيارات .

وتحتفظ هى لنفسها بالصناعات التى تعَد مفتاح القوّة الحربية فى هذا العصر ، كصناعة الأسلحة على اختلافها والدبابات والطائرات . وتحتفظ بصناعة السفن أو تبسط سيطرتها التامة عليها فى بلدان أخرى ، بحيث تكون الأساطيل التجارية جميعاً رهن إشارتها . ولا يبعد أن تمنع البلدان الأخرى من بناء سفن تجارية إلا إذا كانت دون تفريغ قليل معين . وكذلك تغدو جميع مراكز الانتاج وجميع طرق العالم التجارية سدًى ولحمةً فى نسيج واحدٍ تحرِّكه يدٌ واحدة ، حتى لكأنَّ العالم مصنع واحد ومتجر واحد ، كلمته العليا فى برلين .

« ونحن الأميركيين نخشى أن نعجز ، بعد ما يتمُّ كلُّ هذا ، بل قبل أن يتمَّ ، عن البقاء خارج هذا النظام العالمى ، وبمعزل عنه . ونخشى أن نغدو مضطرين برغم أُنوفنا إلى الأخذ بالنظام الكلى فى صناعتنا وتجارتنا . وعندئذ ، لامحيص لنا من أن يتبع حكمنا واجتماعنا ذلك النظام . هذا هو لباب الرأى الذى حفزنا إلى العمل ، ومهما يكن لون الخطر الذى يهددنا من ناحية ألمانيا فإن بريطانيا خير واق لنا منه ، فإذا ثبتت بريطانيا فليس فى وسع هتلر أن يهاجمنا مباشرة ، وإذا ثبتت بريطانيا فليس فى وسع هتلر أن يفرض نظامه هذا على العالم » .

أما ولتر ليبمان فيقول : « ليست المسألة : هل قليل من العون لبريطانيا يبقينا بمنجى من التعرض للحرب ؟ أو هل مزيد منه يحتم علينا خوضها ؟ ولكن المسألة هى : هل نستطيع ، قبل فوات الأوان ، أن نخطو الخطوات اللازمة لمنع هذه الحرب — التى لم نطالَب حتى الآن بخوض غمارها — من أن تتحول حرباً لا بدَّ لنا من أن نخوضها ونسفك دماءنا فيها وقد نكون فيها وحدنا حينئذ ؟

هذا هو وصف الباعث الأنانى على الموقف الأميركى ، ولا حرج فى وصفه ، ولا عيب فى اذاعته ، فالباعث الأنانى ، أقوى البواعث لأنه أوثقها صلة بالدفاع عن النفس وحفظ الكيان . ولكنَّ باعثاً آخر يصطحبه ، مداره التعلق بصورة معينة من الحياة ،

ويقابله فى عالم الطبيعة الحيَّة التعلق بزوج أو حبيب . قد تكون مزايا تلك الصورة من الحياة قائمة فى عالم الوهم والخيال ، أو مستنزلة من صميم الحقيقة نفسها ، ولكن سواء ، أهذه كانت أم تلك ، فإنها مرتبطة بالانفعال والشعور ، ولذلك فهى تدفع إلى العمل .

وقد مضى على الأميركيين ثلاثة قرون ، منذ نزلت أفواجهم الأولى فى العالم الجديد من سفينة «المايفلور» وهم يرعرعون قواعد هذه الصورة من الحياة ، فى البيت والمدرسة والحكومة ، فى خطب الأقطاب وروايات الأدباء وأشعارهم ، وفيما يختارون دراسته من أدب الإغريق القدماء وتاريخ الأمة الانكليزية وأدبها وعلمها وفلسفتها من ثمانية قرون إلى الآن .

وما هى هذه القواعد ؟ هى أن السلطان والحرية غير متنافيين ، وأن فى وسع الإنسان التمتع بالحرية بغير أن تعمَّ الفوضى ، وأن الحكومة تستطيع أن تمارس السلطان بغير أن ينتشر الاستبداد ، وأن الثقة بكلمة المتعاقدين والقدرة على الاستناد إلى وعد الرجل المستقيم ، أساس لاغنى عنه للاجتماع الاقتصادى ، وأن الناس سواء أمام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة أو شهوة شرطى سرى . وهذه جميعاً مردُّها إلى الاعتقاد فى أن للانسان الفرد شأناً فى بناء الحضارة ، والإيمان بالعقل ، والإصرار على أن للمرء المفكر كرامة فى ذاته . أى أن المبدأ الأساسى فى هذا النظام الاجتماعى الاقتصادى قوامه أن الفرد غاية فى ذاته ، وليس مجرد آلة أو أداة تحركها قوة فرد آخر أو حفنة من الأفراد . وهذا القول ينطوى على وجوب منح الفرد بضع حريات أساسية لكى يتاح له النموُّ العقلى والروحى المتسق ، وفى مقدمتها الحرية ليزِنَ ويحكم ، والحرية ليبحث ويناقش ، والحرية ليعرب عن رأيه ، والحرية ليؤمن ويتعبد . فالحريات المدنية والدينية هى روح الحضارة ، هى لباب هذه الصورة من الحياة النازلة فى الصميم من شعور الأميركى وانفعاله ، فتعرُّضها للبوار يحرك عقل الأميركى وانفعاله معاً ، فإذا أُضيف إلى ذلك شعوره بأن كيانه ، بأن سلامته

مهدَّدة ، فأظن أن السبب الذى حمل الولايات المتحدة على وقوف هذا الموقف يغدو واضحاً .

عندما أُقِرَّ قانون « الإقراض والتأجير » تجلّى حالاً التناقض بين منطقه ومنطق قانون الحياد الأميركىّ حتى بعد تعديله فى اكتوبر وأوائل نوفمبر من سنة ١٩٣٩ . فقانون الحياد يفرض حياد الولايات المتحدة حياداً تامًّا ، ويحاول أن يجتنب بالتشريع ، جميعَ الحوادث التى قد تفرض عليها الخروج عليه ، ولو كان فى ذلك نزول عن حقوق المحايدين الأساسية التى طالما دافعت عنها الولايات المتحدة . صحيحٌ أن للدول المتحاربة أن تبتاع ما تشاء من أميركا ولكن عليها أن توفِّى الثمن فوراً ، وأن تنقل ما تبتاعه بسفن غير أميركية . وحُظر على السفن الأميركية أن تدخل مناطق عرَّفها الرئيس بحسب قواعد القانون ، وأطلق عليها اسم «مناطق القتال» . وصحيحٌ كذلك أن المزية التى يبيحها هذا القانون للدول المتحاربة على السواء ، مقتصرةٌ على بريطانيا لأنها دون ألمانيا ، كانت تستطيع أن تشترى ما تشاء وتوفِّى ثمنه إلى أن قلَّ مَعينُها من الدولارات ، وأن تنقله لأنها مسيطرة على مياه المحيط الأطلسى . فمنطق قانون الحياد يعنى أن الولايات المتحدة مُنْتَحِيَةٌ من الحرب شُرْفةً تطلُّ منها عليها ولا تشترك فيها .

ولكن قانون « الإقراض والتأجير » ينصُّ على أن الولايات المتحدة ستدفع ثمن السلاح والعتاد الذى تحتاج إليه بريطانيا من مال أبنائها وبناتها ، لأن الدفاع عن بريطانيا أتمُّ دفاع عن أميركا . فمنطق قانون « الإقراض والتأجير » يعنى أن الولايات المتحدة أصبحت مساهمة فى الحرب ، ولو لم تشترك فى القتال اشتراكاً فعّالاً والمنطقان متناقضان .

وإذا صحَّ عزم الولايات المتحدة حقًّا على أن تنفِّذ قانون « الإقراض والتأجير » فمنطق تنفيذه يقتضى منها أن تسهر على وصول ما تصنعه من سلاح وعتاد بحكم هذا

القانون ، إلى بريطانيا أو غيرها من الدول التى يشملها . إذْ ما تجنى الولايات المتحدة من صنع السلاح و إباحته بغير ثمن ، إذا كانت بريطانيا لا تملك السفن الكافية لنقله ؟ أو إذا كانت تملك السفن، ولكنها لا تستطيع أن تقاوم الغوّاصات مقاومة وافية تمنع إغراق جانب كبير مما تأخذه من أميركا ؟ أى ماذا تجنى أميركا إذا صنعت السلاح ثم كان مصيره التكدُّس على الأرصفة أو الغرق فى قاع اليَمِّ ؟

فمنطق قانون « الإقراض والتأجير » كان مُفْضِياً حتماً ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى إلغاء نصوص قانون الحياد الخاصة بحَظْر النقل بسفن أميركية ، وبحَظْر دخول السفن الأميركية مناطق القتال ، والامتناع عن تسليح السفن التجارية الأميركية

فهل يُقْبِلُ الشعب الأميركىُّ على إلغاء هذه النصوص فى قانون الحياد ؟ أى هل فى الوسع إقناعه بقيام التناقض بين القانونين على رغم صَخَب أنصار العزلة ودُعاة حفظ السلام بالتشريع ؟

لم يستعجل روزڤلت الحوادث ، مع إدراكه أن العجلة لازمة . ولكنه ، وهو السياسىُّ المحنّك ، فضّل شيئاً من البطء على كثيرٍ من الانقسام الداخلى . ومع ذلك لم يقف مغلول اليدين .

فنى اليوم الثانى عشرمن شهر ابريل سنة ١٩٤١ كانت معركة شرقىِّ أفريقية قد أوْفَتْ على نهايتها ، إذا استثنينا بضع مناطق مقاومة باقية فى الحبشة ، فأصدر روزڤلت قراراً ، بما له من سلطة ، مؤدّاه أن البحر الأحمر لا يُعَدُّ بعد صدور القرار منطقة قتال أى أنه أباح للسفن الأميركية أن تدخله . وفى اليوم نفسه أعلن أن هَلْ اتفق مع وزير الدنمارك المفوّض على أن تتولى الولايات المتحدة حماية جزيرة جرينلندة ، مدى الحرب ، فأتاح هذا الاتفاق حماية إضافية لخطوط القوافل من الغرب إلى الشرق ، لأن الطائرات الأميركية المستندة إلى قواعد فى جرينلندة تستطيع أن تتولى مهمة الدوريات. وفى أواخر يونيو أعلن أن حكومة الولايات المتحدة قبلت دعوة حكومة اسلندة ،

واتفقت مع حكومة بريطانيا على إنزال قوة أميركية فى تلك الجزيرة المعدودة لازمة للدفاع عن العالم الجديد . وشاع بُعيد ذلك أن فريقاً من الفنيين وصل إلى إرلندة الشمالية « للعمل فى مشروع لازم للدفاع الأميركى »

ثم أخذت الحوادث تتوالى فى المحيط الأطلسى ، وهى حوادث إعتداء على السفن الأميركية الحربيـة والتجارية . وقد وصف روزفلت هذه الحوادث فى خطبته التى ألقاها يوم ١١ سبتمبر ١٩٤١ فقال : «إن وزارة البحرية أبلغته أن المدمرة الأميركية « جرير » كانت فى صباح اليوم الرابع من سبتمبر ماضية فى رائعة النهار صَوْبَ جزيرة اسلندة ، حاملةً بريداً أميركيًّا إلى تلك الجزيرة ، وكانت قد بلغت موقعاً إلى الجنوب الشرقى من جزيرة جرينلنـدة ، وكان عَلَمُها الأميركىُّ خفّاقاً ، وجنسيَّتها الأميركية بادية ، لاريب فيها ، فاعتدت عليها حينئذٍ غوّاصـة . وألمانيا تعترف بأنها كانت غواصة ألمانية . وقد أطلقت عليها قصداً طور بيداً أتبعت بهِ آخر . وبرغم ما لفقّه دُعاة هتلر ، وبرغم ما تفضِّـل أيةُ هيئةٍ معارضة أميركية أن تصدِّقه ، أقول لكم الحقيقة الصريحة ، وهى أن الغواصة الألمانيـة أطلقت النار أولاً على المدمرة الأميركية بغير إنذار ، وبقصد إغراقها .

« كانت مدمرتنا حينئذٍ فى مياه أعلنت الحـكومة الأميركية أنها مياهٌ ضرورية للدفاع عن النفس تحيط بمخافر أمامية أميركية لحماية المحيط الأطلسى . وقد أنشأنا فى شماليِّ المحيط الأطلسى مخافر فى اسلندة وجرينلندة ولبرادور ونيوفندلند . وفى هذه المياه تمخر سفنٌ كثيرة تخفق عليها أعلام كثيرة . وهى تنقل طعاماً وغيره من الموادِّ اللازمة للمدنيين . وهى تنقل موادَّ حربيـة تنفق الولايات المتحدة على صنعها ألُوف الملايين من الدولارات ، وهى موادُّ أقرَّ الكونغرس الاميركى رسميًّا أنهـا ضروريةٌ للدفاع عن بلدنا .

« فالمدمرة الأميركية كانت ، عند ما اعتدى عليها ، ماضيةً فى مهمة شرعية . فإذا

كانت المدمرة مرئية من الغواصة عند ما أطلق الطوربيد ، فالهجوم عليها كان محاولةً مُتعَمَّدةً من قِبَل النازى لإغراق سفينة حربية أميركية بادية الجنسية . وإذا كانت الغوّاصة غائصة تحت سطح البحر ، وتوسلت بأجهزة الصوت لإطلاق طوربيدها فى اتجاه صوت المدمّرة الأميركية ، بغير أن تُعْنَى بمعرفة جنسيَّتها ، كما يشير البلاغ الألمانى ، فالاعتداء كان أبعث على السخط والاستنكار . لأنه يدلُّ على خطّة عنفٍ تطبّق بغير تمييز على كل سفينة تمخر اليمّ ، محاربةً كانت أو غير محاربة .

« هذه قرصنة ، قرصنةٌ من الوجهتين : الشرعية والأدبية . وهذا الاعتداء لم يكن أول عمل قرصنةٍ عمدت إليه الحكومة النازية ضدَّ العَلَم الأميركى فى هذه الحرب ولن يكون آخرها فالهجوم تلا الهجوم » .

ومضى روزفلت على هذا المنوال يعدِّد حوادث الاعتداء على السفن الأميركية ، وهى الحوادث التى سبقت الاعتداء على المدمّرة « جرير » وبينها إغراق السفينة التجارية الأميركية « روبن مور » فى وسط المحيط الأطلسى الجنوبى ، والسفينة التجارية « سسا » الرافعة عَلَم جمهورية بناما ، والسفينة « ستيل سيفارر » الأميركية فى البحر الأحمر على مائتى ميل وعشرين ميلاً إلى الجنوب من السويس .

وخلص روزفلت من ذلك إلى القول بأن الاعتداء على المدمّرة « جرير » ليس عملاً حربيًّا منعزلاً عن غيره فى شمالى المحيط الأطلسى ، بل هو «خطوة مقصودة نحو إنشاءِ نظامٍ عالَمى قائم على القوّة والارهاب والقتل . . . إننا لعازمون على حفظ طرُق التجارة المشروعة مفتوحة فى مياهٍ لازمة لدفاعنا مهما يكلِّفنا الأمر . فنحن لم نسعَ إلى تبادل النار مع هتلر ، ولا نسعى إليه الآن . ولكن رغبتنا فى السلام لم تبلغ حدَّ الرضى بالسماح له بمهاجمة سفننا الحربية والتجارية بينما هى ماضية فى مهامِّها المشروعة . وإننى لأفرض أن الزعماء الألمان غير مهتمين الليلة ، ولا يهمُّهم ، فى وقت ما ، ما يقوله أو ينشره الاميركيون الأقحاح أو الحكومة الاميركية عنهم . وليس فى

وسعنا أن نهدم النازية بتبادل القذع عن بُعد . ولكن عند ما تشاهدون الحيَّة ذات الأجراس مُقْعِيَةً للانقضاض ، فإنكم لا تؤجِّلون ضَرْبها إلى ما بعد انقضاضها ، والغوّاصات والمغيرات الألمانية هى الحيّات ذوات الأجراس فى المحيط الأطلسى . »

ها هى ذى سنة ١٩١٧ تعود . ولكن صوت روزڤلت أقوى من صوت ولسن ، وحكمه أصدق . فهو لن يعتمد على تبادل المذكرات السياسية كما فعل سلفه ، لأنها على قوله « لا تجدى مطلقاً مع هؤلاء الخارجين على القانون الدولى الذين يغرقون سفننا ويقتلون أبناءنا » . وبعد ما أعاد موقف الولايات المتحدة التاريخى من مبدإ « حرية البحار » قال : « فإذا عزمنا على حماية البحار اللازمة للدفاع الأميركى ، فذلك ليس عملاً حربيًّا من جانبنا . إن الاعتداء ليس اعتداءنا . إنما نحن ندافع . ولْيَكُنْ هذا التحذير واضحاً . فإذا دخلتْ بعد الآن سفنٌ حربية ألمانية أو إيطالية مياهاً نعدُّ الدفاع عنها ضروريًّا للدفاع الأميركى ، فإنها تتحمل خطر فِعْلها. وبوصف كونى قائداً عامًّا لجيش الولايات المتحدة وأُسطولها أصدرتُ الأمر إليهما بتنفيذ هذه السياسة فى الحال . إن التبعة واقعة على ألمانيا وحدها ، فلن يكون هناك إطلاق نارٍ إلاَّ إذا مضت ألمانيا فى السعى إليه ... ولا يساورنى وهمٌ ما حيال خطر هذه الخطوة . وأنا لم أخْطُها فى تسرُّعٍ أو خفَّة . إنها نتيجة أشهرٍ وأشهر من التفكير المستمر والقلق والابتهال . فلا محيص عنها ، ولا مفرّ منها ، فى الدفاع عن أمَّتكم وأمتى » .

بعد هذا لم يكن بدٌّ من تجديد العناية بإلغاء قانون الحياد الأميركى ، أو نصوصه التى تتعارض وهذه السياسة .

كانت خطبة الرئيس هذه فى ١١ سبتمبر . وفى الحال أصدر الأمر إلى السفن الحربية الأميركية بالبحث عن الغوّاصة التى اعتدت على المدمرة « جرير » « وإزالتها » (eliminate it) أى القضاء عليها . وفى ١٨ سبتمبر أعلن وزير البحرية « نوكس » أن الأُسطول الأميركى كان يحمى القوافل إلى جزيرة اسلندة . وفى ٢٥ سبتمبر قدَّم

السناتور ما كلارن مشروعاً إلى مجلس الشيوخ بإلغاء قانون الحياد ، قائلاً ما قاله روزفلت عند ما وقعه على مضض : « إنه قد يكون أبعث على الحرب منه على منعها » . وأضاف ما كلارن : إنه خيرٌ للولايات المتحدة أن تشهر الحرب، وتتخذ خطة الهجوم . وطالت المناقشة فى هذا المشروع فى المجلسين ولجانهما المختصة ، وفى خلالها اعتُدِى على المدمِّرة الأميركية « كيرنى » وقُتل أحد عشر رجلاً من رجالها . وفى ٣١ اكتوبر أغرقت المدمِّرة الأميركية « روبين جيمز » ، وفى الأسبوع الأول من نوفمبر عُدِّل قانون الحياد ، فزال العائق التشريعىُّ دون تنفيذ قانون « الإقراض والتأجير » على الوجه الأوْفى .

— ٤ —

فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩٤١ سارت الحوادث سراعاً فى الشرق الأقصى منذرة بأزمة حادّة . وأشارت التقارير التى تلقّتها حكومة الولايات المتحدة إلى أن اليابان متجهة على الأرجح إلى الحرب . والواقع أن وزير البحرية الأميركية « نوكس » كان قد كتب فى ٢٤ يناير من سنة ١٩٤١ مذكرة أثبت فيها بُعْدَ نظره وصدق حديثه ، إذْ قال : « إذا نشبت حربٌ مع اليابان ، فالسائد أن القتال يستهلّ بهجوم مفاجئ على الاسطول أو القاعدة البحرية فى پيرْلْ هارْبَرْ . . . . . والأخطار المحتملة بحسب ترتيب شأنها واحتمالها هى : أولاً — هجومٌ جوىٌّ بقاذفات قنابل . وثانياً — هجوم جوىٌّ بقاذفات طوربيد » . فلما تولّى الجنرال توجو رآسة الوزارة فى اليابان أُنبِئ الأميرال كيمل Kimmel والجنرال شورت — وكانا قائدىْ القوّات البحرية والبرية فى پيرل هاربر — بجواز الهجوم عليها و « بوجوب اتخاذ الاحتياط اللازم » ثم توالى الإنذار فى إثر الإنذار. فى ١٤ نوفمبر أُمِرَا بأن يتيقظا « لحركةٍ معادية مفاجئة فى كل جهة من قبل اليابان » . وفى ١٧ نوفمبر تلقّيا رسالة من وشنطن

جاء فيها « إن هذه الرسالة يجب أن تُعَدَّ إنذاراً بالحرب . فالمتوقع أن تُقْدِم اليابان على عملٍ حربى فى خلال الأيام القليلة المقبلة » . ولكن اللجنة التى أُلِّفت للبحث فى شهر فبراير ١٩٤٢ وجدت « أن القائدين لم يعقدا اجتماعات غرضها بحث مغزى هذه التحذيرات . . . ولم يتعاونا فى تنسيق أعمال الدفاع » .

خلال ذلك كلِّه ، كانت الولايات المتحدة فى مشاورة مستمرة مع بريطانيا ، لأن الحكومة البريطانية نفسها كانت قد تلقّت من ممثّليها فى الشرق الأقصى ما يؤيد الإنذارات التى تلقّتها لولايات المتحدة . وأُعلن فى يوم ٩ نوفمبر أن روزڤلت وتشرتشل يُعِدَّان العُدَّة لعمل فى المحيط الهادى . وفى يوم ١١ نوفمبر — وهو يوم ذكرى هدنة ١٩١٨ — خطب الرئيس روزڤلت فى مقبرة ارلنغتون حيث دُفن الجندىُّ المجهول ، فقال : « إن الولايات المتحدة مستعدة أن تحارب ، مهما يفدح الثمن ، لتصون حرية الأمة » . ولسنا نعلم الآن ، هل كان روزڤلت يعلم ، عند ما فاه بهذه الكلمات ، أن السنة لا تُشْرف على ختامها حتى تكون الحرب قد فُرضت على الأُمة الأميركية . ولكنه من المحتمل الذى فى مرتبة اليقين ، أنه كان يتوقع عملاً من ناحية اليابان بغير أن يكون ضرورة موجَّهاً الى الولايات المتحدة ، وأنهُ إذا حدث فروزڤلت سيطلب من الكونغرس إعلان الحرب على اليابان . ومن المحتمل الذى فى مرتبة اليقين كذلك أن اليابان كانت تعلم هذا العزم من ناحيته ، فضربت الولايات المتحدة أولاً .

وفى اليوم الثانى من ديسمبر اجتمع روزڤلت بمستشاريه البحريين ، وكان ذلك على أثر رحلة إلى « وارم سبرنغز » فى جورجيا بدأها فى اليوم السابق ثم قطعها فجأةً ليعود إلى العاصمة . وفى مساء ذلك اليوم (٢ ديسمبر) طلبت الحكومة الأميركية إلى الحكومة اليابانية أن تفسر الباعث على تعزيز قوّتها المسلحة فى الهند الصينية فوق الحدود المتفق عليها فى الاتفاق المعقود مع فرنسا . على أن حدة الأزمة خفت قليلاً يوم ٤ ديسمبر عند ما أُذيع أن سابورو كوروسو ، وهو الرجل الذى أوفدته

الحكومة اليابانية خاصة لمشاركة الأميرال نومورا — السفير اليابانى فى وشنطن — فى المباحثات الدائرة ، تلقى أمراً من طوكيو بالمضى فى محادثاته مع روزفلت وهَلْ « قصدَ الاتفاق » . ولكن تأثير هذا الخبر أبطله خبر آخر ، وهو صدور الأمر إلى المعهد اليابانى والأندية اليابانية فى نيويورك بإيصاد أبوابها . وروي أن الرئيس قال فى حفلة عشاء : « ومَنْ يدرى فمن الممكن أن يكون أبناؤنا يحاربون دفاعاً عن المنشآت الأميركية عند ما يحين موعد عيد الشكر المقبل » . وكان يوما ٥ و ٦ ديسمبر يومى انتظار ردّ على مذكرة الرئيس روزفلت التى طلب فيها معلومات عن تحرك الجيوش اليابانية إلى الهند الصينية . وفى الوقت نفسه تلقت السفن التجارية الأميركية فى المحيط الهادى أمراً بالعودة الى أقرب مرفإ أميركى ، أو الى أقرب مرفإ تابع لدولة صديقة . وكانت السلطات الأميركية المسؤولة عن الدفاع عن الساحل الغربى متاهبة ، وظلت المصابيح مضيئة فى وزارتى الحربية والبحرية طوال الليل .

وفى ساعة متأخرة من ليل ٦ دسمبر ، وصل الاميرال نومورا وسابورو كوروسو إلى وزارة الخارجية حاملين ردّ طوكيو الرسمى على مذكرة الرئيس روزفلت فأخذ الوزير يقرؤها ، ولم ينجز قراءتها إلا بعد منتصف الليل ، وعندئذ التفت إلى اليابانيين وقال : « فى جميع محادثاتى معك ، يا أميرال ، خلال أشهر ، لم أنطق بكلمة كذب واحدة . ولكن ، فى كل حياتى العامة ، لم أرَ وثيقة أجمع للأكاذيب والأقوال المشوّهة من هذه الوثيقة ، حتى لأجدنى عاجزاً عن أن أتصور حكومة على سطح هذا السيار ، قادرة على التفوه بها » .

فوقف اليابانيان ، وظل هَلْ جالساً فى مقعده بغير أن يمد يده لمصافحتهما ، ثم أخذ قبعته ، واتجه إلى البيت الأبيض . وفى تلك الدقيقة ، كانت القاذفات اليابانية على سطح حاملة طائرات يابانية ، تدفىء محركاتها للهجوم على پيرل هاربر .

وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين سقطت القنابل الأولى ، وإذا الولايات المتحدة دولة محاربة .

فاتجهت الأنظار إلى فرنكلن دلانو روزفلت ، كما اتجهت إليه يوم ٤ مارس من سنة ١٩٣٣ عندما شُلَّت حياة الأُمة الاقتصادية والمالية ، واثقة بأنه الرجل الذى لايجزع فى المُلِمَّات . فلم يَخِبْ أملها عند ما سمعته يقول : « إننا الآن فى هذه الحرب . ونحن فيها إلى مداها. كلُّ رجلٍ، وكلُّ امرأة ، وكلُّ طفل ، شريكٌ فى أعظم عمل واجهته هذه الأمة فى تاريخها . وعلينا أن نشارك بعضنا بعضاً الأنباء السارَّة والأنباء السيِّئة على السواء . والأنباء إلى الآن كانت جميعها سيئة . والحكومة تضع ثقتها فى قدرة هذه الامة على مصابرة أعدائها . . . إننا سنربح هذه الحرب ، وسنربح كذلك ، السلام الذى يليها »

وقد انقضت سنة — عند كتابة هذه السطور — على قول روزفلت «سنربح الحرب» فما هو سجلهُ ، وسجلُّ حكومته وأُمته خلالها ؟ نعم إن تأريخ الحرب ليست المهمة الأولى التى اتخذها مؤلِّف هذا الكتاب على عاتقه ، ولكن أهم حوادثها خلال سنة ١٩٤٢ لا ينفصل عن قيادة روزفلت الحازمة الرشيدة للأُمة الأميركية . ولعلَّ خير تلخيص لهذه الحوادث مُنطَوٍ فى رسالته التى وجهها إلى مجلسى الكونغرس الأميركى بُعيد ظهر السابع من يناير سنة ١٩٤٣ . قال :

« إن أهمَّ وجوه التطوُّر الحربى فى سنة ١٩٤٢ كانت حوادث الميادين الشاسعة فى روسيا . فأولاً الدفاع المجيد عن ستالنجراد . وثانياً هجوم الجيوش الروسية فى مواقع مختلفة ، وقد بدأ فى نوفمبر ، وما فتىء مندفعاً إلى الأمام فى قوّة عظيمة ونجاح . أما الحوادث الأخرى الكبيرة خلال السنة الماضية فكانت : سلسلةَ انتصارات اليابانيين فى الفلبين وجزائر الهند الشرقية ومالايا وبورما . وصَدَّ اليابانيين فى وسط المحيط الهادى وفى جنوبيَّة وفى المحيط الهندى . والدفاعَ الموفق عن الشرق الأوسط بالهجوم البريطانى فى مصر ولوبيا ، والاحتلالَ الأميركى البريطانى لشمالى أفريقية . ومن الأعمال الحربية التى لها شأن خطير مستمرٌّ ، المعارك الدامية المستمرّة

فى سبيل طُرُق القوافل ، وانتقال التفوُّق الجوى انتقالاً متدرجاً من المحور إلى الدول المتحدة .

« إن دول المحور كانت تعلم أن عليها أن تكسب الحرب فى سنة ١٩٤٢ أو أن تخسر كلَّ شىء بعد ذلك . ولا أرانى فى حاجة إلى أن أُنبئكم بأن أعداءنا لم يكسبوا الحرب فى سنة ١٩٤٢

« ففى منطقة المحيط الهادى ، كان أكبر انتصار أحرزناه فى سنة ١٩٤٢ انتصارنا فى المعركة الجوية البحرية قرب جزيرة مدواى . وهذه المعركة ذات شأن تاريخى خطير ، لأنها أمَّنت استعمالنا لخطوط مواصلات تمتدُّ أُلوفاً من الأميال فى كل جهة . وإذا أنا أسندت هذا الشأن الخطير إلى معركة مدواى ، فإننى لست مغفلاً المعارك الموفقة الأخرى التى نشبت فى المحيط الهادى فى الجوِّ والبحر وعلى اليابسة ، وبوجهٍ خاص معارك بحر المرجان وغينية الجديدة وجزائر سليمان . ولكن هذه المعارك كانت دفاعية على الأكثر ، أى أنها كانت أجزاء من خطة حربية غرضها صدُّ العدو وتأخيره وهى الصفة التى غلبت على هذه المرحلة من الحرب .

« ففى هذه الفترة أنزلنا بالعدو خسارة مطردة — خسارة فادحة فى الطائرات وسفن الحرب وسفن النقل والشحن .

« فمن سنةٍ اتفق الرأى على أن مهمَّتنا الأولى فى الحرب فى المحيط الهادى ، هى أن ندمِّر ، يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، من الأسلحة ومواد الحرب اليابانية ما تعجز الصناعة اليابانية عن تعويضه . ومما لا ريب فيه أن سفننا الحربية وطائراتنا نهضت بهذه المهمة على أَوْفَى وجه . وجانبٌ كبير منها تولاّه الرجال البُسَّل الذين يعمرون غوَّاصاتنا ، فقد كانوا يضربون السفن اليابانية فى الجانب الآخر من المحيط حتى مدخل مرفأ يوكوهاما نفسه .

« وإننا لنعلم أن قوَّة اليابان فى السفن والطائرات ، تنقص يوماً بعد يوم ، وأن

قوّتنا فى السفن والطائرات تزداد يوماً بعد يوم . ففى وسعنا أن نضع النتيجة النهائية على أساسٍ رياضى . وسيتجلّى هذا للشعب اليابانى نفسه عند ما نقذف جزائرهم قذفاً مستمرًّا من الجوّ .

« وفى هجومنا على اليابان سيشترك معنا الشعب الصينىُّ الباسل ، وهو شعبٌ بين مُثُلِه السامية العليا ومُثُلنا شبهٌ عظيم . ونحن اليوم ننقل بالطائرات إلى الصين من موادّ الحرب — بحكم قانون الإقراض والتاجير — مقادير تماثل ما كان يُنقَل بطريق بورما . وهو ينقل فوق جبال ارتفاعها سبعة عشر ألف قدم ، وفى عواصف وأعاصير من الصقيع والجَمَد . وسنتغلب على جميع المشاقّ فى سبيل نقل العتاد الحربى إلى الصين ، اللازم لسحق قوّة عدوٍّ نالمشترك ، وعندئذ تستطيع الصين أن تخرج من هذه الحرب وقد حقّقت السلامة والرخاء والكرامة التى سعت اليابان إلى القضاء عليها بغير شفقة .

« إن فترة الدفاع المرهق لقوّة اليابان فى المحيط الهادى قد أوشكت أن تنتهى . وغرضنا الآن أن نقسر اليابان على المناجزة . ففى السنة الماضية صددنا اليابانيين . ونِيَّتنا فى هذه السنة أن نتقدم .

« أما فى ميدان الحرب الأوربى ، فقد كان واضحاً أن مهمّتنا الأولى خلال السنة الماضية ، أن نرفع بعض العبء العظيم الواقع على كاهل روسيا بحمل ألمانيا على تحويل جانب من قوّتها فى الرجال والسلاح إلى ميدان حربى آخر .

« وبعد انقضاء أشهر من التنظيم والتأهُّب فى الخفاء ، أقلعت حملةٌ برّيّة بحريةٌ كبيرة إلى شمالى أفريقية الفرنسى من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة (بريطانيا) فى مئات من السفن . وقد بلغت أهدافها ولم تُصَبْ إلاّ بخسارة يسيرة جدًّا ، وقد كان لها حتى الآن أثر عظيم فى الحالة الحربية العامة . فقد كشفت — على حدّ قول المستر تشرتشل — « بطن المحور الأسفل » للهجوم ، وأزالت الخطر الماثل أبداً

الناشىء عن هجوم المحور من غربى أفريقية على المحيط الأطلسى الجنوبى وقارّة أميركا الجنوبية نفسها .

« أما هجوم الجيش الثامن فى مصر ، وهو الهجوم الذى أحكم توقيته ، وبهر تنفيذه ، فيجب أن يُعَدَّ جزءاً من الخطة الحربية الكبيرة التى وضعتها الدول المتحدة .

« وقد حال المطر الهطول والوحل وقِلّة أسباب المواصلات دون نشوب المعارك النهائية فى تونس حتى الآن . والمحور يعزّز مواقعه هناك . ولكننى واثقٌ بأنه على رغم شدّة القتال المنتظَر عند ما نهجم هجومنا الأخير ، ستُطرد بقية قوّة المحور من السواحل الجنوبية للبحر المتوسط .

« إن كل مراجعة لسنة ١٩٤٢ يجب أن تشمل عظم الأعمال الحربية التى اشتركت فيها هذه الأمة ، وتعدُّد وجوهها . فالقوات الأميركية التى خارج القارّة الأميركية الآن ، وأنا أخاطبكم ، تبلغ مليوناً ونصف مليون من الجنود والبحّارة والطيّارين . وبحّارة أُسطولنا التجارى ينقلون السلاح والعتاد إلى حلفائنا سالكين جميع البحار .

« ويندر بين الأميركيين مَنْ يدرك النموَّ الباهر فى قوّتنا الجوية ، ولكنني واثقٌ بأن عدوّنا يعلم ذلك . فقوّاتنا الجوية تُغير يوماً بعد يوم على العدوِّ ، وتقاتله فى شتى ساحات الحرب العالمية . ولْيَعْلَمْ كلُّ من ساوره شكٌّ فى إتقان طائراتنا وقُدرة طيارينا ، أننا نكبِّد العدوَّ خسارة طائرتين مقابل كل طائرة نخسرها ، وأن خسارة العدوِّ فى المحيط الهادى وجنوبيه الغربى تبلغ أربع طائرات مقابل كل طائرة نخسرها .

« قبل سنةٍ عيَّنا أهدافاً لإنتاجنا الحربى خلال سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣ فذهب الظنُّ ببعض الناس ، ومنهم خبراء ، إلى أننا استخرجنا من قبَّعةٍ (كما يفعل

الحُواة) أرقاماً كبيرة لنهوِّل بها على المحور . ولـكننا كنا واثقين بقدرة شعبنا على الفوز بنتائج لا تُجارَى . وقد كانت ثقتنا فى محلِّها .

« وكان من الطبعى أن يطرأ بعض التغيير عل هذه الأهداف فيزاد بعضها ، ويخفّض بعضها ، ويُحذف بعضٌ آخر ، ويحلّ محلّه أهدافٌ جديدة . ولم يكن مفرٌّ من هذا ، وفقاً لما تسفر عنه التجارب فى الميادين ، ولارتقاء العلم والصناعة .

« نعم إن ما صنعناه فى سنة ١٩٤٢ من الطائرات والدبابات كان أقل عدداً من الأهداف التى رسمناها فى أول السنة . ومع ذلك ، هناك أسباب كثيرة تحملنا على الفخار بما صنعنا . فقد صنعنا ٤٨ ألف طائرة حربية ، وهذا يفوق ما صُنع من الطائرات فى ألمانيا وإيطاليا واليابان مجتمعة . وفى دسمبر الماضى (١٩٤٢) صنعنا خمسة آلاف وخمسمائة طائرة حربية ، والمعدّل يزداد ازدياداً سريعاً . ويضاف إلى ما تقدم أن الطائرات التى نصنعها تطرد زيادة على المعدَّل ، فى وزنها وقوتها وعدد ساعات العمل اللازمة لصنعها .

« وقد عدلنا برنامج إنتاج الدبابات لأسباب كافية . فتجارب القتال قد حملتنا على تحويل جانب من قدرتنا على إنتاج الدبابات إلى زيادة ما نصنعه من أسلحة الميدان ولاسيما المدافع السيارة .

« وإليكم بعض أرقام الإنتاج الحربى غير تقدم :

« صنعنا فى سنة ١٩٤٢ ستة وخمسين ألف (٥٦٠٠٠) مركبة قتال مثل الدبابات والمدافع السيارة . وصنعنا ٦٧٠٠٠٠ مدفع رشاش ، وهو يفوق ما صنعناه من المدافع الرشاشة فى سنة ١٩٤١ ستة أضعاف ، ويفوق ما صنعناه منها فى خلال ثمانية عشر شهراً ، وهى مدة اشتراكنا فى الحرب العالمية الأولى ، ثلاثة أضعاف . وصنعنا ٢٠ ألف مدفع مضاد للدبابات ، وهو يفوق ستة أضعاف ما صنعناه منها فى سنة ١٩٤١ . وصنعنا عشرة بلايين وربع بليون قذيفة نارية للأسلحة الصغيرة ، وهو خمسة

أضعاف ما صنعناه منها فى سنةونصف سنة خلال الحرب العالمية الأولى . وصنعنا ١٨١ مليون قنبلة للمدافع ، وهو يفوق ما صنعناه منها سنة ١٩٤١ اثنى عشر ضعفاً ، وما صنعناه منها فى الحرب العالمية الأولى عشرة أضعاف .

« إن ترسانة الدمقراطية أثبتت وجودها .

« ويخيل إلىّ أن هتلر وتوجو سيشق عليهما أن يفسرا للشعبين الألمانى واليابانى ، كيف تستطيع الدمقراطيات « المنحطة الخائرة القوى » أن تصنع هذه المقادير الهائلة من السلاح والعتاد والمقاتلين »[1]

— ٥ —

فى خلال يوم واحد من أيام شهر مارس سنة ١٩٣٣ حدث حادثان كان لهما أعظم شأن فى التاريخ الحديث . فبعيد ظهر الرابع من شهر مارس فى تلك السنة نصّب فرنكان دلانو روزفلت رئيساً للولايات المتحدة . وقبيل منتصف ليل الخامس من ذلك الشهر أقرّ الريخستاج « قانون التمكين » Enabling Act الذى وضع فى يدى المستشار أدولف هتلر زمام السلطان المطلق فى ألمانيا . وانقضت ثمانى سنوات ، فإذا الرجلان يقابل أحدهما الآخر ، وكل منهما رمز لطريقة من الحياة والاجتماع . ولكن الطريقتين متناقضتان والعالم لا يتسع لكليهما معاً .

لم يكن فى وسع أحد أن يتبين فى سنة ١٩٣٣ هذه الصلة بين الرجلين . ولكن يندر الآن من لا يرى أنهُ لا بد لأحدهما من أن يقهر الآخر . وقد قال هتلر فى إحدى خطبه إن نتيجة الصراع بين النظامين ستقرر مصير العالم مدى ألف سنة من الزمان ، والغالب أنهُ لم يغال فيما قال

(١) اعترف روزفلت فى مؤتمره الصحفى بعيد تلاوة الرسالة بأنه نسى الاشارة إلى ما أنجزته دور الصنعة الأميركية من سفن النقل فى سنة ١٩٤٢ وأن حمولتها ثمانية ملايين وتسعون ألفاً من الأطنان . وهذا عدا ما صنع من سفن الحرب .

وإذا كنا قد اخترنا روزڤلت ممثلاً لطريقة الحياة التى تؤثرها الشعوب الدمقراطية ، فليس سبب ذلك أنه أراد أن يكون هذا الممثل ، ولا لأنهُ يفوق غيره من زعماء هذه الشعوب . فالرجل الذى أنقذ بريطانيا فى ساعة الخطر والبلوى ، متصف فى ذهنه وخلقهِ بصفات ، تؤهلهُ للصدارة ، ولا يجوز وضعهُ فى مكان دونها . ولكن الموارد التى من وراء روزڤلت هى التى تضعهُ فى المقام الأول . فليس فى متناول تشرتشل خمسة وعشرون مليوناً من الرجال فى سن الخدمة العسكرية . ولا دخل قومى سنوى يبلغ مائة ألف مليون من الريالات أو أكثر . ولا صناعة تقرب من صناعة الولايات المتحدة فى اتساع نطاقها ومدى انتاجها . ولا ثلاثمائة وتسعة وخمسون مليوناً من الأفدنة المنزرعة . فالاحتياطىُّ الأكبر والأخير الذى تعتمد عليهِ الشعوب الحرة إنما هو موارد الولايات المتحدة ، وفرنكلن روزڤلت هو رئيس جمهوريتها وقائدها العام

ثم هناك صفة أخرى تجعل روزڤلت القطب البارز فى صفوف الشعوب الدمقراطية . إنهُ يشارك هتلر فى الصفة التى جعلت هتلر قويًّا عزيزاً . ذلك بأن اسمهُ مرادف فى أذهان الجماهير للاسلوب الحىّ الفعّال ، دون الأسلوب الجامد المستقرّ ، فى نظم الحكم . أن تشرتشل محافظ . وهذا لا يعنى أنهُ أضعف إيماناً بالحرية الإنسانية وأوهى قوة فى النضال والكفاح لصونها . ولكنهُ يعنى أن همهُ الأكبر كان دائماً الاحتفاظ بخير ما ورثناه من الماضى . يقابل هذا أن الثورة على مساوىء الماضى ، بصرف النظر عما فيهِ من خير ، هى التى رفعت هتلر فى ألمانيا وروزڤلت فى الولايات المتحدة إلى مقام السلطان . والجماهير التى ثارت لا تقرن انتصار روزڤلت فى هذا النضال العالمى بالعودة إلى الحالة السابقة (والواقع الذى لا بدّ من الاعتراف به هو أن ظفر تشرتشل لا يعنى هذه العودة لأن الحالة القديمة قد انهارت وليس بعثُها بالمستطاع) . ولكن روزڤلت مشهورٌ بأنهُ لا يرغب فى بعثٍ من هذا القبيل ،



الرئيس روزفلت يوقع وثيقة إعلان الحرب على اليابان

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

والعالم قاطبة يدرك هـذا . ولذلك لا يستطيع أحد أن يدمغ حركة يتولى قيادتها ، بأنها حركة رجعية

واذا كان فى شؤون الناس شىء يوثق به ، فهو أن روزڤلت لم يتصور عند ما انتخب سنة ١٩٣٢ ونصّب سنة ١٩٣٣ ، الحالة التى يتولى فيها هذه الزعامة العالمية . نعم كان قد أعد خططاً لأمته واسعة النطاق بعيدة المرامى . ولكن السلام لا بد منه لتحقيق خطط من هذا القبيل ، لأن مدارها وغرضها الملاءمة بين النظام الاقتصادى القائم وحاجة الشعب . وهذا عمل لا تنجزه المدافع ولا الدبابات ولا طائرات القتال

وهذا القول لا يعنى أن روزڤلت لم يدرك خطر نشوب حرب — قد تكون عالمية — قبل عشر سنوات . فهو رجل متقد الذهن واسع الاطلاع ، وكل من كان فوق المتوسط من رجال الفكر والعمل ، كان يدرك احتمال نشوب الحرب . ولكن الرئيس كالكثرة الأميركية ، كان يأبى أن يأخذ بالحرب أداة للسياسة القومية. فقد كان يعى احتمالها ، ولكنهُ كان يعدُّها شرًّا يجب اجتنابه ، لا فرصة يجب اغتنامها والتأهب لذلك

ومن المرجح أن هتلر نفسه لم ينوِ أن يواجه روزڤلت فى الحالة التى يواجهه فيها الآن . والغالب أن هتلر كان مقتنعاً بأنهُ يستطيع هزم بريطانيا ، بالأسلحة السيكولوجية ، ثم يواجه روزڤلت ، أو مَن يكون رئيساً للولايات المتحدة ، وقد اجتمعت قوة أوربا بين يديه . لأن القضاء على الحكومة الشعبية الحرة فى الولايات المتحدة أمر لا مفرَّ منه لتحقيق كل خطة غرضها السيادة العالمية ، والمرجح أن ذلك كان قائماً فى ذهن هتلر منذ الساعة الأولى

ومع ذلك كان موقف أحد الرجلين فى مارس سنة ١٩٣٣ مماثلاً لموقف الآخر . كلاهما ارتقى على موجة من البرم بالحالة القائمة ، وكلاهما تسلم زمام دولة كانت من الوجهة الاقتصادية على شفا الانهيار، ومن الوجهة الاجتماعية فى حالة اضطراب . وكلاهما

واجه مشكلة كبيرة معقدة وهى تدبير عمل لملايين من المتعطلين عن العمل و بث روح الحياة والإقدام فى شعب تطرقت اليه معانى التراخى والقنوط . وفى الحالين لم يكن الشعب الاميركى ولا الشعب الألمانى مسيَّراً بالحماسة للزعيم الجديد قدر ما هو مسير بالبرم بالحالة القائمة . ولذلك منح كل منهما سلطة مطلقة لتدبير الحال

* * *

إن حق الشيخ أو الملك فى الفوز بولاء القبيلة أو الشعب لهُ ، كان قائماً فى جميع عصور التاريخ على قدرته على حماية رعيته وتجنيبها أخطاراً لا تستطيع أن تتجنبها وحدها . فالطبيعة البشرية لم تتغير على كرّ القرون . ولكن ما تغير إنما هو العدو الذى يراد اجتناب خطره . إن خوف الناس قديماً من لصوص مسلحين بأسلحة تُرى وتخشى ، قد تحوَّل فى العصر الحديث ، ولا سيما بعد الثورة الصناعية ، خوفاً من نظم اقتصادية تخشى أساليبها وان كانت لا ترى . فالموت جوعاً لا يزال الموت جوعاً ، سواء أبالسلب والنهب كان الجوع ، أم بالانهيار الاقتصادى والتعطل عن العمل . والحكومة التى تعجز عن منع الجوع الناشىء عن الاضطراب والانهيار والأزمات الاقتصادية ، هى حكومة لا تستطيع أن تفوز بثقة الشعب وولائهِ

نعم إن الحكومة ليست مُلزمة أن تدبر لكل رجل رزقهُ ، ولكنها مدينة له بحماية حياتهِ . وهى تعترف ضمناً بهذا الدين عند ما تطلب منه وتتوقع ولاءه لها وتأييده إياها . ولم تنكر حكومة ما هذا الاعتراف . وتاريخ البشر يدل على أن الناس ينطلقون من قيود الولاء لحكومة ما عند ما تعجز هذه الحكومة عن صون حياة الناس . وفى سنة ١٩٣٣ كان فى الولايات المتحدة وألمانيا ملايين من الناس مهددين بالعوز والفاقة لأن الحكومة كانت لا تقدر أو لا تجرؤ على حمايتهم من قوى اقتصادية تطغى عليهم ، فبدرت بوادر التمرد على الحكومة والنظام القائم فى البلدين . ولم يكن هذا شيئاً جديداً فى تاريخ الاجتماع لا سابقة له . بل كان شيئاً طبيعيًّا وله سوابق كثيرة

ومع ذلك كان ينطوى على خطر ، لأن الشعب إذا ثار وكان بغير قيادة ترشده أو توجهه سواء السبيل ، أو كانت قيادته لا تقيم وزناً للحقائق الانسانية العليا ، ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، بين الوطنية والخيانة ، بين الاحسان والجشع ، فعندئذ قد تطغى الحركة الشعبية النابعة من قرارة الحياة نفسها ، فيتعذر صدها أو توجيهها . ولا توجَّه سواء السبيل ، إلا إذا كان المرشد الجديد ، سياسيًّا حكيماً

ولعل أعظم ظفر أسفرت عنه عبقرية الشعب الأميركى فى الحكم الذاتى ، هو أن الشعب التفت فى الأزمة التى أناخت عليهِ ، فى العقد الرابع من هذا القرن ، إلى رجل من صميم الحياة الأميركية ، مشبع بروحها ، مؤمن بتقاليدها . أما الشعب الألمانى فالتفت إلى أجنبى ، قليلاً ما يعرف عن عظمة ألمانيا الحقيقية ، وما يعرفه عنها مرذول عنده ومحقّر . ولعلّ الألمان كانوا أقرب إلى المنطق من الأميركيين ، لأنهُ ما دام النظام القديم قد انهار ، فالمنطق يقضى بأن يكون الرجل الذى يرشد إلى النظام الجديد ، بعيداً أبعد البعد عن النظام القديم . ومع أن النظام القديم فى أميركا كان قد اختلَّ وسقطت هيبتهُ ، أصغى الشعب الأميركى إلى صوت القائد الجديد وهو يقول : إن قواعد النظام سليمة ، وتطبيقها تطبيقاً فعالاً مستطاع إذا عمدنا إلى أساليب جديدة

وما إن تقلد الرجلان زمام الحكم حتى بدأ طريق أحدهما ينفرج عن طريق الآخر . ولعل الفرق الأساسى فى فلسفتهما السياسية ، هو أن روزفلت يذهب إلى أن الخراب الذى كانت تحيط به أنقاضه مردُّه إلى الغباوة . بينما هتلر يقول إن مرده إلى الجريمة . فروزفلت كان يعتقد أن الثروة فى أميركا بُذّرت فضاعت ، وهتلر كان يعتقد أن الثروة فى ألمانيا قد نهبت . فلذلك كان « الإنعاش » غرض الأول ، و « الاسترداد بالقوة » غرض الثانى . فقال الأول لشعبه « لننتج » . وقال الثانى لشعبه « لنأخذ »

ولكنهما اتفقا على أن قداسة الملكية الفردية ليست مطلقة مقدسة فى ذاتها ، بل هى قائمة على سلامة الأمة . ولذلك لم يحجم أحدهما عن إنفاق مبالغ طائلة فى سبيل توطيد سلامة الأمة . فلم تجىء سنة ١٩٣٩ حتى كان روزفلت قد أنفق أربعين الف مليون ريال ، علاوة على نفقات الحكومة والإدارة العادية . أما هتلر فقد أنفق مبلغاً ليس فى الوسع معرفته على وجه التحقيق ، لأن الحكومة الألمانية النازية لا تقدم حساباً عن نفقاتها ، ولكن يُظن أنه يبلغ تسعين الف مليون ريال

أما روزفلت فقد أنفق معظم هذا المال على الطرق والجسور والسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربية ونزح البطائح وتحريج الأراضى البور . وأما هتلر فأنفق معظم المال على السلاح . وقد كان الفرق بين وجهىْ الانفاق ، نتيجة طبيعية للفرق الأساسى بين أغراض الرجلين . فروزفلت غرضه بسط رواق الرخاء الذى انهدم أو تداعى ، فتوسل إلى ذلك بإنشاء الأسباب التى تلد الثروة . وهتلر غرضه بسط رواق الرخاء بنزع الثروة من الدول الأخرى . ولو أن حكيماً عالماً بالغيب تصوّر ما يكون مصير العالم بعد ثمانى سنوات ، لكان أشار على روزفلت بأن ينفق هذا المال على صنع السلاح !

وليس ثمة ريب فى أن هتلر ، بعد ما تمادى فى طريقته ، فرضها على سائر العالم . فليس فى وسع أمة ، فى العالم الحديث ، أن تنفق جانباً كبيراً من نشاطها ومعظم ثروتها فى سبيل تحقيق خطط السلام ، بينما تبذل دولة كبيرة أخرى كل ذرة من نشاطها فى التأهب للحرب

والرأى الغالب بين جماعات كثيرة من الناس أن ما صنعه روزفلت دليل على ضعف أصيل فى النظام الدمقراطى . ولكننا لا نرى أين هو هذا الضعف . إنه فى الواقع ضعف كل أمة على الإطلاق ، سواء أدمقراطية كانت أم غير دمقراطية ،

إذا كانت القاعدة التى تقيم عليها صرح اجتماعها هى قاعدة السعى إلى تحقيق الحياة الوافرة لكل فرد من أفراد الشعب . فالسلام لا بدّ منه لتوفير العيش الرخىّ وقدر معقول من الحرية فى نطاق القانون ، يتيحان للمرء أن يتمتع بما وصفه روزفلت فى إحدى خطبه « بالحريات الأربع »

والدولة التى قاعدتها هـذه الرغبة لا تستطيع ولا يجوز لها ، أن تخفض مستوى العيش ، وتنكر على الناس حرية الاجتماع والرأى والعقيدة ، وتجعلهم أصفاراً فى حساب الإنسانية ، لكى تكدّس السلاح بقصد استعباد الأمم الأخرى

ويذهب فريق من الناس إلى أن هتلر كان فى طريقة إنفاقه المال رجلاً آخذاً بأسباب الواقع ، وروزفلت رجلاً متعلقاً بأهداب الوهم والخيال والنزعة الكمالية . فالذين يرون هذا الرأى ، هم دعاة الهزيمة الخلقية فى نضال البشر . وقولهم هذا يصحُّ أن يؤخذ حجة عليهم بأنهم نزلوا عن كل مبدإ من مبادىء الفلسفة السياسية الأميركية التى من أجلها قامت حرب الاستقلال وعلى أساسها وضعت نصوص الدستور وفى سبيل صونها نشبت الحرب الأهلية وخاضت أميركا الحرب العالمية الأولى

لأنهُ إذا كان الناس لا يؤمنون بأنهُ فى وسعهم الآن وفى المستقبل أن يدبروا شؤونهم تدبيراً قائماً على الفهم وخدمة المصلحة العامة — مهما يكن ذلك على وجهه الأكمل بعيـد المنال — فقد انهارت مبادىء الدستور وهى فى صميمها ضمان « حق الحياة والحرية ونشدان السعادة »

وليس فى منطق الاجتماع البشرى ما يجعل هذا مستحيلاً . نعم قد تكون الغرائز الوحشية متغلبة على تركيبنا العقلى والأدبى ، وقد يكون الغباء ملازماً للجماعات الانسانية الكبيرة ، وقد تعوزنا دائماً القدرة على الحكم الذاتى ، ولكن قواعد الدستور الأميركى ، وسائر الدساتير الدمقراطية الحديثة ، تنكر هذا العجز ، وكل من يتولى منصباً فى دولة دمقراطية يجب أن يكون مؤمناً بأن الحكم الذاتى ممكن ، وأن الحرية

مثل عال بعيد ولكن الاقتراب منهُ مستطاع ، وأن رفع المستوى الثقافى للجماهير رفعاً مستمرًّا فى المتناول ، وأن فى قدرة الناس أن يدنوا ، مهما تطل الطريق وتتوعر ، من العدل فى المجتمع

وإذن فعلى رئيس دولة تسلم بهذه المبادىء ، كرئيس الجمهورية الأميركيـة ، أن يبنى سياسته عليها وينسج ثوبها من خيوطها . وإذا بني سياسته على قواعد مناقضة لهذه القواعد ، فقد أنكر التراث الإنسـانى العالى ، ولاريب فى أنه يلقى من مقاومة شعبه ، ما يرده أو يسقطه . ولكن إذا واجهت الأمة الدمقراطية خطراً أصيلاً يهدد كيانها من قبل دولة لا تسلم الاّ بالقوة والبطش وتبنى سياستها عليهما ، فعليها حينئذٍ ان تعبىء كل قوتها للدفاع عن كيانها

وليس ثمة ريب فى أن روزفلت استشفّ فى سنة ١٩٣٣ احتمال نشوب حرب ولو وجه كلّ نشاط أميركا إلى التأهب لحرب لم يكن فى وسـع الشعب أن يرى احتمالها حينئذ ، لما كان أميركيًّا صميماً ، ولربما — وهو المرجَّح — عجز عن الفوز بموافقة ممثلى الشعب

* * *

وعلى كل حال فاليوم الذى اعتدى فيه هتلر على بولندا ، كان حاسماً . فالمسألة التى واجهت الشعب الأميركى يومهـا ، لم تكن طريقة روزفلت فى إصـلاح النظام الاقتصادى والاجتماعى ، بل المحافظـة على الكيان . ذلك بأن خطر الهمجية أصبح مكتوباً فى عرض الفضاء الدولى بحروف كبار . وكان لابد من ذلك اليوم أن يحشد روزفلت فكر الأمة الأميركية ونشاطها ومالها ، لتعزيز أسـباب الدفاع الوطنى . فالتوزيع الجديد خطة تطبق أو يحاول تطبيقها فى أثناء السلام . وهى مثار خلاف عنيف بين الأحزاب والطبقات . والشغل الشاغل للأذهان الآن هو الحرب والدفاع القومى ، وهو فوق الأحزاب والطبقات ، وقد اعترف روزفلت حالاً بهـذه الحقيقة

عندما عين — وهو زعيم الحزب الدمقراطى — قطبين من أقطاب الحزب الجمهورى لوزارتى الحربية (هنرى ستمسون) والبحرية (فرنك نوكس) وكذلك رشح للمكتب المشرف على الانتاج الحربى رجالاً لم يكونوا من أنصار التوزيع الجديد بل ولم يكونوا من الدمقراطيين

وقد كسب هتلر الشوط الأول فى هذا النضال ضد خصمه ، أى أنه اضطر خصمه إلى الأخذ ببعض الأساليب الحكومية التى ما فتىء هتلر يطبقها — ولكن بغير هوادة. وحمله على تغيير سيره واتباع المانيا ، أى تحويل نشاط أميركا الفكرى والاقتصادى والعاطفى من السعى وراء تحقيق أغراض السلام إلى السعى وراء انشاء قوة عسكرية لا تضاهى .

وقد يحمل التشاؤم بعضهم على القول بأن روزفلت لم يخسر شوطاً واحداً لاغير ، بل خسر معركة كبيرة . وعندهم أن إنفاق أربعين ألف مليون من الدولارات فى السبل التى أنفقها فيها ، أضعف الأمة الأميركية ، ولو أنفقت فى سبيل الحرب لكانت أميركا الآن أعزّ يداً مما هى فى هذا النضال العالمى الرهيب

إن هذا القول يتجاهل ثلاث حقائق : أولا — ان الأمم الدمقراطية بطبيعة مبادئها ونظرتها وطريقتها فى الحياة لا تستطيع أن تفرض الحرب وتتأهب لها قبل أن يتلبد جوُّ حياتها بغيوم أخطارها . وثانياً — إن كثرة الشعب الأميركى ، وافقت مرتين ، مرة سنة ١٩٣٦ ومرة سنة ١٩٤٠ على سياسة روزفلت واتجاهها . وثالثاً — إذا كان القضاء على قوة هتلر المسلحة التى تهدّد الكيان الذى تمثله أميركا والأغراض التى تسعى إلى تحقيقها ، أمراً لازماً فألزم منهُ القضاء على الأفكار والمبادىء التى من وراء قوة هتلر المسلحة ، إذا شئنا أن يتمتع العالم بالسلام عهداً ما . وروزفلت بأسلوبه فى « التوزيع الجديد » حمل كثرة الأميركيين على الاعتقاد ، بأن النظام الدمقراطى يمكن تطبيقه تطبيقاً يقى الرجل المتوسط — سواء أصح هذا الاعتقاد أم لم يصح — .

وهذا الاعتقاد هو خير واق للشعب من خطر العدوى ، بقول مَن يقول إن حياة الشعوب لا تستقيم إلاَّ على أساس «سلطان الزعيم» ومبدأ « عنصر الأسياد » و«حماية الدم » وغيرها من الآراء الفجة التى أغدقتها المانيا على العالم فى السنوات الأخيرة

إن الملايين الكثيرة التى أيدت روزفلت فى الانتخابات المتوالية ، قد يخيب أملها فى ما تعلقه بالدمقراطية الأميركية ومستقبلها الاجتماعى والاقتصادى من رجاء . ولكن سياسة الاصلاح التى درج عليها روزفلت فى السنوات الست الأولى من رآسته أنعشت رجاءها وعززت إيمانها بهذا النظام . فهى ، والرجاء يحدوها ، ينبض فيها كل عرق للدفاع عنه . وعلى ذلك يصح أن نقول إن السنوات الست التى أنفق فيها روزفلت ألوف الملايين من الدولارات لبناء الجسور بدلاً من صنع المدافع ، والمدارس ومحطات توليد الطاقة بدلاً من الطائرات والبوارج — كانت سنوات تسليح — ولكنه تسليح أدبى ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن نجد ملايين كثيرة لا تعتقد أن فى أميركا نظاماً وحكومة ، يستحقان سفك الدماء لحفظهما

***

قد يتعذَّر على الباحث الآن أنْ يصف العالمَ المرتجى بعد ظفَر الدول المتحدة . ولكنْ لا يتعذَّر عليه أن يشير إلى قواعده كما يريدها روزفلت أن تكون . أما هل تحقّق برمتها ، أو يحقّق بعضها ولا يحقق البعض الآخر ، أو لا تحقق مطلقاً ، ففى طىّ الغيب . على أنَّ الأمر الذى لا ريب فيه ، هو أنَّ روزفلت وضع قواعد خليقة بأن يتكاتف أقطاب الشعوب على تحقيقها . وهذه القواعد تفيض من ينبوع قلبهِ وفكرهِ معاً ، وتستند إلى منطق حياته السياسية ولا سيما فى الخمس عشرة سنة الأخيرة . ثم إنه عهد إلى هيئات من رجال العلم والاقتصاد والاجتماع والسياسة ، فى بحث هذه القواعد بحثاً مفصلا وإعداد الخطط العملية لتطبيقها . وهذا البحث ليس مقتصراً على أقطاب الأميركيين ، بل يساوقه ويجاريه ويتصل به بحثٌ يتولّاهُ أقطاب بريطانيا ، فى نطاق المبادىء العامَّة المسلَّم بها على جانبى المحيط الأطلسى .

فى الرسالة التى وجهها روزفلت إلى مجلسى الكونغرس يوم ٦ يناير ١٩٤١ قال :

« لنقُلْ للأمم الدمقراطية ، إن اهتمامنا بدفاعكم عن الحرية اهتمام حيوىٌّ . و إننا نعبىء قوتنا ومواردنا وقدرتنا على التنظيم لتعزيز قدرتكم على تحرير العالم ، والاحتفاظ به حرًّا . وسنرسل إليكم ، فى أعداد مطردة زيادةً ، سفناً وطائرات ودبابات ومدافع . هذا هو قصدنا ، وهذا هو عهدنا .

« وفى تحقيق هذا القصد ، لن يرهبنا تهديد الطغاة ، بأنهم سيعدُّون معونتنا للدمقراطيات التى تجرؤ على مقاومة الاعتداء ، انتهاكاً للقانون الدولى وعملاً حربيًّا . إن هذه المعونة ليست عملاً حربيًّا ، حتى ولو أعلن الطاغى ، من جانبه وحده ، أنها كذلك .

« وعند ما تقتضى الحالة من الطغاة ، أن يشنُّوا حرباً علينا ، فإنهم لن ينتظروا عملاً حربيًّا من جانبنا . إنهم لم ينتظروا عملاً من هذا القبيل من جانب النرويج أو بلجيكا أو هولندا .

« وفى الأيام المقبلة ، التى ننوى أن نحيطها بكل ضمان ، نتوقع أن يقوم العالم على أربع حريات إنسانية أساسية :

أولاً — حرية الكلام والتعبير — فى كل بقعة من بقاع الأرض .

ثانياً — حرية كل امرىء فى عبادة الله على طريقته الخاصة — فى كل بقعة من بقاع الأرض .

ثالثاً — التحرُّر من ربقة العوز ، وهو إذا أفرغ فى عبارات السياسة الدولية كان معناهُ عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لأبناء كل أمة عيشةً راضية — فى كل بقعة من بقاع الأرض .

رابعاً — التحرّر من الخوف ، وهو إذا أفرغ فى عبارات السياسة الدولية كان معناهُ خفض السلاح خفضاً عالميًّا واسع النطاق حتى يستحيل على أمة ما أن تعتدى على جارة لها — فى كل بقعةٍ من بقاع الأرض .

وختم رسالتهُ بقولهِ :

« إن هذه الأمة قد وضعت مصيرها فى أيدى الملايين من رجالها ونسائها الأحرار وفى عقولهم وقلوبهم ، وفى إيمانها بالحرية و إرشاد الله . إن الحرية تعنى سلطان الحقوق الانسانية فى كل مكان . فتأييدنا مبذول لأولئك الذين يكافحون فى سبيل كسب هذه الحقوق والمحافظة عليها . و إن قوتنا لفى وحدة قصدنا . ولا سبيل إلى تحقيق هذا المقصد العالى إلاَّ الظفر » .

وفى أوائل أغسطس من سنة ١٩٤١ سرى تسآلٌ ملحٌّ فى دوائر بريطانيا والولايات المتحدة : أين روزڤلت ؟ أين تشرتشل؟ أما الأول فقيل إنهُ ذهب فى رحلة قصيرة للصيد ، على سواحل الولايات الشمالية الغربية (نيوانجلند) . ولكنَّ الصحفيين لم يصحبوهُ فى هذه الرحلة ، وقد جرت العادة بأن يصحبوهُ فى الرحلات السابقة . وأما الثانى فقد انقضت أيام لم يظهر خلالها فى مجلس النوَّاب ، وأتلى ينوب عنهُ فى الردِّ على الأسئلة الخاصة برئيس الوزارة وفى عرض رأى الحكومة . وكان بعض المطلعين فى لندن يعلمون أن تشرتشل ليس فى العاصمة . ولكن الصحافة البريطانية ، تعوَّدت أن تقيم بنفسها على نفسها رقيباً فى هذه المسائل الخطيرة . وقد فعلت مثل ذلك أسابيع متوالية قبيل إذاعة الأنباء الخاصة بالملك إدورد الثامن . فامتنعت عن التساؤل عن تشرتشل وأين هو، أما الصحافة الأميركية فلم تمتنع . وقد خلصت من تساؤلها إلى القول بأن روزڤلت وتشرتشل مجتمعان فى مكان ما ، فى البحر . وكان هذا القول صحيحاً .

هذا الاجتماع هزَّ خواطر الأمم الحرَّة ، بما تجلى فيهِ من إقدام الرجلين ومشيريهما و بما رمز إليه — على قول تشرتشل — من حشد قوى الخير العالمية ضد قوى الشرِّ ، ثم بما أسفر عنهُ من وثيقة تاريخية ، أصبحت فيما بعد أساس الاتحاد أو التحالف الذى أنشىء بعد دخول الولايات المتحدة الحرب ، وأطلق عليه اسم الدول المتحدة . هذه الوثيقة هى المعروفة باسم « وثيقة المحيط الأطلسى » ونصوصُها كما يلى :

(١) أن بلديهما (بلدَى روزفلت وتشرتشل) لا يسعيان إلى التوسع لا فى الممتلكات ولا فى غيرها .

(٢) أنهما لا يريدان تبديلاً اقليمياً ما ، لا يطابق رغبة الشعوب صاحبة الشأن.

(٣) أنهما يحترمان حق جميع الشعوب فى اختيار نظام الحكومة التى تعيش فى ظلها ، وأنهما يرومان إرجاع حقوق السيادة والحكم الذاتى للأمم التى حرمتها بالقوة .

(٤) انهما يحاولان — مع احترام التزاماتهما القائمة الآن — منح جميع الدول، صغيرة كانت أو كبيرة ، ظافرة أو مقهورة ، حق الوصول إلى اتفاقات تجارية متساوية ، والحصول على مواد العالم الأولية التى تحتاج إليها لرخائها الاقتصادى .

(٥) انهما يرغبان فيما يتعلق بالشؤون الاقتصادية ، فى الحصول على التعاون التام بين جميع الأمم لضمان تحسين أحوال العمال والتقدم الاقتصادى والسلامة الاجتماعية.

(٦) انهما يأملان بعد سحق الاستبداد أن تتوطد دعائم السلم الذى يمنح جميع الأمم وسائل العيش بسلام داخل حدودها ، فيتمكَّن الناس فى جميع أنحاء المعمورة من العيش فى مأمن من الخوف والعوز .

(٧) أن يتيح هذا السلام للناس اجتياز البحار والمحيطات بغير عائق .

(٨) انهما يعتقدان أنهُ يجب على جميع أمم العالم أن تعدل ، لاسباب مادية وروحية ، عن استخدام القوة . ولما كانت المحافظة على السلام فى المستقبل مستحيلة ما دامت الأمم تهدد بالسلاح البرى والبحرى والجوى ، أو تستطيع أن تهدد جيرانها بالاعتداء ، فتجريد هذه الأمم من السلاح من المسائل الجوهرية الآن ، إلى أن يتم إنشاء نظام شامل للسلامة العامة . وعليه فستسعيان إلى تأييد وتشجيع جميع الأساليب التى تخفف أعباء التسلح الساحقة ، عن عاتق الشعوب المحبة للسلم .

وفى هذا الاجتماع وضعت القاعدة التى قام عليها عون بريطانيا والولايات المتحدة لروسيا .

ويلوح مما اطلعت عليه من خطب روزفلت (تقرير المبادىء العامة) وخطب ولاس (وكيل الرآسة الأميركية) وهَلْ (وزير الخارجية) وسمنر ولز (وكيل الخارجية) ومما نشر من فصول لأقطاب الباحثين فى نشرة معهد كارنيجى للسلام الدولى أن الدول المتحدة يجب أن تتوخى هدفين اثنين بعد نهاية الحرب :

أما الأول فالمحافظة على سلام العالم بفرض نزع السلاح على دول المحور ، وحراسة العالم لحفظ الأمن العام فى نصابهِ ، على أن تتولى بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا والصين فى المقام الأول هذه الحراسة .

وأما الثانى فإتاحة مزايا عظيمة الشأن لكل دولة تنتظم فى الهيئة الدولية التى تنشأ إحياءً لعصبة الأمم أو ما كان من قبيلها .

ومن هذه المزايا ما هو اقتصادى كحرية التجارة بين الأعضاء وحظر التميز بين دولة وأخرى فى العلاقات التجارية ، وتوزيع الخامات على أساس من العدل لكفاية الحاجة المعقولة لكل أمة فى أثناء السلام ، وإباحة المعونة المالية الأميركية للبلدان التى لا تملك رأس المال الكافى لتحقيق مشروعات المنشآت العامة ، والتعاون على توسيع نطاق الاتجار بين الأعضاء .

ومنها مايتعلق بالسلامة من الاعتداء . وفى تفكير هؤلاء الناس و بحثهم ميل صادق إلى جعل « السلامة المشتركة » حقيقة واقعة ، أى أنْ تعد سلامة كل أمة من أعضاء هذه الهيئة جزءًا لا يتجزأ من سلامتها جميعاً ، وهذا يعنى تعبئة قوة الدول المنتظمة فى الهيئة لمقاومة الاعتداء أنى أتى على كلّ دولةٍ صغيرة أو كبيرة منتظمة فيها .

وينتظر من جميع الدول التى تنتظم فى هذه الهيئة ، أن تضمن داخل حدودها الحقوق الانسانية الأصيلة لأبنائها و بناتها ، وهى الحقوق التى أفرغها روزفلت فى نصوص الحريات الأربع . وأن تقطع عهداً بتسوية كل نزاع دولى بأساليب التحكيم أو عرض النزاع على محكمة دولية ، عند ما تحبط المفاوضات . وأن تخفض تسلحها خفضاً كبيراً وتخضعهُ لمراقبة دولية .

وليس ثمة ريب فى أنَّ الدول المتحدة ستواجه عند نهاية الحرب مشكلات كبيرة مُلحّة تقتضى المعالجة السريعة ، ومن هذه المشكلات نزع سلاح ألمانيا و إيطاليا واليابان ، والحيلولة دون نشوب الثورات فى البلدان المغلوبة ، و إغاثة البلدان التى هوت عليها كفُّ الحرب قاسية مدمرة ، بإرسال الطعام والملبس إليها، واجتناب تسريح الجيوش إلى أن تضمن لرجالها أعمال يرتزقون منها ، ووقف الحرب الاقتصادية حالما ينتهى القتال ، وبذل العون لإنشاء حكومات تنزع إلى المبادئ الشعبية الحرَّة ، فتتولّى حفظ النظام فى البلدان المغلوبة وتتعاون مع الدول المتحدة على إنشاء عالمَ جديدٍ أفضل من العالمَ الذى دكَّت الحرب أركانهُ .

والحكمة تقتضى أن تعالج هذه المشكلات جميعاً وفقاً لخطط أُعدّت وتمَّ الاتفاق عليها الآن، حتى لا يكون العلاج مرتجلاً . وأن يُرجَأ عقد معاهدة الصلح أو معاهدات الصلح خمس سنوات أو عشر سنوات أو أكثر أو أقل . فاللجنة التى عينها معهد كرنيجى للسلم الدولى لبحث هذه الموضوعات ، ترى أن الأمم ستواجه ، حالما تنتهى الحرب ، مهمتين منفصلتين ولكنهما متفاعلتان ، ولا بدَّ من التأهب لهما قبل أن تفاجأ الأمم الظافرة بهما . هاتان المشكلتان هما : أولاً مشكلة التعمير السياسى والمادى والروحى التى تلى الحرب ورزاياها . وثانياً مشكلة إنشاء نظام دولى دائم وهى مشكلة بعيدة الأمد . والرأى الغالب على جميع الذى خصُّوا هذه الموضوعات بعنايتهم ، أن الأولى تحتاج إلى معالجة مباشرة ولا تحتمل التأجيل ، فلا بدَّ من إعداد الخطط لها ، وهو ما يصنع الآن . وفترة الانتقال من المرحلة الواحدة إلى الأخرى ، يرتبط أمدها بمدى النجاح فى إنشاء هيئة عالمية دائمة تكون كفؤاً للنهوض بالتبعات والمهام التى لم تنجز فى فترة الانتقال والتى تتصف بصفة دائمة . والضرورة لا تقضى بتعيين حدٍّ فاصل تنتهى عندهُ الأولى وتبدأ الثانية ، بل الرأى أن الواحدة تندمج فى الأولى اندماجاً مطرداً وفقاً لاستكمال إنشاء الهيئة العالمية واطراد تقدمها . فالغرض ليس

إنشاء هيئة عالمية على ورق ، بل نموُّ هـذه الهيئة كالجسم الحيّ .

أما هل توافق الولايات المتحدة ، على مضيّها فى المشاركة فى تحقيق هذه المشروعات فلا يستطاع الفصل فيهِ . ولكنَّ الرأى السياسىَّ الغالب ، هو أنهُ إذا اندمجت فترة الانتقال فى مرحلة التنظيم العالمىِ الدائم ، فالشعب الأميركى لا يواجه مسألة يتعيَّن عليهِ الفصل فيها — كمسألة الانتظام فى عصبة الأمم — وعندئذٍ يكون المضى فى التعاون الدولى هو الأمر الطبيعى ، والانكفاء عنهُ والتنكُّر له هو الأمرُ غير المحتمل .

ومن الواضح أنَّ عقد معاهدة صلح أو تنظيم هيئة عالمية ، لا يكفيان فى حدِّ ذاتهما لإنشاءِ العالمَ المرتجى . وهذا الإنشاء ليس فى صميمهِ إلاّ تربية خلقية وعقلية دائمة ، فنجاح النظم السياسية والاجتماعية أو خيبتها مردُّهما إلى أخلاق الأفراد والشعوب ، ولذلك يعدُّ روزفلت السياسىَّ العظيم معلماً عظيماً .

وقد أفرغ روزفلت روح العالمَ المرتجى فى فقرة جاءت على لسانهِ فى خطبةٍ ألقاها فى ١٥ ابريل ١٩٤٠ قال : « إن العالم — فى رأيى — يكافح الآن بحثاً عن أساس حياته فى القرون المقبلة . وإننى لأعيد أن الحياة يجب أن تبنى على « قِيَم » إيجابية دائمة .

« فقيمة المحبَّة ستكون دائماً أعظم من قيمة البغضاء ، لأن كلَّ أمة أو كلَّ جماعةٍ من الناس ، تنتضى سلاح البغضاء ، فان هذا السلاح سيمزق أوصالها فى آخر الأمر .

« وقيمة الايمان بالانسانية والعدل أعظم دائماً وفى كل أرض من قيمة الإيمان بالقوة ، لأن القوة تتجه فى آخر الأمر إلى داخل الأمة نفسها ، وعندما يحدث ذلك ، يُضْطَرُّ كلُّ رجلٍ أن يقيس قوتهُ بقوة أخيهِ ، وكل جماعة أن تقيس قوتها بقوة الجماعة الأخرى .

« وقيمة الصدق والإخلاص أعظم دائماً من قيمة الكذب والاستهتار .

« فليس هناك طريقة ما تستطيع أن تفصل فصلاً دائماً ما بين الناس ووحى

قلوبهم وضمائرهم أو تمنعهم من رؤية عواقب آرائهم الفاسدة على كرِّ الزمان . إنكم لا تستطيعون أن تفرضوا على الناس الايمان بأن أسلوباً ما من أساليب الحياة ، هو أسلوب صالح خيِّر ، إذا كانت الفاقة والمرض والموت من عواقبه .

« والمرء لا يمكن أن يكون صادق الولاء إلاَّ إذا كان حرًّا » .

ولو تكلم روزڤلت بلغة الشاعر لقال مع الشاعر اللبنانى الأميركى جبران خليل جبران فى كتابه « آلهة الأرض » على لسان أحد هذه الآلهة :

« أنهض الآن وأجرّد نفسى من الزمان والمكان . وأرقص فى ذلك الحقل الذى لم يوطأ . فتتحرك أقدام الراقصة مع أقدامى . وأنشدُ فى ذلك الجوّ الأعلى . فينبض صوت إنسانىٌّ فى صوتى . إننا سوف نمضى إلى الشفق . وقد نستيقظ فى فجر عالمٍ آخر . ولكنَّ الحبَّ باقٍ . وآثار أصابعه لن تمحَّى . الكور المبارك يشتعل . والشرر ينتثر . وكل شرارةٍ شمس . فخير لنا وأحكم ، أن نبحث عن بقعةٍ ظليلةٍ ننام فيها ملتحفين ألوهيتنا الأرضية . وأن ندع للحب ، إنسانيًّا وضعيفاً ، زمام السلطانَ على اليوم المقبل » .

LIBRARY
MASSACHUSETTS INSTITUTE OF TECHNOLOGY

خاتمـــة

سألت نفسى بعد ما أنجزت كتابة هذا الكتاب : لماذا كتبتهُ ؟ لم يدعنى أحد إليه ولا أغرانى أحد بهِ . ثم أجبت نفسى مطمئناً إلى أنهُ الجواب الصحيح : إننى كتبتهُ لأننى رغبتُ فى صحبة هذا الرجل فى أثناء المطالعة والكتابة . وقد نعمتُ بها ، لأن روزفلت رجل غير عادى — كما يتبين مطالع هذا الكتاب — حتى بين العظماء من رؤساء الولايات المتحدة . فقد نشأ نشأة كريمة مميزة ، لا تفرض النضال فى الحياة ولا تعد له . ولكنّ روزفلت ما فتىء منذ ما كان فى الثامنة والعشرين من عمره يناضل . ناضل محترفى السياسة ، وناضل المرض ، وناضل طبقة المموّلين ، وناضل أصعب أزمة اقتصادية منيت بها أمة صناعية كبيرة ، وهو الآن فى غمار نضاله الأعظم ، وبنضاله الأعظم أريد كسب الحرب وكسب السلام الذى يليها . وإذا استثنينا مناضلة المرض فقد كان فرنكلن روزفلت فى كل نضال نصير المنسيين والمنسيات فى الحياة ، وهم ركن الاجتماع الدمقراطى كما يتصوره ، ولا كيان لهذا الاجتماع فى رأيه إلاّ إذا تحرر السواد من الخوف والفاقة ، وتعلم بالإرشاد ، وهذا لباب حرياته الأربع . والسياسى الكبير فى نظره معلم كبير .

وقد تتبعت هذه السيرة ، على تفاوت فى الاهتمام بها من عشرين سنة أو تزيد . ففى سنة ١٩٢٠ رشح فرنكلن روزفلت لوكالة الرآسة عن الحزب الدمقراطى ، وجعل مدار معركة الانتخاب عصبة الأمم . وكان لولسن فى ذلك العهد منزلة ، وكان لاسم روزفلت — بعد ثيودور — مكانة ورنة . وهذا شاب وسيم غنى من آل روزفلت ومن أتباع ولسن ، تولى مناصب عالية فى سن الشباب ، وها هو ذا فى الثامنة والثلاثين مرشح لوكالة الرآسة الأميركية

وأسفت ، كأنما عرفته طوال حياتى ، عند ما قيل إنه أصيب بشلل الأطفال ، وسألت عنه عند ما زرت الولايات المتحدة ســـنة ١٩٢٤ ثم غاب ذكره عنى إلى سنة ١٩٢٨ عند ما عاد إلى حلبة السياسة على عكازين . فلما انتخب حاكما لولاية نيويورك (نوفمبر ١٩٢٨) تجدد اهتمامى بتتبع أخباره ، ولا سيما بعـــد ما انتخب رئيساً (نوفمبر ١٩٣٢) وقد ظهرت آثار هذا الاهتمام فى غير صحيفة مصرية واحدة .

وقد اعتمدت فى كتابة هذا الكتاب على المؤلفات التى أشرت إليها . وعلى مطالعات مستمرة فى شتى الكتب والمجلات التى تعالج الحياة السياسية فى الولايات المتحدة خلال العشرين السنة الأخيرة ، وأخرى تفصل النظام السياسى فى تلك البلاد . ولكن الاعتماد الأكبر فى الفصلين الأولين على الكتب المرقومة (٢ و ٣ و ٤ و ٥) . فعناصر الفترة الأولى من حياته — أى إلى سنة ١٩٢٠ — غير متاحة إلا فى هذه الكتب وما كان على شاكلتها . وأما الفصول الثلاثة الأخيرة فكان الاعتماد الأول فيها على أوراقه الرسمية وخطبه (١) ولا سيما المقدمات التى كتبها لها والحواشى التى علقها عليها ، وعلى سلسلة الكتب والرسائل المرقومة (٨) يستثنى من ذلك القسم الأول من الفقرة الخامسة فى الفصل الخامس ، فهو تلخيص واف للفصل الأخير من الكتاب المرقوم (٢) وقد نشر فى مجلة اتلنتك منثلى ، فاطلعت عليه فيها قبل أن أطلع على الكتاب ولخصته ونشرته فى المقتطف .

ويسرنى أن أوجه الشكر هنا إلى المستر ج . ارل جايكوبز ، فقد ساعدنى فى استحضار طائفة من الكتب من الولايات المتحدة ، وإلى مكتبة الجامعة الأميركية فى القاهرة ، فقد أباحت لى ما عندها فى هذا الموضوع وهى الكتب المرقومة (٨ و ١٠ و ١٤) وإلى الأستاذ حسن كامل الصيرفى فقد عاونى فى تحضير الأصول للطبع .

فؤاد صروف

٤ مارس ١٩٤٣

المراجـــع

1. The Public Papers and Adresses of Franklin Delano Roosevelt.
   Random House, *New York.*
   Macmillan, *New York.*
2. Roosevelt, Dictator or Democrat.
   Gerald W. Johnson, *Harper, New York 1941.*
3. Roosevelt.
   Emile Ludwig, Hamish Hamilton, London 1938.
4. Roosevelt.
   Basil Woon, Peter Davies, *London 1942.*
5. Roosevelt, and Then..?
   Stanley High, *Harper, New York 1937.*
6. Since Yesterday.
   Frederick Henry Allen, *Harper, New York 1939.*
7. This is My Story.
   Eleanor Roosevelt, Garden City Pub. Co., *New York 1939*
8. International Conciliation.
   Carnegie Endowment, *Nos. 300, 347, 358, 365, 367, 368, 371, 373, 377, 378.*
9. International Politics.
   Frederick H. Schuman Mc Graw-Hill Book Co.
   New York 1941.
10. American Foreign Relations.
    Editor, Charles P. Howland *Yale Un. Press 1928.*
11. America's Economic Strength.
    C. J. Hitch, *Oxford Un. Press London 1941.*
12. America in World Affairs.
    Allan Nevins, *Oxford Un. Press 1941.*
13. American Foreign Policy.
    D. W. Brogan, *Oxford Pamphlets No. 50.*
14. The American Presidency.
    Harold Laski, *Harper, New York 1940.*

١٩٤٣/٣/١/٩٥٦

ARCHIVES
UNITED NATIONS
ARCHIVES

DATE DUE

Shri Thakur Kotha
74/488

MAY 18 1978

LIBRARY
AGRICULTURAL UNIVERSITY OF NORWAY

E
807
S27
1943

- - MAR 1972

b. 12700 40x
I- 14163767